عبد الرحمن البزاز

نظرات

في

التربية والاجتماع والقومية

مع

مقدمة ضافية في النكسة وعبرها

ريع الكتاب للقوات المسلحة

١٩٦٧

مطبعة العاني ـ بغـداد

بِسْمِ اللهِ وَحْدَهُ

الإهداء

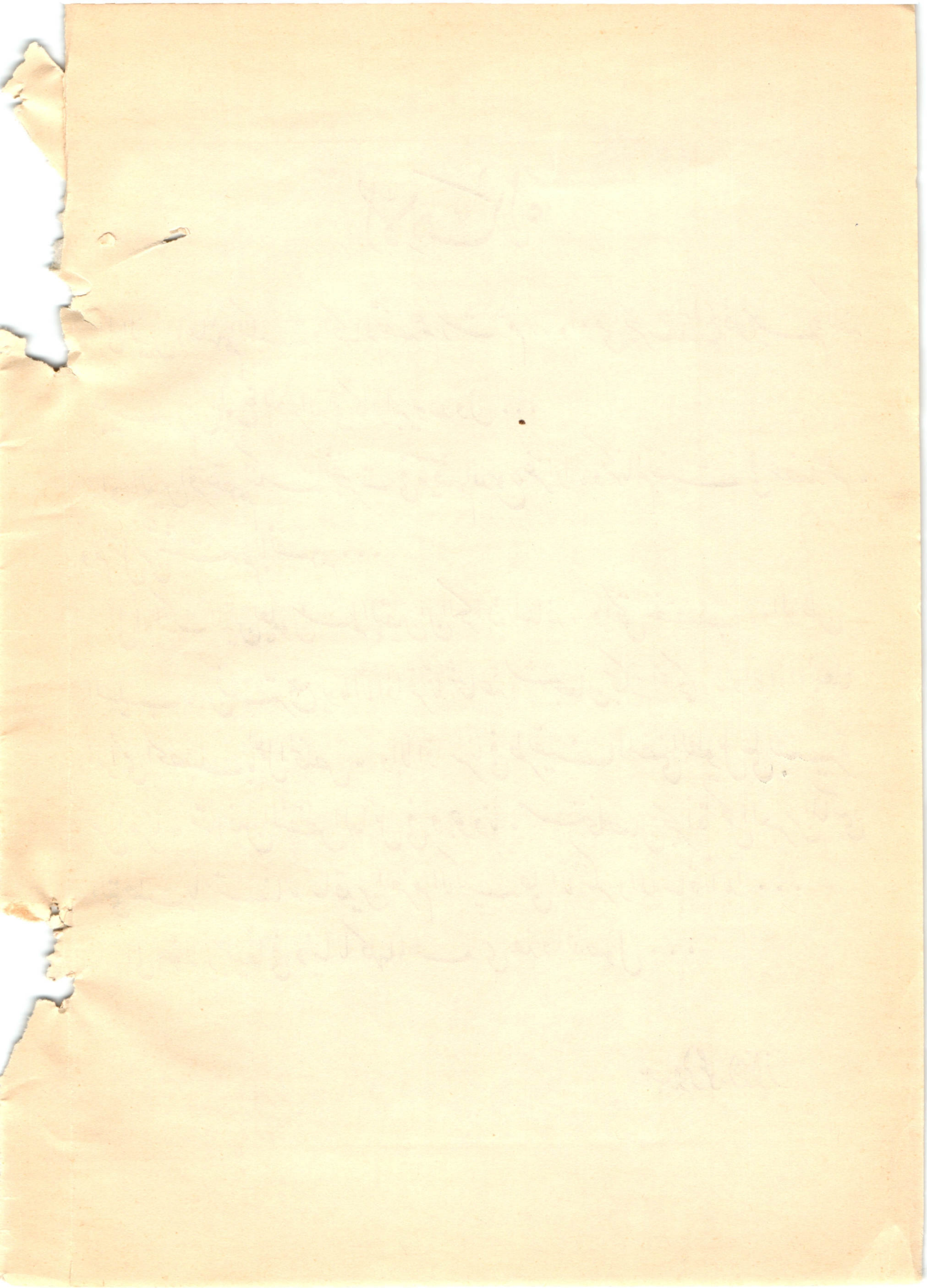
إلى الذين اذهلتهم النكبة ولكنها لم تفقدهم رشدهم .. وأدمى الجرح ايلبلغ قلوبهم ولكنه لم ييئسهم من بلوغ النصر الذي كانوا به يوعدون ...

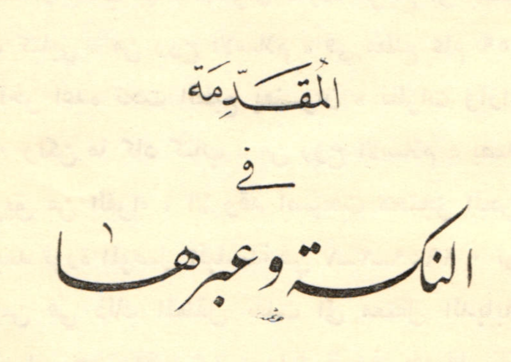
إلى الذين أفزعتهم النكبة فتفجرت في مآقيهم الدموع غزارًا ، ولكنها لم تفت في عضدهم ، ولم تنل من ثقتهم بانفسهم ...

إلى أولئك الذين يعلمون علم اليقين ان الكرامة المهانة ، والحق المغتصب ، والوطن السليب ، لن تسترجع يومًا الّا اذا قرنّا شجاعة الشجعان بحكمة الحكماء ، والّا اذا اتبعنا الرأي الحصيف بالعمل المخلص ، والّا اذا سرنا في طريقنا المضني الطويل على بصيرة من أمرنا ، متلافين النقص الهائل في وجودنا ، مستخلصين بجرأة كل العبر من المآسي التي حلّت بأمتنا ، عاقدين العزم الاكيد على الّا تتكرر المأساة أبدًا ...

إلى هؤلاء جميعًا في دنيانا كلها أهدي هذه الفصول ...

عبد الرحمن البزاز




المقدمة
في
النكبة وعبرها[1]



فكرة اصدار كتاب بهذا العنوان قديمة ترجع الى بضع سنين خلت ٠ فحين اصدرت كتابي « من روح الاسلام » في مطلع عام ١٩٥٩ اشرت فيه الى ان كتابا آخر اعده تحت الطبع بعنوان « نظرات وآراء في التربية والاجتماع » ٠ ولكن ما كاد كتاب « من روح الاسلام » يصدر الى السوق ، ويصل الى فريق من القراء ، الا وقد اصبحت محتجز الحرية في « معتقل ابي غريب » بعد ثورة الموصل الباسلة في ٧ـ٣ـ١٩٥٩ ٠ ثم بعد ان قضيت ردحا من الزمن في ذلك المعتقل نقلت الى معتقل الدبابات الرهيب في « معسكر الرشيد » حيث قضيت شهورا في ظروف جد قاسية ٠ ثم حين اطلق سراحي ـ تحت ضغط الاحداث ، والرعب الذى اصاب عبدالكريم قاسم من طغيان النفوذ « الفوضوي » ـ كنت اشكو من اعياء شديد اضطرني الى السفر الى لبنان للراحة والاستشفاء ٠ وفي ربوع لبنان كانت افكاري متجهة صوب العراق ، وكانت اخباره تصل اليّ تباعا فتزيدني آلاما على آلامي ٠

وشعرت حينذاك ـ بعد ان اشار علي الكثير من اخواني واصدقائي من العراقيين وغيرهم من ابناء الامة العربية ـ بان العودة الى بغداد تعني العودة الى حياة المعتقلات ٠ وفعلا كان قد صدر امر بالقاء القبض عليّ بتهمة الاشتراك في تحريض الجماهير على التظاهر ، بعد ان ارتكب عبدالكريم قاسم ابشع جرائمه واعني بها تنفيذ حكم الاعدام بفريق من الضباط الاحرار وكرام المجاهدين ، امثال « ناظم الطبقجلي » و « رفعت

الحاج سري » ، بينما كنت في تلك الفترة في لبنان • فصار لزاما عليّ ان اهاجر في الارض « لاجد مراغما كثيرا وسعة » • وهكذا ما كادت اشهر الصيف المقلق تنتهي الا وقد وجدتني في القاهرة استجيب لدعوة كريمة لامارس التعليم في الجامعة ، واسهم في الخدمة العامة عن طريق الاذاعة حينا ، وعن طريق المحاضرات العامة ، والمناظرات الجامعية ، والندوات الثقافية ، احيانا اخرى •

وكان من الطبيعي ان انصرف بعض الشيء عن مجهوداتي التي كنت قد عزمت على القيام بها وانا في بغداد ، وان اتجه الى الكتابة في موضوعات قومية كان من بعض آثارها كتابي الذي عنونته في طبعته الاخيرة « هذه قوميتنا » ، ثم كتابي الآخر الذي اسميته « من وحي العروبة » ، وكتاب ثالث كان اسبقها في الظهور اذ طبعته في بيروت سنة ١٩٦٠ وكان عنوانه « ثورة العراق هل كانت حتمية ؟ » • هذا اضافة الى اعادة طبع كتابي « الدولة الموحدة والدولة الاتحادية » ، بعد ان اضفت اليه فصولا جديدة ، ومقدمة شافية ، وبعض الملاحق الاخرى •

ولست هنا في معرض تعداد كل جهودي في ميدان الفكر والتأليف في الفترة التي قضيتها في مصر ، ولكني أعرض على عجل كيف مرت السنون وتتابعت الاحداث ، ولم اجد الوقت للايفاء بما التزمت به قبل القارىء العربي منذ امد بعيد • ذلك ان الاعلان عن كتاب ، والقول انه تحت الطبع ، التزام ادبي يحرص المدرك لمسؤولياته الفكرية على الايفاء به ، ولو بعد حين •

وحين عدت الى بغداد قبل نحو من عامين شغلت في العام الاول تقريبا بمهام رسمية ما كان من المعقول ان تسمح لي بالعودة الى هوايتي المحببة ، التي اعتبرها مهنتي الاصيلة التي اعتز بها • وحين تحررت من قيود الرسميات ، وبعد ان نلت قسطي من الراحة في الصيف الماضي ، وعدت الى مكتبتي موفور النشاط ، شغلت ، اول ما شغلت ، باصدار كتابي المعنون « مبادىء القانون المقارن » الذي كان نتيجة جهد بذلته حين طلبت الى كلية الحقوق في جامعة عين شمس ان القي محاضرات في مقدمة القانون

المقارن على طلاب دبلوم الدراسات العليا في تلك الجامعة • ولقد ظهر الكتاب منذ شهور قليلة ، وشرعت توّاً في العمل في كتاب اعلنت عنه واتخذت له عنواناً « مع الشعب » ولكنني ، وانا في غمرة العمل في ذلك الكتاب ، بدا لي ان أعيد طبع كتابي عن تاريخ العراق المعاصر ، بعد ان وجدت العديد من المحاضرات التي كنت قد فقدتها • وهكذا صرفت جهدا في اعداد الطبعة الثالثة لكتاب « العراق من الاحتلال حتى الاستقلال » الذي صدر في اوائل هذا الصيف بحجمه الجديد ، وفصوله العديدة المضافة ، ومقدمته المفصلة التي عالجت فيها طرفا من واقع العراق السياسي اليوم • وكنت عازما على العودة الى العمل في اصدار كتابي « مع الشعب » ولكنني مرة اخرى ـ وربما لاسباب نفسية بتأثير الظروف المحيطة بنا ـ اراني مدفوعا بقوة الى تفضيل جهد آخر على ذلك الكتاب الذي احس ان الظرف غير موات لاصداره • هذا بالاضافة الى شعوري بان انجاز الوعد الاسبق اولى بالرعاية ، ولعله اجدى في هذا الظرف بالذات وخاصة بعد ان اعتزمت على أن تكون مقدمته هذه بحثا في اسباب النكسة ، او على الادق النكبة الثانية التي حلت بامتنا ، وحلت في واقع الحال بالمسلمين عامة ، وبكل طلاب الحرية والمؤمنين بالكرامة الانسانية من البشر اجمعين •

* * *

لقد اذهلت هذه النكبة الكبرى كل فكر ، وعقلت كل لسان ، وادمت كل قلب يخفق بالشعور الانساني الكريم • وستبقى آثارها جروحا عميقة تنزف الدم الغزير امدا طويلا ، وستبقى مآق عديدة تذرف الدمع سخيا على كل غال فقدناه ، كما ستبقى ايضا ضمائر تشعر بالتبكيت الممض على ما فرطنا في جنب الوطن والامة في ذلك الظرف العصيب •

وطبيعي ان يختلف الناس في اسباب هذه النكسة او النكبة ، وتتعارض آراؤهم في ذكر اسبابها ، وتعداد عللها ، وهم سيذهبون في ذلك مذاهب شتى ، بل وسيتخبط بعضهم كل تخبط في هذا المضمار ، وسيغلو هذا الفريق في هذا الاتجاه او ذاك بعض الغلو او كله •

سيقول فريق اننا غلبنا لاننا لم نصف الجبهة الداخلية ، ولم نقم

الاشتراكية العلمية اساسا لوجودنا الاجتماعي والسياسي ، ولم نقض على بقايا الرجعية المنبثة هنا وهناك في ارجاء الوطن العربي • في حين يقول المعارضون لهذا الرأي باننا غلبنا لتفرق صفنا ، وغلونا في الاشتراكية ، وتشتت شعبنا بسبب شعاراتها ، ورهبته من مغبة آثارها •

وسيقول فريق آخر ان اهم اسباب النكسة اننا لم نعتمد على الدول الاشتراكية تمام الاعتماد ، ولم نتعاون معها جميعا بصدق واخلاص ، وبقيت روابط الكثيرين منا وثيقة بالنظم الاستعمارية والرأسمالية التي كانت المنشىء الحقيقي للصهيونية ، والمنميّ لها ، والحريص على دوامها ، لتكون وجهها المقنع لاستعمارها الجديد • في حين يقول المعارضون لهذا الرأي اننا ابتلينا بهذه النكبة لاننا غالينا في عدائنا للغرب وقطعنا معه كل الاسباب ، وافرطنا في حسن ظننا بالدول الاشتراكية ، ونسينا ان اسرائيل قد خلقت بالتعاون العجيب بين الولايات المتحدة الامريكية ـ زعيمة الدول الرأسمالية ـ وروسية السوفيتية ـ قائدة المعسكر الاشتراكي •

وسيقول فريق ثالث اننا انهزمنا لاننا لم نزل نحيا في ظل عقلية القرون الوسطى ؛ نؤمن بالغيب ، ونعتمد على القوى الروحية ونقيم نظمنا ومقاييسنا الاجتماعية على اسس بالية من مثل البرجوازية المقيتة • في حين ينادي المعارضون بأننا هزمنا اولا وبالذات لضعف الروح المعنوية ، وغلونا بالأخذ بالماديات وابتعادنا عن تعاليم ديننا ، وافراطنا في تقليد الغرب واصطناع ماديته •

وسيقول فريق رابع اننا قد خذلنا من جديد لان دعايتنا وتوجيهاتنا لم توفق في رفع معنويات جيوشنا ، فقد بقي الشعور السائد بين قواتنا المسلحة بأنها تحارب جيوشا اقوى منها واحسن تسليحا ، واكثر عددا ، واوفر عدة • وحول هذه المسألة بالذات نجد فريقا آخر يقول على العكس من هذا باننا غلبنا لاننا قد غالينا في استصغار شأن عدونا ، واشعنا روح الاستهتار بقابلياته ، ونمينا بين قياداتنا العسكرية وضباطنا مشاعر الاستعلاء والتفوق مما هو مخالف لواقع الحال ، ولذلك كانت المفاجأة مذهلة ، وردود الفعل فظيعة •

وقد يقول فريق خامس ان سبب الغلبة التي حققها العدو يرجع الى اننا جابهناه غير واضحي الفكر القومي ، اذ كنا نمزج في احيان كثيرة ، بين القومية والدين . وكان لزاما علينا ان نفلسف قوميتنا العربية على اشد صور القومية عنفا ، واكثرها تعصبا لنستثير الحماس والنخوة ، وندفع الجماهير بتصميم اعمى للتضحية والفداء . وعلى النقيض من هؤلاء سيقول آخرون بل ان النكسة قد حلت بنا لاننا غالينا بقوميتنا واهملنا الاسلام ، ولم نفد من دعوة الوحدة الاسلامية التي كان من الممكن ان تجمع حولنا مئات الملايين العديدة ، فنستثير حماسها الديني لنصرتنا ، ونؤلف منها كتلة هائلة يرتاع لنفوذها الغرب والشرق على حد سواء ...

وقد نجد فريقا سادسا يقول اننا غلبنا هذه المرة لاننا لم نحسن الدعاية لقضيتنا ، واعتمدنا على قوانا الخاصة غير عابئين بالرأي العام العالمي ، وغير مدركين لمدى تحسس الشعوب الاخرى تجاه قضيتنا وقضية عدونا . ولعلنا نجد في الطرف الآخر من يعارض هذا الرأي فيقول ان اهتمامنا بالدعاية الخارجية ، وترددنا في ان نأخذ المبادأة بايدينا فعلا ، ونجهز على عدونا هو الذي جر اذيال الخزي علينا ، وكان لزاما علينا الا نعبأ بشيء غير سلاحنا وقواتنا التي كانت ستفرض وجودها على عدونا وانصاره فرضا ، وتأخذه غيلة اخذ عزيز مقتدر .

وقد يكون هناك فريق سابع يرى أننا فشلنا هذه المرة ، كما فشلنا في الجولة الاولى ، لاننا دخلنا المعركة التي فرضت علينا ، ونحن دول شتى لم نتوحد او نتحد ، بل ولم توجدلدينا قيادةعسكرية موحدةعلىالاقل ، وليس من المعقول ان ننتصر حين نكون اشتاتا وعدونا واحد يتصرف بكل قواته ، وفي كل الجبهات ، حسب خطة مدروسة ، يختار الوقت اللازم ، والظرف المناسب ، والمكان الذي يشاء . وفي هذه النقطة بالذات قد يقول آخرون ان دعوة الوحدة او الاتحاد هي التي اخافت بعض الدول العربية ، وزادت في شكوك بعضها ببعض فحال ذلك دون تعاون جيوشها ، او على الادق جعل دخول تلك الجيوش الى اقطارها متأخرا بحيث لم تسهم جديا في المعركة . ويضيف هؤلاء انه كان من الخير لنا لو اننا دخلنا المعركة ونحن

نؤمن بالكيانات العربية القائمة ونحترمها ، ونتعاون بصدق واخلاص على اساس من هذا الواقع دون مواربة ، او طرح شعارات يريدها البعض سبيلا لجر مغنم ، وتمكينا لسياسته ضد الآخرين .

ولعل فريقا ثامنا يقول اننا اندحرنا لاننا لم نستجب لنداء الاحزاب الطليعية ، ولم نتبنَّ شعاراتها ، ونشد ازر قادتها ، ونستسلم لقيادتها . على حين سيقول معارضو هذا الرأي بل ان علة العلل تكمن هنا ، فان تلك الاحزاب بمغالاتها في فرض وجودها ، ومعاداتها لكل من لا يستجيب لجميع نداءآتها ، وعنفها في محاربة خصومها ، قد ابعدت عنها جماهير الشعب ، واثارت الهلع في قلوب الكثيرين من المواطنين الذين لم يكن امامهم الا ان يبقوا سلبيين تجاهها في احسن الاحوال . وهذا مما مكن العدو من ان ينتصر انتصاره الساحق المفاجيء ، لانه كان يحارب حكومات تفتقد الجذور الشعبية العميقة .

وقد يذهب فريق تاسع الى ان اساس البلوى قد جاء بسبب تشتت قوانا ، ومحاربة بعضنا بعضا وتبديد طاقاتنا اما بحروب داخلية ، او بارسال قوات عربية تقاتل دولا عربية اخرى او على الاقل عربا آخرين . ويذكر هؤلاء اليمن مثالا فيقولون ان تلك الحرب التي دامت سنين عديدة قد استنزفت الطاقات الهائلة ، ولولاها لصمدت تلك الجيوش تجاه اسرائيل ، كما كان من الممكن ان نفيد من جيوش عربية اخرى من السعودية ومن اليمن ذاته . وباستطاعة فريق معارض لهذا الرأي ان يقول ان الذين عملوا مع الاستعمار على اطالة الحرب الاهلية في اليمن ، وحالوا دون استقرار النظام الجمهوري ، قد عرقلوا مسيرة القومية العربية واستنزفوا جزءا من طاقاتها ، وعليهم يجب ان تقع مغبة ما اصابنا من نكسة في صراعنا مع اسرائيل .

وقد نجد فريقا عاشرا يقول : ان انظمة الحكم السائدة في اكثر البلاد العربية لم تكن على مستوى المسؤولية ، فالعيب في الساسة والتوجيه القيادي وعدم ادراك طبيعة الظروف التي اختيرت لتحقيق هذا الصدام الذي افاد العدو منه . على حين يعارض هذا الفريق آخرون فيركزون اللوم على

القيادات العسكرية ، ويشيرون الى ضعفها ، وتخبط خططها ، وهزال اجهزة استخباراتها ، وعجزها في اكثر من قطر عربي عن اكمال تعبئتها في الوقت المناسب ٠

واذا ما استرسلنا في تحري العلل والاسباب فبالامكان ان نستقرىء عشرات الآراء الاخرى المتعارضة ٠ فقد يركز بعضهم على انعدام الحكم الديمقراطي في اكثر البلاد العربية ، على حين يركز البعض الآخر على ضعف اجهزة الاعلام وعجزها ٠ وقد يحاول آخرون رد المشكلة اساسا الى الدول الغربية الكبرى التي عادت العرب ، وما تزال تعاديهم ، لاسباب قد يرجعها البعض الى بقايا الروح الصليبية ، حين يرجعها آخرون الى خشية الغرب من الامة العربية وتحقيق وحدتها ، لما قد يؤدي ذلك من اضرار في مصالح دول الغرب الكبرى وخاصة في الشؤون الاقتصادية ، وعلى الاخص النفط العربي ٠٠٠

ان الاستقصاء الدقيق المستوفى لادراك كل علل هذه النكبة واسبابها لن يتأتي لانسان بمفرده ، مهما اوتي من فكر ثاقب ، وعلم غزير ، وموضوعية متزنة في معالجة اخطر الامور ، ولا بد لنا من ان نمكن فريقا ممن يحملون عقولا نيرة ، وارواحا عالية ، وشجاعة في الرأي فائقة ، وعلما بحقائق الامور ، وادراكا لطبائع الافراد والجماعات ، وفهما لعبر التاريخ ، ليفرغوا الى دراسة هذه النكبة المفجعة من جميع وجوهها ، ويشيروا على امتنا بما يجب عليها الاخذ به ، والسير بمقتضاه ، على هدى ما تتكشف عنه نتائج دراسة هذا الفريق وتحرياته ٠

والى ان يتحقق لنا ذلك فلابد لذوي الرأي ان يبدوا آراءهم بجرأة ، ولابد لنا من ان نملك الشجاعة الادبية لنقد الذات ، والصدع بالحق ، مهما يؤلمنا هذا ، ومهما يسبب لنا من مضايقات ومتاعب ٠

ومع اعتقادي بان الآراء التي حاولت ان اذكر طرفا منها قد يحوي الكثير منها على مقادير متفاوتة من الحق ، فان اسباب النكبة الأصيلة تكمن ـ فيما ارى ـ في اشياء اخرى يمكن اجمالها على الوجه التالي :

ان مرجعها الاساسي : « سوء في تربيتنا » ، و « اضطراب في تكوين

مجتمعنا » ؛ وبعبارة ادق ان سر مغلوبيتنا ذاتي يرجع اولا وبالذات الى هزال قيمنا الروحية ، وضعف بنائنا الاجتماعي . فداؤنا فينا ، ومصيبتنا في ذات نفوسنا . واذا ملكنا الجرأة الكاملة قلنا : لم يكن عجيبا ان نغلب ثانية ، بل كان سيكون من العجب العجاب لو اننا انتصرنا ...

وكيف يتأتى لنا النصر تجاه عدونا ونحن متفرقون ، « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » حين بدا عدوانا ـ في اثناء الازمة خاصة ـ صفا واحدا متراصا ؟! .

بل كيف نرجو ان نتغلب على عدونا في هذا الزمن حين كنا نرتجل اجل اعمالنا واخطرها ارتجالا ، في حين كان عدونا يخطط لكل اموره ، ويوازن في كل حركة من حركاته او عمل من اعماله . بل كان قد اعد عدته منذ شهور بل قبل سنين عديدة ، حاسبا لكل احتمال حسابه ؟! .

ثم كيف نرجو الله ان ينصرنا وقد اكد لنا انه « لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . فهل من الحق اننا غيرنا ما بانفسنا ؟ هل قضينا على الانانيات المستحكمة فينا ؟ هل خففنا من غوغائياتنا وادعاءاتنا الضالة المضللة ؟ هل سلكنا سبيل العمل المثمر ، ام بقينا نهزل حين كان العدو جادا ؟ ترى كيف نرجو النجاح ولم نعدّ انفسنا الاعداد التام لهذا الامتحان العسير ؟ وبأي حق نرجو النجاة ولم نحاول بعمق واخلاص ـ على الاقل ـ ان نخفف من الاخطار التي كانت تهددنا من كل جانب ؟

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ان السفينة لا تجري على اليبس

بعد هذا يحسن بنا ان نلم باهم اوجه النقص التي تكشفت عنها نكبتنا الاخيرة هذه ، مع الاشارة العابرة الى كيفية تلافيها .

اولا ـ ان اية دولة عربية ، مهما اوتيت من قوة ، لن تستطيع ان تتغلب بمفردها على قوى البغي الصهيوني ، ولابد لنا ان نجابهها مجتمعين .

واذا كان سوء الطالع قد رافقنا الى يوم الناس هذا ، وبقينا دولا شتى نحارب اسرائيل ، او على الادق تحاربنا اسرائيل كيف تشاء ، وفي الوقت الذي تشاء ، فان العبرة الاولى التي يجب ان نخلص اليها ، ونؤمن بها ، ونعمل على عجل جادين لتحقيقها على الاقل ، هي « اقامة قيادة عسكرية

موحدة » ٠ ويجب ان يكون لهذه القيادة الموحدة ما يجب ان يكون لكل قيادة عسكرية موحدة من سلطان حقيقي على الجيش العربي كله في شـؤونه كافة ؛ في توزيعه ، وكيفية استخدامه ، وتسليحه وتعبئته ، وعلى العموم في خضوعه خضوعا تاما لسلطانها بحيث لا تستطيع اية دولة عربية ان تعارض مثلا في دخول هذا الجيش اية بقعة من اراضيها ٠ ان تعثر القيادة العربية الموحدة التي انشأتها جامعة الدول العربية بعد مؤتمر القمـة الاول كان من اسباب هذه النكسة المفجعة ٠ فـلابد لنا اذن من العودة العاجلة اليها بعد تطويرها وزيادة قوتها ونفوذها بما يتناسب وعظم التبعة الملقاة اليوم على عاتقها ٠ انه من المضحك المبكي الا تقوم « القيادة العسكرية الموحدة » بين الجمهورية العربية المتحدة والاردن مثلا الا قبيل ايام معدودات من بدء العدوان الاسرائيلي ، وان لا يوقع العراق على الدخول في هذه الاتفاقية الا بعد ان بدأ العدوان فعلا اوكاد[1] ، وان تبقى سورية خارجة عن اطار هذه القيادة حتى بعد انتهاء العدوان ٠ وان دولة كالجزائر ـ بما ابدت من استعداد مخلص للتضحية ، وجهود مشـكورة في الاستمساك بالحق العربي والكرامة العربية ـ لم تستطع ان توصل قواتها الى ارض الجمهورية العربية المتحدة الا بعد ان انهى العدو غاياته في حربه اللئيمة الخاطفة ٠ فلا بد اذن من قيادة عسكرية موحدة قادرة على العمل قـد اعدت مخططها للمعركة كاملة ٠

ثانيا ـ والحقيقـة الثانية التي يجب ان نخلص اليها ، هي اننا كنا ـ على الرغم من بعض التوافق الشكلي ـ نسلك سياسات خارجية متباينة بعض الشيء احيانا ، ومتعارضة بعض التعارض او كله في احيان اخرى ٠ ولن يتأتى لنا النصر العكري الا حين تكون لنا سـياسة خارجية واحدة بحيث لا نبدو في اعين العالم الخارجي وكأننا اشتات من دول لا يؤلف بينها غير المواقف السلبية ، ولا تجتمع كلمتها الا حينما تكون في حالة

---

(١) وقع ميثاق الدفاع المشترك بين الجمهورية العربية المتحدة والاردن في ٣١ ايار ١٩٦٧ ٠ وبين الجمهورية العربية المتحدة والعراق والاردن في ٤ حزيران ١٩٦٧ ٠

خذلان ٠ وسبيلنا الى توحيد سياستنا الخارجية ـ كمرحلة اولى ـ هو تطوير الجامعة العربية والاخذ بما سبق ان تقدم به العراق قبل نحو من عامين من لزوم تعديل ميثاق جامعة الدول العربية ، وتطويرها الى ما يشبه « الاتحاد الكونفدرالي »(١) وترك فكرة الاجماع لصيرورة قرارات الجامعة ملزمة للدول العربية كافة ٠ ان هذا المطلب اصبح ضرورة حياتية لا يمكننا بحال من الاحوال ان نتوانى في تحقيقه اذا اردنا ان ننتصر ٠

ثالثا ـ والحقيقة الثالثة التي يجب ان نخلص اليها هي لزوم توحيد اجهزة الاعلام والنشر ، او على الاقل ، تنسيقها بحيث لا يستفيد العدو من التناقضات والمهاترات التي اضعنا فيها جهدا هائلا لا طائل وراءه ٠ ان الكلمة التي تذاع من محطة عربية ايا كانت تسجل ويحاسب عليها العرب ٠ وكنا ـ لسوء الحظ ـ كثيرا ما نعطي اسلحة ماضية في ايدي خصومنا بسبب

---

(١) يسمى الـ Confederation بالعربية بـ « الدول المتحدة اتحادا عهديا » او باختصار « اتحاد التعاقد » او « الاتحاد التعاهدي » ٠ وكذلك يسمى احيانا « بالاتحاد الاستقلالي » ٠ ذلك ان السيادة تبقى في كل دولة من دول هذا الاتحاد ٠ ويكون للهيئة المركزية او دولة الاتحاد اختصاصات محدودة ونوع من السيادة في المدى الذى تقرره دول الاتحاد ذاتها ٠

ومن الجدير بالملاحظة ان معظم الاتحادات التعهدية هذه تكون مقدمة لقيام النظام الاتحادي او الدولة المتحدة بالمعنى الادق والاخص ، وهو ما يسمى بالانكليزية federal state ٠ وتلجأ الدول غالبا الى هذا النظام الاتحادي العهدي بعد النكبات والحروب لدى « الشعوب التي تتعرض لضغط او قهر من الخارج ٠ وما تعلقه عليه من أمل كبير في ان يلم شتاتها ويركز قواها ويوجهها الى خيرها وحمايتها مما تتعرض له من خطر وضغط » ٠ انظر تفصيلات عن نظام الكونفدريشن في ص١٠٩ وما بعدها في كتاب « نظرية الاتحاد بين الدول وتطبيقاتها بين الدول العربية » ، تأليف الدكتور الشافعي محمد بشير ، الطبعة الاولى ، الاسكندرية ١٩٦٣ ٠ وانظر تفصيلات عن نظام الدول الاتحادية في كتابي « الدولة الموحدة والدولة الاتحادية » ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٦ ٠ وانظر في الفرق بين الاتحاد الفدرالي والكونفدرالي كتاب "Federal government. by KG. wheare" الطبعة الثالثة ، ص ٣١ وما بعدها ٠

عبارات انفعالية لا تعني آخر الامر شيئا ، ولكنها تخدم عدونا المتربص بنا وتمكنه من استغلالها لمصالحه لاستدرار عطف دول الغرب وكثير من الدول الاخرى ، وقد يستحيل هذا العطف الى عون مالي او تجهيز بالسلاح ٠

ان اعادة النظر في اجهزة الاعلام ، والسياسة الاعلامية عامة ، موضوع جد خطير ، وهو بحاجة الى دراسة مستفيضة ونقد ذاتي صارم ٠ ويجب ان تكون لنا الشجاعة لان نعترف بان قسطا لا يستهان به من اسباب عداء بعض دول الغرب لنا ، وشماتتها بمغلوبيتنا ، يرجع الى اسفافنا في دعايتنا ٠ وكانت هذه الدعاية ـ في الغالب الاعم ـ تثير في الداخل نوعا من الغوغائية ، والاستعلاء المكذوب ، والآمال الباطلة التي تفتت العزائم ، ولا تشحذ الهمم ، حين كانت على الصعيد الخارجي ، تعرضنا للهزء والسخرية ، وتزيد في عداوة الاعداء وتنفير الاصدقاء ٠ وما اشد حاجتنا اليوم ، وقبل اليوم ، الى ان ننتفع بحكمة كان يرددها ثيودور روزفلت : « احمل عصا غليظة وتكلم بصوت ناعم » ٠ لقد كنا نعمل بعكس منطوق هذه الحكمة تماما في اغلب الاحايين ، كان صوتنا خشنا أجش منفرا ، على حين اننا لم نكن نحمل عصا او نحمل عصا رقيقة لا تخيف احدا ٠

فلو تحققت هذه الامور الثلاثة نكون قد خطونا خطوة مهمة نحو اقامة « كياننا العربي الشامل الواحد » ٠

وارجو الا يتصور احد ان هذا الذي اقترحه هو خاتمة المطاف في مسيرتنا القومية نحو وحدتنا ، كما آمل ان لا يقع احد في الخطأ فيظن انني اخطط لامثل صور « الوحدة العربية » واكملها في هذا الذي اعرضه هنا ٠ ان الذي بينته في هذه النقاط الثلاث هو الحد الادنى الذي يجب ان لا نتوانى يوما واحدا في العمل على تحقيقه ، لانه عملي وممكن ، كما انه ـ فيما ارى ـ صار اليوم خاصة حتميا اذا ما اردنا ان نرد العدوان ، ونستعيد الكرامة ، ومن ثم نستعيد الوطن السليب ٠

وارجو مخلصا الا ينفض مجلس الملوك والرؤساء الذي سيعقد ـ على ما تقول الصحف ووكالات الانباء ومحطات الاذاعة ـ عما قريب في السودان او الجزائر او غيرهما من الاقطار العربية الا وقد استقر الرأي على هذا

الحد الادنى على اقل تقدير . واذا تبين اننا قد اتعظنا حقا بالنكبة ، وخطونا خطوات اخرى تقدمنا اشواطا الى الامام وتقربنا من اهدافنا ، فسأكون من اسعد خلق الله . ولكني بنظرتي الواقعية ، وبما اعرفه من مشاكل الاقطار العربية الداخلية ، سأرضى بهذه الخطوات ، وساستبشر بها ، وساحس ، حين نخطوها ، اننا حقا صرنا نبصر طريقنا ، وبدأنا فعلا نسير على الدرب الذي يوصلنا آخر الامر الى مبتغانا .

رابعا - والحقيقة الرابعة التي يجب ان لا نمارى فيها هي اننا كنا نفتقد - اول ما نفتقد - التخطيط والدرس المسبق ؛ ان طابع الانفعالية ، ورد الفعل المباشر ، وعدم التفكير العميق بعواقب الامور احيانا ، كانت تسود اغلب تصرفاتنا واعمالنا . ان أية دولة من الدول ، او أمة من الامم لا تقوى على العيش اليوم وهي تواجه تحديات كالتي تواجهها امتنا العربية الا اذا اخذت بمبدأ التخطيط بكل ما يعنيه ؛ في السياسة ، وفي الاقتصاد ، وفي الحرب ، وفي الدعاية ، وفي التنظيم الشعبي ، وفي كل أمر جليل او بسيط من امورنا . ان سلوك بعض دولنا لا يختلف كثيرا عن سلوك المشايخ ، بل ان بعض شيوخ القبائل الكبيرة اكثر تعقلاً منها ، فانهم لا يقررون امرا خطيرا الا بعد مشاورة فريق من عقلاء القبيلة ورؤساء الافخاذ .

وقد آن لنا ان ندرك ان مصائر شعوبنا ، وبالنتيجة مصير امتنا ، يجب ان لا تبقى رهن ارادة شخص واحد او هيئة صغيرة قد تتصرف بحالة انفعالية مرتجلة . لقد آن لنا ان نؤمن بـ « الشورى » ونلتزم بها . وكم نحن بحاجة الى من يذكرنا صباح مساء بان رسول الله ، وهو نبي معصوم ، قد امره الله ان يعفو عن قومه ويستغفر لهم ، وان يشاورهم في الامر . وفي هذه الشورى تكمن روح الديمقراطية الحقة . فلابد لنا من ان نعمل ، بطريقة او اخرى ، لمعرفة رأي شعوبنا ، والسير حسب متطلباتها حتى نشيع الثقة في نفوس المواطنين ، وحتى يتم التعاطف والتجاوب الكامل بين الحاكم والمحكوم . ان هذه النكسة الخطيرة حرية ان تصرخ بوجوهنا : اقيموا انظمة حكم مستمدة من حاجات شعوبكم ، متجاوبة مع رغباتهم ، مدركة

مع ذلك طبيعة الزمن وروح العصر بحيث لا تبدو شعوبنا بالقياس الى عدونا وكأنها لم تزل « رعايا » ليس لها من الامر شيئا . اتركوا روح التعالى والاستئثار بالسلطة حتى كأن كل فئة حاكمة هي وحدها صاحبة الحق المطلق في التصرف في شؤون العباد . ان عدونا ـ حتى في اثناء العدوان ـ كان يجمع برلمانه ويستشيره ، ويستنير برأيه ، فاين هي برلماناتنا ؟ ودعونا الآن من البرلمانات فأين هي المجالس الاستشارية التي قد توصى بالرأي الناضج ، وتقدم النصيحة المخلصة ؟! .

هذه بديهية ، ولكن مع ذلك يماري فيها كثير من الحاكمين في اكثر من بلد عربي واحد ، حتى صار همهم الاول استمرار حكمهم كيفما يكون ، ومهما تكن النتيجة . والمؤلم بعد ذلك ان تجد المنافقين والدجالين يزينون هذا الوضع الغريب ويحسنونه في اعين بعض الحكام ، ويجدون لهم المبررات المكذوبة ، مثلهم في ذلك مثل المفتي الماجن الذي همه الاول ان يجد الفتوى لمستفتيه غير عابيء بشرع ، ولا ملتزم بقاعدة ، ولا مرتدع بضمير .

خامسا ـ والحقيقة الخامسة التي تجلت في اثناء العدوان الاسرائيلي الاخير وقبله ، هي ان سلوكنا ـ في الغالب ـ بوصفنا دولا كان كالسلوك الغالب على معظم افراد مجتمعنا ؛ نحب حين نحب ولكننا نفرط في الحب الى درجة الوجد والهيام ، ونبغض حينما نبغض او نعادي حينما نعادي ، ولكننا نغالي كل المغالاة في بغضنا ومعاداتنا حتى نوشك ان نقطع على انفسنا كل طريق للصداقة او الصلح . وقلما انتفعنا بالقول المأثور ، والحكمة البالغة ، القائلة : « احبب حبيبك هونا ما عسى ان يكون عدوك يوما ما ، وابغض بغيضك هونا ما عسى ان يكون حبيبك يوما ما »(١) .

اننا بحاجة الى من يذكرنا بان علاقات الدول ، والدول الكبرى خاصة ، تقوم ، اولا وقبل كل شيء على المصالح ، وان مصالح الدول كمصالح الافراد قابلة للتطور والتغير . فمن الخير لنا الا نفرط في حب ، ولا نغالي في بغض ، وان نترك لانفسنا سبيل العودة مفتوحا ، وان لا

---

(١) يقول البعض ان هذا القول هو حديث نبوي شريف .

نقطع بيننا وبين الآخرين كل الاسباب . ان الحمقى وحدهم هم الذين يتصورون العداوة الابدية بين الدول . ان كلمة « بارملستون » المأثورة : « ليس لبريطانيا اعداء دائميون ولا اصدقاء دائميون ، بل لها مصلحة دائمة » ربما تصلح أن تكون أساسا ، في علاقات الدول كلها ، في كل الازمان . وجدير بنا ان ننظر الى الماضي القريب في العلاقات الدولية عامة ، وعلاقاتنا مع تلك الدول . وما لنا نذهب بعيدا وهذه فرنسا تقيم لنا برهانا على صدق هذه النظرية .

فبعد ان عقدت معاهدة « ايفيان » مع الجزائر ، وتحقق استقلال ذلك القطر العربي المجاهد ، وبعد ان تخلت عن امبراطوريتها ونفوذها السياسي في شمال افريقية ، لم يعد من مصلحتها معـــاداة العرب . ولذلك وقفت موقفا كريما « نسبيا » تجاه العدوان الاسرائيلي .على اننا لو بقينا على سياسة الحقد الدائم ، والعداء المستحكم ، لما جاز لنا ان نرضى بصداقة فرنسا التي تسببت ، بطريقة او باخرى في استشهاد نحو من مليون شهيد من ابناء قومنا . ان العقلية البدائية هي وحدها التي لا تميز بين الابيض والاسود الوانا عديدة تتفاوت في قتامتها ونصوعها شدة . علينا ان نرضى من الدول ببعض الود ، وبعض الوفاء ، والا نهاجم من لا يستجيب لوجهة نظرنا كاملة . بل علينا ان ننمي علاقات الصداقة بان نشعر الطرف الآخر بحذق ودهاء بمدى ما تتعرض له مصالحه من ضرر في مخاصمتنا . وكلما كانت لغتنا مهذبة ، واسلوبنا حكيما ، كنا اقدر على الاقناع وكســب الانصار . ان لغة الشتائم ، والهجاء المقذع ، والتشــنيع الفج ، وتأجيج العداوة والبغضاء كل ذلك لا يخدم آخر الامر مصالحنا القومية . بل على النقيض من ذلك ستصبح اسلحة خطيرة بيد خصومنا يستعملونها ضدنا ويعزلوننا عن العالم .

واحسب ان اصطناع الحكمة في مناقشة الخصوم واجب علينا ايضا حين تختلف آراء دولنا وزعمائنا حول اي امر خطير . ليس من مصلحتنا القومية ان يهاجم بعضنا بعضا ويتهمه بابشع التهم . لقد صارت كلمات « خائن » و « عميل » و « مجرم » رخيصة حتى لو احصينا من قيلت بحقهم لتبين لنا اننا كلنا

اصبحنا مجموعة من الخونة والعملاء والمجرمين ٠ واسرائيل ترقب هذا ، وتستمع الى هذا ، وتسجل هذا ، وتذيع هذا في الوقت المناسب ٠ ترى هل ستبصرنا هذه النكسة المفجعة بهذا العيب الفظيع فنكف عن اسلوبنا هذا ، وندعو الى سبيل ربنا بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتجادل بعضنا بعضا بالتي هي احسن ؟! ٠

سادسا ـ وقد آن لنا ان نعترف باننا نقاسي من عيب نفسي دفين ربما كشفت نكبتنا الاخيرة عن بعض جوانبه ، هو اننا نميل الى تحميل غيرنا تبعة اخطائنا ٠ ان هذا النقص النفساني ينمو معنا منذ الطفولة ٠ فحين يكسر طفل في بيته اناء او قدحا مثلا سرعان ما يتهم اخاه او زميله في اللعب او خادمه ، ذلك لان شدة العقوبة من الوالدين ، وعدم استعدادهما للعفو عن المعترف المعتذر ، يدفع الطفل بالغريزة الى الكذب سعيا وراء تخليص نفسه مما قد يتعرض له من عقاب ٠ ان هذه الروح تنمو في المدرسة أيضا فحين يرسب الطالب في الامتحان مثلا تراه يقول ان المعلم او المدرس او الاستاذ الفلاني هو الذي تسبب في فشلي ٠ وقد يكرر ابواه هذا القول بيسر دون محاولة لادراك ما في هذا القول من افتراء وبهتان ٠ ذلك ان المعلم او المدرس او الاستاذ لا يرسب الطالب ولا ينجحه ، بل الذي يفعل ذلك هو الطالب نفسه وفاقا لاستعداده ، وملكاته ، وجده ٠ ولكن الميل الى اتهام الغير ، وعدم الاعتراف بالخطأ او الاساءة ، هو الذي يدفع معظم الطلاب الراسبين الى مثل هذه الاقوال المفتراة ٠ والغريب بعد ذلك ان يبقى هذا الميل لدى الساسة والقادة ٠ اذ نجد اليوم في كثير من البلاد العربية التي تحررت وتخلصت من الاستعمار الاجنبي كثيرا من زعمائها وقادتها ينسبون كل سوء ، وكل ضعف او خطأ ، الى الاستعمار ٠ على حين تقتضيهم الموضوعية الاعتراف بواقع الحال لا ان يصبوا جام غضبهم على امر زائل في محاولة لصرف شعوبهم عن معرفة حقيقة مصدر تلك الاسواء ٠ وطبيعي ان للاستعمار اسواءه ، وان بعض آثار سيئاته تبقى حتى بعد زواله ٠ ولكن من الظلم ان نرجع الاشياء الى غير اسبابها الحقيقية سيرا وراء انفعالات وعقد نفسية ورغبة في تضليل شعوبنا ٠

ان عوامل الضعف في وجودنا من هذه الناحية ستحتاج الى جهود جبارة لاجتثاث جذورها ، وسنحتاج الى قسط وافر من الشجاعة الادبية لنعلن تحملنا مغبة اخطائنا ، ولنسعى جاهدين للحيلولة دون تكرارها ٠ ان اعتراف الافراد بالخطأ فضيلة ، وهو بالنسبة لوجودنا القومي اكثر من فضيلة ٠ انه عنوان النقاهة من مرض عضال ، ودليل العافية التي بها نستطيع ان نحول الهزيمة الى نصر ٠ انه لمن الواجب علينا ونحن نواجه التحدي الاسرائيلي الفظيع أن نتغلب اولا على كل أدوائنا النفسية ٠ وان نرجع الاسباب الى مسبباتها الحقيقية ، وان نعترف بأخطائنا ، وان تكون لنا الشجاعة التامة لتحمل مغبة تلك الاخطاء ٠

سابعا ـ والحقيقة البالغة الاهمية الاخرى التى كان يجب ان تكون متكشفة لنا حتى قبل النكسة الاخيرة هى ان اسرائيل خطر فى ذاتها ، واعنى بذلك انه لا يصح لنا ان نقلل من شأن خطورتها بتكرار القول بانها « قاعدة للاستعمار الغربى » او انها « مخلب القط لبعض دول الغرب التى تحرص على اقامة وجود لها تصطنعه احيانا بطريق مباشر او غير مباشر لتحقيق اغراضها الخفية » ٠

لا جدال في ان من بين الاهداف البعيدة التي كان يرمى اليها بعض ساسة بريطانية من وعد بلفور ، واقامة « وطن قومى لليهود في فلسطين » هو الانتفاع ، عند الضرورة من ذلك الكيان في خدمة الاغراض الاستعمارية للامبراطورية البريطانية حينذاك ، ولذلك كان يقول احد ساستهم « لو لم تكن الصهيونية موجودة لكان واجب بريطانية ان تخلقها » ٠ ولكن مع ذلك ، وبعد ان وجدت اسرائيل حقيقة ، وعلى الاخص بعد ان قوى نفوذها ، واستقرت بعض الشيء دعائمها ، ليس من الحقيقة فى شيء وليس من مصلحتنا القومية فى شيء ، ان نتصورها « تبعا » مساقا لا ارادة مستقلة له ، ولا سياسة خاصة به ، يسير في ركاب الغرب فى كل امر حيثما سار ، او سارت بعض دوله الكبرى ٠ وبعبارة اوضح ـ وان كانت تبدو بعض الشيء صارخة ـ ليس من الواقع ان نتحدث عن اسرائيل بوصفها قاعدة

امريكية في منطقتنا العربية الا بقدر ما يصح ان نقول ان في الولايات المتحدة الامريكية قواعد مهمة لاسرائيل والصهيونية • وليس ذلك اشارة الى المدينتين العظيمتين اللتين تسيطر عليهما الصهيونية سيطرة هائلة ، وهما « نيويورك » و « لوس انجلس » حسب ، بل بالنسبة للعديد من المدن والمجتمعات والمنظمات والهيئات والشركات والدوائر واجهزة الاعلام والعلانية ايضا • وخلاصة ما اريد ان اقول : « كما ان لامريكا اليوم شـــأنا في التأثير في سياسة اسرائيل فان لاسرائيل والصهيونية العالمية شأنا في التأثير في سياسة الولايات المتحدة الامريكية » • واكثر من ذلك ، هناك صهاينة في اسرائيل ، وخارج اسرائيل ، يخططون بمكر ودهاء لاحالة الولايات المتحدة الامريكية كلها قاعدة لاسرائيل • فتنعكس الآية تماما بحيث يكون الموجه للسياسة الامريكية هم الصهاينة يستخدمون امريكا لاغراضهم النهائية الى ابعد المدى واشده خطورة ، لا على الامة العربية وحدها ، بل على العالم كله وفي طليعته الولايات المتحدة الامريكية ذاتها • ان هذه المطامح الشريرة ليست خفية على فريق من الامريكيين وهم بدورهم يعملون بشدة على مقاومتها ، وان كانت اصواتهم لا تسـمع الا نادرا • ولكن من الحق ان نعترف بان هناك امريكيين كثيرين ـ بينهم عدد من عقلاء اليهود ومثقفيهم واغنيائهم ـ يعتقدون بان مطامح الصهيونية هذه تكون خطرا عظيما على مستقبل الولايات المتحدة الامريكية ، وعلى الوجود اليهودى (من حيث ان اليهودية ، دين وحضارة لا شأن لها بدعوة الصهيونية السياسية) فى الولايات المتحدة الامريكية والعالم كله •

ومن هنا نخلص الى لزوم التمييز بين « الصهيونية » و « اليهودية » • وعلى الرغم من ان الكثرة الغالبة من يهود العالم ، ويهود الولايات المتحدة الامريكية خاصة ، هم اما من الصهاينة او من الذين يعطفون على الصهيونية واسرائيل ، فهناك عدد لا يستهان به ممن هم ليسوا فقط غير صهاينة بل هم يحاربون الصهيونية بقوة • فمن الخير لنا ايثارا للحق اولا ، ورعاية لمصالحنا في اصطناع اقوم السبل في الدعاية المنصفة ثانيا ، ان نبقي على هذا التمييز بين « اليهودية » و « الصهيونية » والا تضطرنا آلام الحاضر ،

وقسوة الاسرائيليين وفظائعهم لفقد ميزاتنا الانسانية الكبرى التى احتفظنا بها على مر العصور بتأثير من روح الاسلام المتسامية ، من رعاية « اهل الذمة » وعدم المساس بهم من حيث هم افراد وجماعات دينية يعيشون فى كنفنا ، وتحت رايتنا ، بل علينا ان نستمسك الاستمساك كله بالقاعدة القرآنية الخالدة « ولا تزر وازرة وزر اخرى » ٠

واني لأعلم عن يقين بان هذا الطراز من التفكير المثالى لا يطيب لفريق من الشباب العربى ، وقد لا يرضى عنه بعض الكهول والشيوخ ٠ وسيقول قائل منهم : كيف يطلب الينا ان نسلك هذا السلوك تجاه عدو غادر قام بالمجازر البشعة ، والجرائم التى يندى لها جبين الانسانية ٠ وقد يسترسلون فيعددون تلك الاعمال الوحشية من يوم وجد الصهاينة في فلسطين الى تدمير مدينة قلقيلية منذ اسابيع ٠ ان الذي يذكرونه حق لا مرية فيه ٠ ولكن العقوبة يجب ان توقع على المجرم نفسه ٠ هذا من جهة ومن جهة اخرى متى كان الظلم مبررا للظلم ؟ وفوق هذا اننا في تاريخنا الطويل قد التزمنا بآداب وسنن رفعت ذكر امتنا ، واشاد خصومنا بفضائلنا ، ويجب الا تدفعنا وحشية عدونا الى فقدان انسانيتنا ٠ ان سلوكنا المتسامي هو الذى سيخلدنا فى التاريخ حين تحل اللعنة الابدية بالقتلة المجرمين الذين قد يأتى اليوم الذى يحاكمون به بوصفهم مجرمى حرب ، واعداء للبشرية ٠

ثامنا ـ والحقيقة الكبرى الاخرى التى لا ادرى كيف خفيت علينا هى اننا كنا بحاجة ، ايما حاجة ، الى تعبئة كلية شـاملة لكل قوانا ، بكل ما في « الكلية » و « الشمول » و « القوة » من معان ٠ ان التعبئة التى اريدها هى ان تكون جيوشنا كلها ، واجهزتنا وطاقاتنا كافة ، ومواردنا وميزانياتنا جميعا معدة ومهيأة على اساس من هذه الحقيقة البديهيّة : هى أننا كنا ولم نزل في حرب مصيرية مع عدو قوى ماكر تمده قوى خارجية لا حصر لها ٠

ان هذه التعبئة تقتضينا ، بطبيعـــة الحال ، اعادة النظر في تكوين جيوشنا ، ومراتبنا وقياداتنا العسكرية وانظمة السوق وكـل ماله صلة بالحروب الحديثة ٠ وانه لمن المؤلم حقا ان نرى كثيرا من الجيوش العربية ، فى اكثر من قطر واحد ، قد استحالت اما الى قـــوى « امن داخلي » او

« مراتب حراسات » مهمتها الاولى حماية اشخاص او انظمة حكم معينة ، او الى « وحدات استعراضية » في « مناسبات رسمية عامة » ٠ ان تعبئة الجيوش العربية بهذا المعنى الذي نريده ، ونريده بحكم الضرورة الملحة التي لا تحتمل التسويف ، يستدعى ان تكون جيوشنا معدة اعدادا تاما ، ومزودة باحسن الاسلحة واحدثها ، قادرة على استعمالها بحذق ومهارة ، واعية مدركة تمام الادراك لمسؤوليتها التاريخية ، محيطة كل الاحاطة بمعنى الحروب الحديثة ومتطلباتها من حذق وصبر ودراية واقدام ٠

وفوق هذا ان هذه التعبئة الشاملة تفرض علينا ان نعيد النظر في قيادات جيوشنا بحيث تحل الكفاية والاخلاص ـ والكفاية والاخلاص وحدهما ـ محل اي اعتبار آخر لتولي القيادات والمناصب العليا في الجيش ٠ فلا التصحب ، ولا التحزب ، ولا ارتباطات الصداقة والعائلات ، ولا الصفات السلبية كأن يكون الفرد مسالما غير طموح فلا يخشى منه ان يقوم بانقلاب ، اقول لا شيء من هذا يجب ان يكون معيارا لاناطة المسؤوليات العظيمة بقادة الجيش ٠ اننا مطالبون بشدة ان نعيد النظر في قيادات جيوشنا لتكون حقا فى مستوى المسؤولية ، ولتوازى ـ ولو بعض الموازاة ـ قيادات عدونا الذكية المثقفة المدركة لمعنى الحروب الحديثة ٠

وطبيعى ان هذا كله يتطلب صوغ ميزانياتنا ، في اقطارنا العربية كلها ، صياغة جديدة مستوحاة من هذه الروح التى يجب ان تسيطر علينا كى نستطيع ان نخرج من المأزق الحرج الذى نحن فيه ٠

ان التسليح بالمعدات الحديثة لم يعد اليوم مشكلة ٠ ان المشكلة الكبرى هى رفع مستوى الفرد العربي ليصبح مقاربا من مستوى الخصم الذى اتيح له ان يجعل جنوده من الذكور والاناث بمستوى عال يضاهي اكثر البلاد الغربية تقدما في الصناعة والتقنية والثقافة وفنون الحرب ٠ ان تفوقنا العددى بالنسبة لخصمنا لن تكون له الفائدة المرجوة فى الامد القصير ، وفي الحروب الخاطفة التي سيبقى العدو قادرا على الافادة منها ٠ وما لم نعمل جادين على رفع مستوى افراد جنودنا ، بل ورفع مستوى افرادنا جميعا لنكون مع العدو في مستوى متقارب على اقل تقدير ، ستبقى الافضلية

لصالح عدونا الى امد غير قصير .

هـذه حقيقــة مؤلمة يجب ان لا نغفـل عنهـــا ، ولكننا على الرغـم من هذا ليس من حقنا ان نيأس . انّ ذكاء الفرد العربي وشـــجاعته ، فى كل اقطار العروبــة ، ليســـا موضع مظنـــة او اتهـــام . ان كل ما نحتاج اليه هو الاعداد ، والتدريب ، والتوعية الفكرية ، وملء قلوب افراد القوى الضاربة بالمثل العليا ، واشعارها بانها تحارب من اجل قضية مصيرية عادلة . وفوق هذا كله اراءتها ، بالفعل لا بالقول ، نماذج من قيادات تتمثل فيها هذه الصفات وتتجسم بحيث تنعكس آثار ذلك على الجنـــود والمراتب تلقائيا . ان الاقوال المجردة لا تفيد في رفع المعنويات ما لم تقترن بالمثل الصالح ، والحقائق الواقعية .

ويحسن بنا ، بعد هذا ، ان ننتقل الى امر آخر جد خطير . لقد اخطأنا خطأ فاحشا حين صورنا نجدة بعض جيوشنا لاخواننا الذين هم في الخط الاول وكأنهم يقومون بواجب الاخوة ، ويستجيبون لداعى النخوة . اما الحقيقة فهى ان كل قطر عربى مجاور لاسرائيل او غير مجاور لها حين يحاربها انما يحارب من اجل ذاته ؛ ومن اجل ابنائه واحفاده ومستقبل اجياله . اننا جميعا في المدى البعيد مهددون من اسرائيل ، وان مطامح الصهيونية لا تقف عند حدود . وان الذين يشعرون ببعض الامن النسبى اليوم لعدم اتصال حدودهم باسرائيل فعلا يخطئون اشـد الخطأ حين يتصورون انهم سيبقون الى الابد في امن دائم . وعلى ذلك فكلما اسرعنا في ادراك هذه الحقيقة : وهي « اننا بوصفنا امة واحدة ، في حرب كلية مع هـذا العدو الماكر » نكون قد اقتربنا من النصر ، وأمنا على مستقبل وطننا وامتنا . ان أى اهمال في ادراك هذه الحقيقة ، او تباطوء فى العمل الجاد السريع لها ، سيتهددنا بمخاطر ستكون اشد من المخاطر التي نقاسي اليوم منها ، ونعيش تحت كابوسها . وما لم نقم عقيدتنا العسكرية والسياسية على اساس من هذا التصوير الواقعى فستتكرر المأساة ، وقد نصاب بنكسة ثالثة ورابعة الى ان يشاء الله فيستبدل بنا قوما غيرنا ثم لا يكونوا امثالنا .

ان التعبئة الكلية التي نريدها تستدعينا وضع خطة مدروسة بعيدة

المدى قائمة على اساس من التقشف الحقيقي والتخطيط المدروس • ان التنادى في اثناء الازمة بالتقشف حين لا نقرن اقوالنا بالافعال سيجعل حكامنا وحكوماتنا ليس موضع هزء وسخرية من شعوبنا فقط ، بل موضع نقمة قد لا تبقى ولا تذر • ان الامر لجد خطير ، وان النذر لتتعالى من كل جانب • وما لم يستجب أولو الامر فينا الى متطلبات شعوبنا ، فسيحكم عليهم التاريخ باقسى الاحكام •

ومما هو وثيق الصلة بموضوع التعبئة الكلية واختيار القيادات العسكرية ضرورة اعادة النظر بالخطة السقيمة التى اتبعتها اكثر من دولة عربية واحدة في منح رتب لضباط على اساس حزبى بحيث آلت القيادات العليا الى صغار الضباط الذين رفعوا اعتباطا او تحزبا الى مراتب عليا • ان مجرد حمل الضابط رتبة عميد او لواء مثلا دون ان يمر بالمراحل الطبيعية التي يمر بها الضابط عادة ليصل الى هذه المراكز السامية لا يجعله مؤهلا حقا لمثل الرتبة التي يحملها • وتكون نتيجة ذلك حقدا لدى الاخرين الذين يرون من كان دونهم قد صار رئيسهم ، وغرورا عند هؤلاء الذين صاروا يتصورون ان الرتب التى يحملونها قد رفعت حقا من ملكاتهم واهلتهم الى القيادات الرفيعة •

لقد آن لنا ان ننجي الجيوش العربية من هذا العبث ، وان نضع قواعد سليمة صارمة تلتزم بها كما تلتزم بها جيوش العالم المتمدن كلها • ان الذين يقدمون خدمات حزبية او وطنية او قومية يجب الا يكافأوا على الاضرار بالمصلحة العامة واهمال الكفاية اللازم توفرها فيمن يتولون قيادات الجيوش ، وخاصة في مثل حالتنا الراهنة ونحن نتصدى لجيش حديث كفء معبأ لمحاربتنا واستغلال كل نقاط الضعف في جيوشنا وفي وجودنا كله •

هذه بعض العبـــر التى يجب ان نستخلصها من نكبتنا الثانية ، وباستطاعة الباحث المتعمق ان يصل الى نتائج عديدة اخرى • ولكننا هنا ـ كما اسلفنا من قبل ـ لسنا في معرض الاستقصاء والبحث العميق الكامل ، فان ذلك يتطلب تضافر جهود عديد من المتخصصين يبذلون كل طاقاتهم فى الغوص لاستكناه كل الحقائق لتجلية هذه النكسة واستخلاص نتائجها ،

لتكون الامة كلها على بصيرة من امرها ، وليتيسر للقادة وضع خطتهم في العمل على استعادة الكرامة المهدورة والحق السليب .

والحقيقة النهائية المستخلصة من عرضنا السريع هذا هى ان النقائص والعيوب والاخطاء التى تسببت فى النكسة هذه ليست مقصورة على قطر عربى خاص ، او جيش عربى معين ، او حزب او كتلة دون سواها ، او زعيم او رئيس دولة عربية بالذات . ان هذه النقائص والاخطاء هى نقائصنا وعيوبنا واخطاؤنا جميعا بوصفنا امة عربية واحـــدة . وهى من التعدد والتشابك والعمق والعراقة بحيث تكون اية محاولة لتبسيطها او حصرها او تحديد مداها المكانى والزمانى والشخصى بصرامة محاولة تنم عن عدم ادراك لطبيعة المشكلة الكبرى من حيث الاساس .

والنتيجة الطبيعية لهذه الحقيقة النهائية هى ان محاولة تحميل اى قطر او جيش عربى او زعيم مغبة آثار هذه الكارثة كلها ليس مجافيا للعدل حسب بل انه يدل على جهلنا بطبيعة الاشياء ، واسس الاجتماع البشرى وتكوين الامم .

وبعد هذا اود ان انبه الى الفرق بين النقد الذاتي الذى اطالب به ، وحاولت ان اطبقه وانا استقصى علل الكارثة واسبابها ، وبين التشـــنيع الشخصى الذى يمارسه بعض افراد امتنا اليوم بحجة الصراحة والنقـــد الذاتى . ومن المؤسف اننا نجد بعد هذه الفاجعة المروعة التي كنا نريدها سببا لجمع صفوفنا ، وتمكيننا من لمّ شملنا ، ان هناك من لم يزل يحاول ان يستغلها لتبرير دعوة معينة ، او مظاهرة كتلة او حزب او حركة بالذات . وتراهم يجافون الانصاف ، ويتجنون على خصومهم غـــير عابئين بالآثار السيئة التى قد يحدثها مثل هذا الموقف الظالم المزرى . ويكون الاسف اشد حين يسهم بعض رجال التعليم العالى والمثقفين جملة ، في مثل هـــذه المواقف التى تنم عن طبائع سيئة وضمائر ميتة ، ولا عبرة بعد ذلك بما يزعمون لانفسهم من تقوى وما يتوارون خلفه من ثقافة ، او يصطنعونه من منطق مفلوج .

واخيرا ، وعلى الرغم من عوامل الضعف العديدة التى تكشفت عنها

هذه النكسة الخطيرة ، والتى قد تنكشف عنها ، فاننا بوصفنا امة عربية واحدة مازلنا نملك من عوامل القوة (بكل معانى القوة) ما يمكننا اذا ما عملنا جادين متحدين مخلصين من الوقوف على اقدامنا بعد كبوتنا اولا ، ومن ثم السير قدما الى تحقيق اهدافنا ، واقامة كياننا الشامل في هـذا الوجود احرارا اعزة آمنين على سلامة بلادنا ومستقبل اجيالنا ٠

ولكن ذلك لن يتأتى لنا الا اذا اتعظنا باخطائنا ، وافادتنا عبرا ايامنا ، وحاولنا من جديد ان ننشىء انفسنا تنشئة اخرى ، مزودين مع نور العلم ، وقوة السلاح ، وخلق الرجولة ، بالمثل العليا التى تجعل الفداء من اجل الوطن شهادة توصلنا الى دار النعيم ٠

* * * *

واني لاتصور مخلصا أن الصلة بين هــذا الكتاب وبين الاسباب الاصيلة التى عزوت اليها النكبة ، موصولة ، بل وجد وثيقة ٠ ذلك لانى حين كنت اتصور بعض اوجه الوهن العديدة فى تكوين مجتمعنا ، واشير الى نواحى الضعف الظاهرة والخفية فى بنياننا ، كنت فى الحقيقة وواقع الحال اهدف الى اقامة المجتمع السليم القوى القادر على مواجهة التحديات الكبرى ، تلك التحديات التى كانت ـ وما تزال ـ الصهيونية و « اسرائيل » اخطرها شأنا ، واعظمها على الاطلاق أثرا فى مستقبل امتنا ، وفي مستقبل المنطقة التى نحن جزء اساسى منها ٠ وحينما كنت اشتد فى القول وازينه فى تصوير ما أريده لمجتمعنا ليصبح قادرا على البقاء حيا فعالا فى هذا الوجود الذى لا محل فيه للامم الضعيفة المهزوزة الكيان ، والشعوب السادرة المخدرة التى لا تملك الجرأة على نقد ذاتها ، والجهر باوجه النقص الفاحش الذى تشكو منه ، كنت ، في الوقت ذاته ، اجسم امام خاطرى ذلك التحدى الذى اقام ـ شئنا ام ابينا ـ وجودا قويا قادرا على فرض ذاته ٠

ان هذا الخيال ، او على الادق ذلك « الشبح المخيف » كان حاضرا دائما وابدا في خاطرى وملازما لفكرى ، وانا اعالج اية ناحية من نواحى وجودنا الاجتماعى او ابحث فيها ٠ ولذلك فانا مثلا حين كنت ابحث في « تربية المرأة » أحضر في خيالي صورة للمرأة العربية التي اريدها تضارع

المرأة الاسرائيلية وتبزها ، برزت الحاجة سنية الفلسطينية اللاجئة فى سورية انموذجا حيا للمرأة العربية المفضلة في تقديرى • وحين كنت اعالج مشكلات الجيل ، واندد بأوجه النقص العديدة التي تشكو منها اجيالنا الصاعدة ، كانت صور شباب اسرائيل الممتلئين حماسة ، المعدين احسن اعداد للنهوض بمجتمعهم ، والحفاظ على وجودهم ، تتمثل أمام بصرى حية فعالة • وحين كنت انتقد مجتمعنا فى القرية والمدينة وانا ابصر نواحى الضعف العديدة فيه ، كانت صورة المجتمع الحديث الأمثل الذي تقيمه اسرائيل في ارضنا المغتصبة تتجسم حية قوية امام بصري ، ثم اننى حين كنت ابصر حال الامة العربية عام ١٩٤٦ وهى في مفترق الطرق كنت اشفق عليها من مغبة نشاط الصهيونية العالمية ومطامعها في اقامة الوطن القومى لليهود فى جزء من اقدس واهم اجزاء وطننا الكبير ، واخشى خطر سيول المهاجرين الذين كانوا يتدفقون الى الارض المقدسة سرا وعلانية باعداد تفوق طاقتها الاقتصادية ، كنت احذر من هذا الخطر المداهم واقول : « لم يعد خطر الصهيونية مقصورا على فلسطين وشرق الاردن بل ان لبنان وسورية وحتى العراق كلها مهددة بغزو شنيع من عنصر مستميت ومدرب على اعمال العنف والقسوة والتدمير بكل طرقه وانواعه » •

وعلى العموم فقد كنت واضحا كل الوضوح في تأكيدي ان خطر اسرائيل خطر حقيقى لا مجال للمبالغة او التزيد فيه ، ولذلك قلت وانا انقد كتاب « اسرائيل خطر اقتصادى وعسكرى » : « ولاشك ان الاخطار الداخلية والخارجية التى تحيط بالامة العربية من جميع جوانبها عديدة ومتنوعة ، ولكن الخطر الصهيونى يجب ان يبقى فى طليعة الأخطار • وأحسب ان لا سبيل للقضاء على كثير من الاخطار الاخرى قضاء تاما ، والنجاة منها ، ما دام هذا الخطر جاثما على الصدور • وعلى ذلك فحري بنا ان نتنبه الى هذا « البلاء » كل التنبه وان ننبه بصورة دائمة ومستمرة اليه ، وان نشرب قلوب ابناء الامة العربية في مختلف اقطارها ، نسائها ورجالها ، شيبها وشبانها ، مثقفيها وعامتها ، جسامته وشدته • ومن اللازم ان تكون جميع اتجاهاتنا واعمالنا وسياساتنا قائمة على اساس من هذه الحقيقة » •

واحسب ان من حقي ان ادعي لنفسي انني كنت واحدا من هؤلاء الذين لم ينسوا قط اسرائيل يوما ما في كل حياتهم ومراحلهم وكافة اعمالهم ، ولذلك حين كنت رئيسا للوزراء ووزيرا للداخلية ، وكان يعنيني بطبيعة الحال أمن العراق ووحدته الوطنية ، عملت جاهدا على تحقيق السلام في ربوع الوطن باعلان بيان ٢٩ حزيران ١٩٦٦ ، ولكني وانا اعمل لسلامة الوطن ووحدة تربته كنت افكر في اسرائيل والوطن السليب ، ولذلك قلت يوم اعلنت البيان : « واحسب ان اول الذين يجب ان يهنأوا هم افراد جيشنا الباسل من قادة وضباط ومراتب وجنود • فلقد ابلو بلاء حسنا وتحملوا العبء الكبير فاذا ما طولبوا بعد اليوم بالجهاد الاكبر ، جهاد التعمير والانشاء واحلال الامن والسلام واشاعة الطمأنينة وتوزيع العدل والقيام بكل ما يتطلبه الواجب لتحقيق وحدة الوطن ، فتلك مهمة جديرة بأن يهنأوا من اجلها • فاليهم اذن قبل غيرهم ازف التهنئة والتبريك• ولكنني لن انسى الملايين من ورائهم من امهات وآباء وأزواج واخوة واخوات اولئك الذين يتطلعون الى اليوم السعيد الذي يعود فيه اولئك الابطال الى بيوتهم ، ليستمتعوا كما يستمتع المواطنون كافة بحياة اعتيادية ، ولينصرفوا بعد ذلك الى ما يجب ان ينصرف اليه الجنود الاشاوس ـ وجنودنا اشاوس شجعان ـ لينصرفوا الى الاعداد للمرحلة الكبرى في بنيان جيشنا وتحضيره لمعركتنا الكبرى حينما ينادي المنادي لاسترجاع الوطن السليب » •

ان النكسة الأخيرة قد خيبت الكثير من ظنوننا ، واعدتنا لنواجه الواقع المؤلم ولنكشف عن الكثير من سوآتنا ، ولكن حقيقة مهمة يجب ان لا تذهلنا عنها فداحة الصدمة ، ولا تنسينا اياها آلام الجراح وهي ان كل نكسة ، وكل فاجعة تحل بنا ونحن في صراعنا المستمر مع اسرائيل مهما تكن قاسية لن تكون آخر الامر الا مجرد اصابة قد نحتاج للشفاء منها الى اسابيع او شهور او سنين ، ولكنها على كل حال اصابة مهما تنزف من دم غزير ومهما نكابد من آلامها الموجعة ، لابد لنا آخر الامر أن نشفى منها ، ويعود الجسم الكبير سليما قادرا على مواجهة التحدي ، واتخاذ سبيله الذي يرتضيه في هذا الوجود موفور النشاط قادرا على ان يحيا الحياة التي يريد ان

يحياها . اما بالنسبة لعدونا « اسرائيل » فان اية نكسة او فاجعة من نوع ما حل بنا ستكون القضاء المبرم والنهائي المحتومة لذلك الوجود . ومن هنا فانه يجدر بنا ان ندرك أن اسرائيل ستحاول بكل طاقاتها وجهودها الجاهدة ان تحول دون ان تصاب بنكسة ، وهى لذلك ستأخذ حذرها ، وتعد عدتها دوما وابدا . ولكننا ، بما لنا من طاقات ، وبما يجب ان نقدمه من صادق التضحيات ، ونسعى اليه بكل حذق ودهاء ، لابد ، متمكنون منها وبالغون ما نريد ؛ وان كان ذلك لن يتأتى الا حين نتعظ بالاحداث ، ونصلح من ذات نفوسنا ، ونقيم وجودنا على الصورة التى حاولت تصويرها في هذه الصفحات .

* * * *

اما بعد فان هذا الكتاب قد حوى بحوثا ومقالات واحاديث متباينة القيت او كتبت في فترات زمنية تمتد الى نحو من ربع قرن ، ولكنها ترتبط بنكبة اليوم اوثق ارتباط . ثم انها على الرغم من التباين الزمني ، واختلاف الاسلوب بعض الشىء ، منسجمة في أهدافها ، لاننى كنت في مختلف الاحوال والظروف اصدر عن ذات نفسي ، واهدف الى شىء واحد بعينه . ولذلك سيجد القارىء ـ فيما ارجو ـ قدرا كبيرا من الانسجام فيما بينها .

ومن الحق عليّ ان انبه الى اننى ابقيت المقالات والاحاديث بصورتها المعدة من قبل ، على حالتها ، لم أضف اليها شيئا ذا بال اللهم الا بعض التغييرات اللفظية ، والاصلاحات اللغوية ، والتوضيحات في الهوامش حين يكون ذلك ضروريا لازما ، اما لاعطاء فكرة كاملة عن طبيعة الموضوع الذي اعالجه ، واما لبيان ما استجد في الامر حين يكون ذلك حتميا ، واما لتثبيت تحفظ ارتأيه اليوم حين لم يعد الرأى الذى اعلنته من قبل تماما ، ومن كل الوجوه ، هو الرأى الذى ارتأيه اليوم .

وأحسبني لست بحاجة الى الاعتذار للقارىء الذى قد يجد في فصول هذا الكتاب شيئا من التباين في الاسلوب بسبب الفترات الزمنية الطويلة والمنقطعة بعض الشىء . ذلك أن الكتابة فن ، وطبيعى ان تتطور مع تطور الانسان واتساع افاق ثقافته ، وتجدد محيطه . وقد حرصت على ابقاء ما كان على ما كان خدمة للحقيقة ، وربما حرصا على آثار فكرية كنت قد

اعددتها وازعم انها ــ على ما فيها من بعض اوجه الضعف ــ حرية بان يطلع القارىء عليها .

ان هذا الكتاب يحتوى على عدد محدود من البحوث المسهبة ومقدار كبير من الاحاديث التى اذيعت من بغداد او القاهرة ، مع عدد من المقالات نشرت من قبل في مجلة « البعث العربى » التى كان يصدرها نادى البعث العربي الذى كنت رئيسه الى حين غلقه من قبل حكومة نورى السعيد بعد العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ بسبب نشاط النادى فى نصرة الشقيقة الكبرى وشجب موقف حكومة العراق حينذاك .

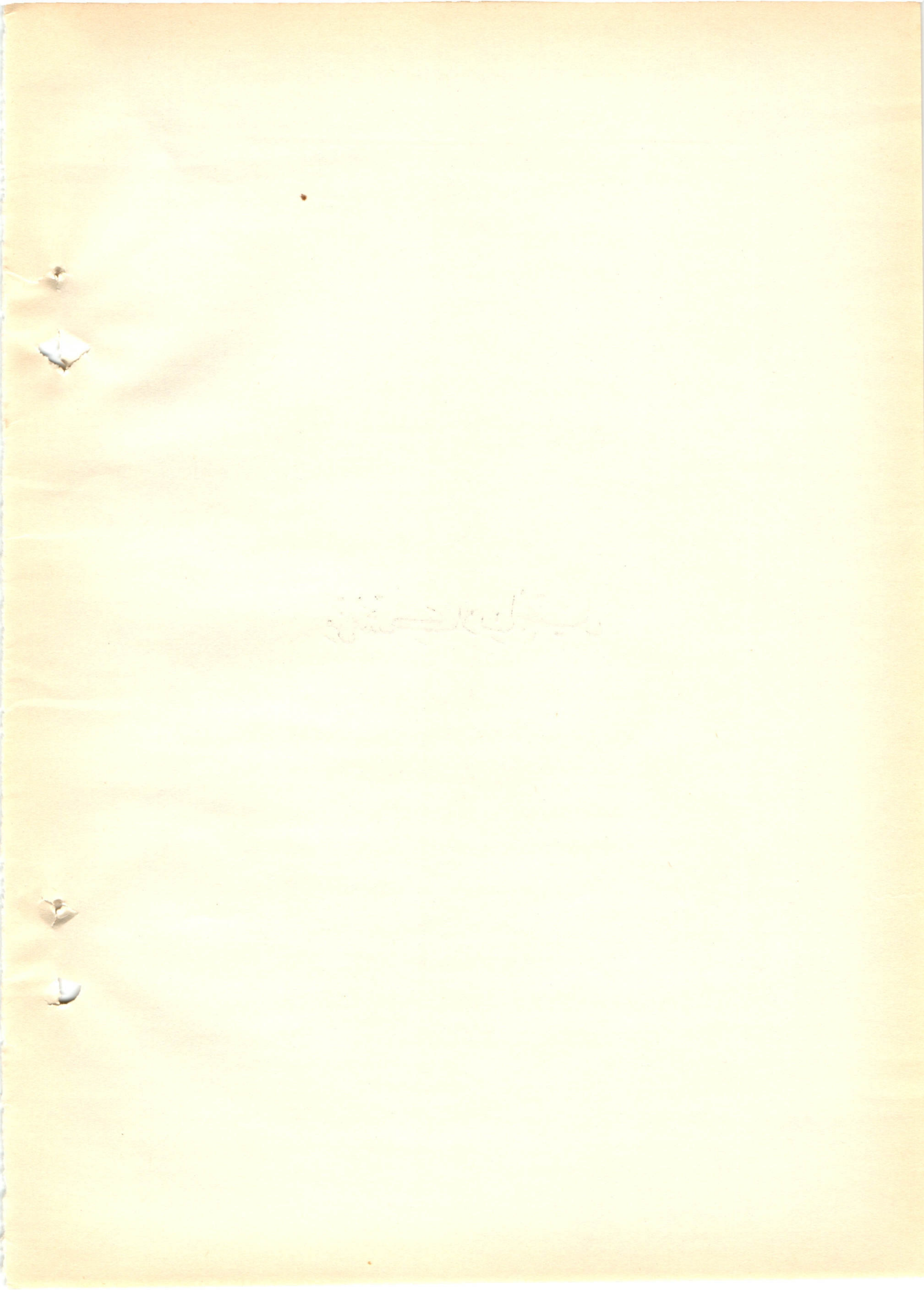
وعلى الرغم من ان القسط الاوفى من تلك البحوث والاحاديث والمقالات كان من الممكن ان ينضوى تحت عموم العنوان القديم المعلن : « نظرات وآراء فى التربية والاجتماع » ولكن قسطا آخر ــ فيما ارى ــ لا يمكن ان يعد من التربية والاجتماع الا ّ حين نتوسع في مفهوميهما كل توسع ، ولذلك آثرت ان اضيف الى العنوان السابق كلمة « القومية » كما بدا لي حذف كلمة « آراء » لانها قريبة في مدلولها من لفظ « نظرات » . وهكذا اصبح العنوان : « نظرات فى التربية والاجتماع والقومية » . وارجو ان يكون هذا العنوان دالا على محتويات الكتاب دلالة واضحة .

واني لآمل ان يكون نشر هذا الكتاب ، في هذه الفترة الزمنية العصيبة بالذات ، اسهاما منى في انارة طريقنا المظلم ، بحيث يجد فريق من مواطنينا وبني قومنا ، في بعض صفحاته بريق امل يحد من قتامة اليأس ، ويخفف من آلام الخيبة التى نعيش تحت كابوسها المرهق في هذه الفترة المؤلمة من تاريخنا .

وأقول مرة اخرى لابد لنا من اصوات مدوية تنذرنا بالخطر ، وتبصرنا بأوجه النقص الشنيع في وجودنا ، ونواحي الضعف العديدة في كياننا ، وتصف لنا باخلاص وخلوص نية العلاج الذي لابد لنا من أن نحتسيه ليشفى الجسم السقيم ، ويستقر الكيان المهزوز ، وتشيع العافية من جديد فى وجودنا كله ، ولنستطيع بعد ذلك ان ننهض بالمهمة الكبرى لاسترجاع الكرامة المهانة ، واسترداد الوطن السليب .

الاعظمية في ١٩٦٧/٧/١٥ عبدالرحمن البزاز

من مشكلات الجيل



تمهيـــد[1]

لم اتردد كثيرا في اجابة دعوة الاستاذ الفاضل • • • • • • • حينما دعاني للمشاركة في احاديث الخميس التى تلقى ، وتناقش في هذه الدار في كل اسبوع • وذلك لأني كثيرا ما تاقت نفسي الى التحدث في هذا الموضوع الذى يخيل الي انه من المواضيع الخطيرة الحرية بكل عناية وتفكير • على انى كنت اشعر ـ ولم ازل ـ بان هذا الموضوع لا يصلح حديثا للكافة على غرار المواضيع التى اتحدث فيها ، بين الفينة والفينـة ، من دار الاذاعـة العراقية • وقد حبب الي الحديث اليكم في هذا الموضوع ـ على وجه التخصيص ـ اعتقادى بأن اولى الناس بسماعه هم ابناء هذا الجيل وبناته انفسهم ؛ هذا الجيل الذى اعرض بعض مشاكله ، واعرض بعض الحلول التى ارجو مخلصا ان نتعاون جميعا على تحقيقها • واني لاقرر جازما بان اجدر من يرتجى لهذه المهمة هم الذين ستكون نفوس الناشئة امانة بايديهم يصوغونها ويكيفونها كيفما يشاءون • وطلاب هذا المعهد وطالباته من اقدر الناس ـ من دون شك ـ على توجيه الاجيال القادمة الوجهة السليمة التي نرجوها للفرد الصالح ، والمواطن الصالح • وهم ، على وجه التحقيق ، من اهم العوامل على جعل الاجيال القادمة مبرأة من العيوب والهنات التى نحسها ونبصرها فى هذا الجيل •••

وثمة سبب آخر رغبني في الحديث اليكم في هذا الموضوع بالذات ،

---

(١) القيت هذه المحاضرة على طلاب دار المعلمين العالية (كلية التربية اليوم) في ٢٥ـ٤ـ١٩٥٤ وذلك في سلسلةالمحاضرات الاسبوعية العامة التى كانت تلقى على الطلاب كافة •

هو شعوري بانى قد اشتط في بعض افكاري وآرائي ، وقد اصل حد التجني والاتهام ، فيكون من الحق علي والحالة هذه ، ان اعلن افكاري وآرائي وجاها ، وان أفسح المجال لمناقشتها ، والرد عليها ، اذ من اوليات قواعد العدل الطبيعي الا تصدر الاحكام والاتهامات غيابيا ـ على حد ما يقول رجال القانون ـ ...

تحديد الموضوع

وبعد فانى ارى من المفيد ان احدد بدقة ما اقصده من هذا العنوان « من مشكلات الجيل » ، فالمشكلات ـ بمعناها الواسع ـ هي العقبات التى يجب التغلب عليها ، والعقد التى يلزم حلها ، والهنات التى لابد من تلافيها . ولاشك أن لهذا الجيل ، ولكل الاجيال التى سبقته او التى ستلحق به ، عقبات ، وعقدا ، وهنات ، وهى قد تصبح كثيرة بحيث تتجاوز حد العد ، ومعضلة حتى ليستعصى حلها ، ومركزة بدرجة يعسر استئصالها ... ولنا ان نتساءل ! هل بلغت مشاكل هذا الجيل هذا الحد المروع ، وتلك المرحلة المخيفة ، وذلك الوضع الخطير ؟ اما انا فلست اعتقد ذلك ، بل على العكس من هذا ، فانى ارى أن تلك المشاكل مما يمكن التغلب عليها ـ او على اقل تقدير ـ مما يمكن تخفيفها واضعاف اثرها الى حد بعيد ؛ ذلك اذا ما تضافرت الجهود في البيت ، والمدرسة ، والمجتمع . وعندى ان معدن هذا الجيل لم يزل سليما ، وليس علينا الا ان نجلوه فنحسن جلاءه ، ونقومه فنجيد تقويمه ، وننصحه فنصدقه النصح ونعده لقبوله .

وبعد فمن هو هذا الجيل المعني بهذا الحديث ؟ اذ الجيل لغة الصنف من الناس ، وقد يطلق على القرناء في الاعمار ، او الذين يعيشون في فترة واحدة او متقاربة من الزمن . والذى اقصده ـ فى موضوعى هذا ـ هم الافراد الذين ولدوا بعد الحرب العالمية الاولى ، وشبوا وترعرعوا قبل الحرب العالمية الثانية ، وبلغوا ربيعهم الفكرى ـ ان صح هذا التعبير ـ في ابان الحرب او في اثنائها ، او خلال بضع السنوات التى تلتها .

وفي الحقيقة فان هذه الفترة الزمنية التى تبلغ ثلث قرن تقريبا تشمل

اكثر من جيل واحد ، ولكنى لغرض موضوعي هذا قد اعتبرتهم بمثابة الجيل الواحد • وحرى بي ان انبه الى انى ، فى الواقع ، انما ابحث فى بعض افراد هذا الجيل وتلكم الاجيال ، وهم الذين أتيح لهم ان ينالوا قسطا من المعرفة والذين تجاوزوا بعض مراحل الدراسة التي تؤهلهم او ـ اذا اردنا الدقة في التعبير ـ المفروض انها تؤهلهم للحياة المهذبة •

ولست ادرى هل انا بحاجة الى تنبيه آخر ، وهو ان ما ساقوله لا يصدق ـ على وجه التخصيص ـ على كل فرد من افراد الجيل المعني ، اذ العبرة في الحالات الغالبة ، والمظهر الكلي ، ولاشك أن التعميمات التى سأبينها ـ ككل التعميمات ـ خاضعة لاستثناءات ، وتحفظات ، وليس من المستطاع ، في مثل هذا الموضوع ، التخلص من بعض التعاميم •• وعندى ان اهم هذه المشكلات هى :

١ ـ القلـق

ان اول مشاكل هذا الجيل ، واخطرها هو « القلق » ، القلق الظاهر في الاقوال والمتجلى فى الافعال ، والبين على التصرفات ، والمشاهد فى السلوك والآداب ؛ قلق لجليل الامور ، وتافهها ، حتى يصل القلق ببعض افراد الجيل الى حد الاضطراب الكلي ، والفوضى النفسية ، والتحطم الذهني • ولا شك ان الذين مارسوا التعليم ـ والتعليم العالي على الاخص ـ يدركون هذا الامر ، ويشفقون كل الاشفاق على هذا الجيل ، وعلى الاجيال القادمة ، ان بقيت هذه الظاهرة الخطيرة على شدتها • وقد يحسب بعض الناس بان القلق نتيجة من نتائج الاهتمام ، وتقدير التبعة ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، فقد نرى شخصا مهتما كل الاهتمام بما يعهد اليه او يمارسه ، ولكنه ليس قلقا ، فهو يتحمل التبعات الجسام بكل سكينة واطمئنان ، ثم نرى الانسان القلق غير عابىء بالامر الجليل ، ولا مقدر لمسؤوليته اقل تقدير • ونرى هذا الفريق قلقا حتى من اجل اتفه الامور وابسطها • وتظهر صفة القلق في كثرة السؤال والاستيضاح عن اوليات الامور وبديهيات الاشياء ، مما يستبعد صدوره من الفرد الصحيح الملكات المطمئن بطبيعته •

ولاضرب لذلك مثالا كثيرا ما يحدث في قاعات الدروس ، فقد يقول استاذ ، بعد ان يكمل محاضرته يوم السبت ـ ولنفرض أن ليس له الا درسان احدهما يوم السبت والآخر يوم الخميس ـ يقول ذلك الاستاذ لطلابه : سيكون الخميس القادم للمراجعة والمناقشة فيما درستموه • فلا يكاد يتم قوله حتى تتساقط عليه الاسئلة من كل جانب : يسأل الاول : الخميس القادم ؟ نعم الخميس القادم • ويسأل الثانى : يعني الخميس الذى سيأتي ؟ نعم الخميس الذى سيأتى • ويسأل الثالث : هل المقصود الدرس القادم ؟ بالطبع المقصود الدرس القادم • ويسأل الرابع : بعد اربعة ايام ستكون المناقشة ؟ نعم بعد اربعة ايام • ولا يكادون يفرغون من تحديد اليوم حتى تبدأ الأسئلة على الوجه التالى : كل المواد مطلوبة ؟ نعم كلها • كل الدروس السابقة ؟ نعم كلها • الا يوجد بحث متروك ؟ لا شيء متروك • هل نسأل عن كل ما درسناه ؟ نعم ستسألون عن كل ما درستموه • وما الى ذلك من اسئلة ، ان دلت على شيء فانما تدل على قلق الطلاب ، واضطراب افكارهم ، فيما لا يدعو الى القلق والاضطراب • ولا يمكن تفسير هذه الظاهرة بان هؤلاء السائلين يرومون العبث او اضاعة الوقت سدى ، اذ ان لهجاتهم وطرق تعبيرهم ، وطبيعة الحال ، لا تدل على شيء من ذلك ، ولا تساعد عليه •

وليس من باعث لهذه الاسئلة واضرابها غير الاضطراب الفكري ، والقلق العقلي • فهم يكذبون آذانهم ، ويتهمون افهامهم ، ويسيئون الظن بملكاتهم ، ويحسبون ان من العسير عليهم ان يفهموا هذا التنبيه البسيط الا بعد كثرة التساؤل ، واعادة القول وتكراره • ولو انهم علّموا ، في صغرهم ، وقبل ان يشبوا عن الطوق ـ كما تقول العرب في امثالها ـ على دقة الفهم ، وعودوا على دقة القول ، ودربوا على دقة الانصات ، لما احتاجوا الى شيء من هذا كله •

ولا شك في ان اضطراب المجتمع ، وفوضى الحياة العامة ، وانحلال الحياة الخاصة قد تجمعت وانعكست في اذهان الناشئة فلم يعودوا يصدقون ما يرون ، او يفهموا ما يسمعون • وليس الاضطراب الذى صورته بهذا

المثل البسيط بالامر الهين ، اذ انه يجر وراءه آفات خطيرة ، واذا ما نمى مع الفرد فستنمو شخصية ذلك الفرد هزيلة مضطربة ، لا تعرف الاستقرار ، ولا تنعم بنعيم الطمأنينة ، ولن يصبح ذلك الفرد مواطنا صالحا مهيئا لمتطلبات الحياة •

ويشعر الذين اتيح لهم الاطلاع على حالة الطلاب في البلاد الغربية ، وحالة الأجيال الناشئة بصورة عامة ، بالبون الشاسع ، والفرق العظيم ، بيننا وبينهم • ولست اوجه اللوم بسبب هذا النقص للجيل نفسه ، اذ ان عوامل عديدة – معظمها خارجة عن نطاق الجيل ذاته – قد تضافرت فادت الى هذه النتيجة غير السارة •



ولكن من الحق علينا ان ننتبه الى هذا النقص ، وان نعمل ، ما وسعنا الجهد على تلافيه • فقد جعلنا هذا النقص واضرابه ، موضعا للسخرية الساخرة ، والهزؤ المؤلم • واني لاتذكر ما حدث مرة لطالب عراقي نشأ في بيئتنا القلقة ، وبقي القلق يلازمه في حياته خارج العراق • فقد اشترك فى امتحان للتخصص في احدى جامعات انكترة ، وانتظر ، ومعه زملاؤه من مختلف الجنسيات ، نتائج الامتحان وآثار الجزع والهلع بادية عليه • ثم خرج ، فى الوقت المحدد لاعلان النتائج ، سكرتير مجلس الجامعة وتلا اسماء الناجحين ، وكان صاحبنا ، لحسن الحظ ، من بينهم • ولكن القلق الموروث لم يمهله ، فما كاد يستمع الى النتيجة السارة الا وهجم على السكرتير يتوسل اليه ويرجوه ، ويلحف في الرجاء ، لكى يعود الى مجلس الاساتذة ويسألهم ثانية ، أحقا انه ناجح ؟ فما كان من السكرتير الا ان اجابه غاضبا ومستغربا : انك ياسيدى ناجح ، وما تعودت الكذب او الخطأ في اعلان النتائج ، وقد تلوت اسماء الناجحين ، ومن لم اتل اسمه فهو راسب وكفى ••••••

وما دمنا فى ذكر الامتحانات والنتائج افلا توافقونني بان اكثر الطلاب يصرفون من الجهد في القلق من اجل الامتحانات اكثر مما يصرفون فى التحضير لها ، والجد فيها • وفى الحقيقة فان من الزم الامور لرجال التربية فى العراق ان يعملوا على تخفيف شعور الطلاب تجاه الامتحانات وعبئها على اذهانهم • وعلى رجال التعليم ان يشيعوا بين الناشئة بان نتائج

الامتحانات ليست كل شيء ، وان الفضل ليس لمن نجح وكفى ، ولكن الفضل ، كل الفضل ، لمن ثابر وبقى مع ذلك محتفظا باتزانه ، معنيا بالمعرفة الحقيقية اكثر من عنايته بنتيجته الامتحانية • افليس من المؤلم ان نرى اكثرية الطلاب - من هذا الجيل وفى هذا البلد خاصة - يهمها ، اول ما يهمها ، النجاح باية وسيلة كانت ، لا يصرفهم عن الغش في الامتحانات - ومن ثم الغش في الحياة - اى وازع من ضمائرهم ، حتى صار موسم الامتحانات ، في بعض السنين الاخيرة ، معرضا لتجارة سيئة محطمة لرقي الامة الحقيقي ، ومناسبة لسوق سوداء لبيع الاسئلة والاجوبة هى اشد خطرا على كيان الامة من اسواق السلع والبضائع •••

ولست اقدر أن اصف مقدار ما يحز في النفس من آلام مبرحة حينما نبصر سير الامتحانات النهائية في بعض معاهدنا العالية ، ونتذكر بعض ما شاهدناه في بعض البلاد الراقية • نبصر هنا جموعا ، هى في غالبيتها تريد الغش وتحاوله ، وتجد في المحاولة احيانا ، ولا تنصرف عنه - بعض الانصراف - الا بجهد جاهد ، والا بعشرات المراقبين الذين هم اقرب ما يكونون الى رجال الشرطة اليقظين فى اسواق يكثر فيها النشالون ، وبين ذلك دمدمة تخف فتصبح همسا ، او تعلو فتصير لغطا وجلبة • وهناك نبصر قاعة كبيرة اتسعت لمئات عديدة من الطلاب والطالبات ، لا يفكر اكثرهم بالغش بله محاولته ، ولا نجد من المراقبين الا واحدا او اثنين انتحى كل منهما ناحية قصية ، وجلس على كرسي وثير ، وانصرف الى كتابه او صحيفته ، حتى يكاد المرء ينسى انه في قاعة فيها المئات العديدة ، اذ لا يسمع صوتا او ما يشبه الصوت ، اللهم الا صرير الاقلام وحفيف الاوراق •••

٢ - الانتهازية

ومن مشاكل هذا الجيل ، او على الادق من هناته الظاهرة ، انتشار روح الانتهازية الى حد بعيد • والانتهازية مظهر من مظاهر الانانية التى هى ، من دون شك من الغرائز الفطرية التى جاءت الاديان والفلسفات والاخلاق لتهذيبها ، وتحديد مجالاتها ، والا فقد الانسان اهم ميزاته

وخصائصه ، واستحال الى بهيم لا يسيره شيء غير غريزتي اللذة والالم • ولست بطبيعة الحال ، ازعم بان كل فرد من افراد هذا الجيل انتهازي ، او ان الاجيال التي سبقته لم تعرف الانتهازية ، ولم تمارسها ، ولكني اقول - ولدي اكثر من دليل يؤيد قولي - بان روح الانتهازية بدأت تقوى ، وتظهر حتى في سن مبكرة وفي اناس كانوا اقرب الى الطهر والمثالية فيما مضى • ولاشك في ان الحرب العالمية الاخيرة وما واكبها من ضيق وعسر ، وما حل بسببها في العالم من نكبات ، قد زادت في تقوية شعور حب الذات الى حد جاوز المعقول ، واضعفت القيم الروحية عند كثير من الناس في مختلف الاقطار ، والاجيال ، ولكن هذا الداء قد تفشى بطريق العدوى الاجتماعية بين كثير من شباب هذا الجيل وشاباته في بلادنا • ولست اقصد - في محاضرتي هذه - ان اسوق الحديث الى اقصى نواحيه الخلقية ، ولكنني اكتفي بعرض مثال بسيط يمثل لنا هذه الانتهازية التي لا نرتضيها احسن تمثيل •

كنت ، قبل مدة من الزمن ، اسير بصحبة صديق في شارع الرشيد ، وهممنا ان ندخل مخزنا ، وفي هذه الاثناء لمحني شاب حياني تحية عابرة فرددت عليه التحية بمثلها ، ثم لما ابصر صاحبي معي رجع اليّ ، وأخذ يزيد في تحيته ، ويتلطف الي في الحديث ، وقد عرفني باسمه واسم ابيه ، ثم رجاني ان نتنحى جانبا بعيدين عن صاحبنا ، فاجبته الى طلبه • ولكن كم كانت دهشتي حينما بدأ يعرض عليّ أمرا حسبه هو سهلا كل السهولة : انه طالب في معهد عال ، وقد امتحن في الدرس الفلاني ، واستاذه فلان صاحبي هذا الذي يرافقني ، وهو يرجوني ان اطلب اليه ان يساعده في الامتحان ، وان ينجحه اكراما لخاطري •• فهل من شيء ايسر من هذا الطلب !؟

ألم يرني بصحبة استاذه ! فلابد ان يكون صديقي الذي احدثه في كل أمر ، واسعى اليه في كل مطلب • ألم يحيني هذا الطالب ويلح بعد ذلك بتحياته ؟ اذا فهو من معارفي واصحاب الدالة عليّ • ألم يعرفني باسمه واسم ابيه ؟ فهذا سند كاف للاهتمام في قضيته • ألم تسعفه الظروف

فيشاهدني عرضا دون ان يبذل جهدا او يكلفني جهدا ؟ فلا ضير عليه اذن في ان يقول مايشاء • هذه فرصته ، انها فرصة ذهبية عليه ان ينتهزها ، ولا عليه بعد ذلك ان خالف قواعد الادب ، وتنكر لقواعد العدل ، والحق ، او مس شعوري وشعور صاحبي ••• وامثال هذا الطالب كثيرون • • وانها لظاهرة مؤلمة ان تشيع هذه الروح الى هذا الحد المخيف •

ولا سبيل لمكافحة الانتهازية الا بالمثل الصالح ، والتضحية الصادقة • فاذا استطاع كل مدرس واستطاعت كل مدرسة الا يكون انتهازيا في سلوكه وحياته ـ واول واجبات من يمتهن هذه المهنة الرفيعة ان يكون « غيّريا » ، يفنى لينشأ انفسا وعقولا ـ ووفق لعرض هذه الخصلة الحميدة عرضا صحيحا ، محا هذه النزعة من نفوس التلاميذ محوا ، واجتثها من عروقها اجتثاثا • والمعلم المثالى اجدى في انشاء الجيل ، وتقويم الاخلاق ، من مائة كتاب ، والف مقال يدعو لترك الانتهازية وتحبيب « الغيرية » والتضحية والايثار •

٣ ـ ضعف الثقافة

ومن مشاكل هذا الجيل هبوط سويته الثقافية بصورة عامة • وقد اصبح هذا الأمر محسوسا واضحا ، فلم تحافظ الدراسة الثانوية على مستواها ، وانصرفت العناية الى « الكم » لا « الكيف » ، فازداد خريجو المدارس الثانوية ، وكثر المتخرجون في المدارس العالية ، ولكن المستوى الثقافي قد ضعف الى حد بعيد • ولست القى هذا القول اعتباطا او تقليدا لآراء الآخرين ، اذ لدي من التجارب الشخصية في التعليم العالى في فترة زمنية تمتد الى احد عشر عاما ما يؤيد قولى هذا • واني لاشعر بان الخط البيانى للسوية العلمية متجه الى الاسفل ، وانه لمن المؤسف ان نقول بان خريجي المدارس الثانوية قبل عشر سنوات كانوا في مستوى اعلى من مستواهم الحالى ، وان الذين تخرجوا قبل ذلك كانوا في مستوى اكثر علوا • وان اردتم دليلا عمليا فارجو ان تنصتوا اليّ لاردد على مسامعكم نماذج من اجوبة طلاب معهد عال في السنتين الاخيرتين مقتبسة حرفيا من

اوراقهم الامتحانية ، ومنها تدركون الضعف المتجلي في كل ناحية : في اللغة ، في الاملاء ، في اسلوب الكتابة ، في الموازنة العقلية ، في اضطراب التفكير ، في ضحالة المعلومات التاريخية ، وفي هزال الادراك العام ، ونقص الثقافة العامة[١] .

فهذا طالب اجاب عن سؤال « اهم الشرائع القديمة » فقال :

« قانون حمورابي كانت من الشرائع القديمة وقواعد هذه الشريعة شاملة واكثرها وارد في القرآن الكريم منها السن بالسن والعين بالعين . وكذلك اعطى الحقوق وفصله . وهذه الشريعة بالنسبة الينا فهي قريبة الى احكامنا سيما تتفق بعض نصها مع القرآن الكريم . ونصوص القرآن دستورية تتمشى مع كل عصر وزمان فهي مرنة ما مر عصر ونصوص هذا الدستور لا بمناسبة » ..

وهذا طالب آخر اجاب عن دواعي تطور الشرائع فقال :

« ان من أهم دواعي تطور الشرائع هي القوة والسلطة . ومن أهم دواعي الشرائع هي الخير والشر اي النار والنور الشيطان والرحمن والخصام بينهم وتتابعهم هي التي تؤدي الى سن الشرائع وكذلك متابعة الاشخاص اليهم » .

وهذا طالب ثالث اجاب عن السؤال نفسه فقال :

« وهكذا نجد بان الحياة كانت حياة فسق وخمر وشراب وفجور ادت هذه العوامل الى تطور الشرائع وخلق النظم في القضاء فاصبح لكل شريعة قضاء وعدالة فمثلا الشريعة الفلانية والشريعة الفلانية الخ في بقية الشرائع » .

وهذا طالب رابع يتكلم عن فائدة دراسة شريعة حمورابي فيقول :

« انها كانت قد ظهرت في العراق ولهذا اصبحت شريعة نعتز بها نشأت في تربتنا وقد استنبطت سابقا وجعلت العراق يشع بانوار العلم والمعرفة فظهرت العلوم في البصرة والكوفة وبغداد واصبحت مزار العلم حينذاك » .

---

(١) ان النماذج التى سأشير اليها مقتبسة من الاوراق الامتحانية لطلاب الحقوق في السنين ٤٩ ـ ٥٠ ، ٥٠ ـ ٥١ الدراسيتين وذلك من اجوبتهم في مادة تاريخ القانون التي كنت احاضر فيها .

٤ ـ النزعة النظرية

وعلى الرغم من كون الثقافة هزيلة فهى تتسم ، في الغالب الاعم ، بالنزعة النظرية الخيالية ، وليس ادل على ذلك من اننا قلما نجد بين المثقفين من ابناء هذا الجيل من يحسن شيئا غير القراءة والكتابة ـ ان كان يحسنهما حقا ـ • على ان اقران هذا الجيل من الغربيين يحسنون اشياء كثيرة ؟ فقلما نجد اليوم شابا او شابة في اوربا وامريكا لا يحسن صناعة او صناعات ، ان كان من سكان المدن ، وله خبرة عملية طيبة في الشؤون الزراعية وتربية الدواجن ، ان كان من سكان القرى والارياف • اما سياقة السيارات ، والكتابة بالآلة الطابعة ، فذلك يكاد يصبح في عداد البديهيات • بالاضافة الى هذا كله فمن النادر ان نجد فردا بلا هواية يقضى بها اوقات فراغه ، فهذا يربى الدجاج ، وذاك ينظم خلايا النحل ، وذلك يحتطب في الغابات المجاورة ، وآخر يصيد السمك ، او يجمع الحشرات ، وآخر يصنف انواع الاحجار والاتربة ، هذا بالاضافة الى الهوايات الشائعة كجمع الطوابع ، والتواقيع ، والصور ، والعملات • اما الرياضة البدنية فشائعة الى حد كبير ، وقلما نجد شابا او شابة لا تجيد انواعا من الرياضات واللعب • وعلى العموم فان الثقافة الغربية لا تكتفي بالدراسة النظرية المجردة ، وانما تتجه وجهة عملية • وكأن كل واحد من الغربيين يحتذى سنة شاعر الالمان العظيم ـ كوتيه ـ حينما قال في مقطوعة صغيرة جميلة :

نظرة عميقة واحدة في الكتاب ،
ونظرتان في الحياة ،
تعطى الانموذج السليم للروح •

فلابد لنا من توجيه دراستنا وجهة عملية ، ولابد من العمل اليدوى بين ساعات الدروس واوقات المطالعة ، ولابد لنا ان نصرف هذا الجيل والاجيال القادمة عن القول الكثير ، ونوجهها الى العمل الكثير • فكم يفيد النشيء الجديد ، وكم تفيد البلاد ، لو صرفوا بعض اوقاتهم في اصلاح الحدائق ، وتعديل الطرق ، وتشجيرها ، ومكافحة الغبار ، والجفاف عمليا ، والاستغناء عن غيرهم في قضاء شؤونهم • وكم نحن بحاجة الى محاربة

« روح البداوة » المتوغلة في نفوس الكثيرين منا ، تلك الروح التي تحب الكلام وتأنس به ، وتمقت العمل وتفر منه • وجدير بنا ان نتذكر أن اعظم عظماء العالم كانوا يمارسون الاعمال اليدوية • فلم تحل مشاغل الامبراطورية البريطانية في اوج عظمتها في النصف الثاني من القرن الماضي بين « كلادستن » زعيم الاحرار ورئيس وزراء انكلترة وبين هوايته المحببة وهي تكسير الحطب في اوقات الفراغ • و « غاندي » روح الهند العظيم ، لم يكن ليفارق مغزله اليدوي ساعة من ساعات النهار ، حتى جعلت الهند مغزله شارتها المحببة في علم جمهوريتها • وفي تاريخ أمتنا ألم يحدثنا التاريخ بان أبا بكر الصديق خليفة رسول الله كان يصرف اوقات فراغه في حلب نياق الصدقة ومعالجتها •

انا في عصر نحتاج فيه الى كل يد عاملة ، وكل يد ـ مهما كانت منزلة صاحبها ـ يجب ان تكون عاملة ـ بالمعنى الاخص ـ في بعض انواع العمل • اننا شعب عاطل ، وانا لا اريد بهذا ان اشير الى كثرة العاطلين في بلادنا حسب ، بل أريد أن أقول بان كثيرين ممن لا يحسبون عاطلين هم من العاطلين في القياس الغربي الدقيق ، وبالقياس الى تلكم الدولة الناشئة التي لم تزل بعض صحفنا تسميها ـ بحسن نية ـ بـ « الدولة المزعومة » • لابد من العمل اليدوي لتقويم الخلق ، ولابد من العمل لسد النقص الهائل في حاجاتنا على اختلاف انواعها • وسنبقى في عوزنا الاقتصادي ، واستعمارنا السياسي ، وتأخرنا الفكري ، مالم نعمم مبدأ العمل الاجباري الى جانب التجنيد الاجباري ، ومالم نشع في الشباب روح اللذة والفخار في العمل •••

ولا بد لنا ان نغير طرق تفكيرنا في كل ناحية من نواحي حياتنا ، ونوجه نشاطنا وجهة عملية مجدية • علينا مثلا ان نبتدع طرقا في التكريم والتأبين جديدة غير هـذه الطرق البالية الرثة ؛ طريقة القول المجرد ، والمظـاهر الـكاذبة ، علينا ان نكرم من نكرم ونؤبن من نؤبن ، بتشييد المعابد والملاجيء والمستشفيات ، وما الى ذلك من وسائل مجدية • أما الخطب والرسائل والقصائد ، والاكاليل ، والتواشيح والادعية ، فلن تنفع ميتا ولا حيا ، ولن تدفع عنا الاخطار التي تهددنا من كل جانب •

واني لأعلم ان هذا الداء ليس داء هذا الجيل بمفرده ، انه داء الامة الدفين ، ولـكن من المؤسف ان يشارك هذا الجيل مشاركة فعالة في هذه الظاهرة التي لا تبشر بمستقبل زاهر ، ولا تدل على ادراك صحيح للحياة العصرية • ولست بطبيعة الحال أريد ان يصبح هذا الجيل آلات متحركة لا تعي ، ولا تشعر ، ولا تفكر ، ولا تعبر عن شعورها وافكارها • لا أريد هذا بحال من الاحوال ، ولكن الذي اريده هو ان يعبر هذا الجيل عن ذاته وكيانه بطرق عملية مبدعة غير هذه الطرق التقليدية التي لا حياة فيها ولا رواء •

٥ ـ الحـــيرة

ومن مشاكل هـذا الجيل اخيرا هي انه جيل « حائر » ، انه يمر بمرحلة انتقال عظيمة ويتعرض لتجربة هائلة ، وهو يوشك ان يقطع صلته بالماضي ، ومع ذلك فانه لم يوفق بعد لان تستقر قواعده في الحاضر كل الاستقرار • ثم انه في حيرته هذه ينقم على اشياء ، وينكر أشياء ، لا احسب من مصلحته ، ولا من مصلحة الاجيال القادمة ، ان ينقم عليها كل هـذه النقمة ، أو ان ينكرها الى هذا الحد من النكران • وكثير من أفراد هذا الجيل ينفرون من التقاليد حتى السليمة منها ، وينفرون من المعتقدات الدينية نفوراً مرجعه الاساسي هذه الحيرة التي يقاسون نفسيا منها ، ومرجعه أيضا رد الفعل لانعكاسات سيئة نتجت عن شدة وطأة تلك المعتقدات في نفوسهم ، وسوء عرضها عليهم • وقد زاد في اضطراب هذا الجيل وحيرته التعارض الظاهر بين البيت والمدرسة وبين المدرسة والحياة • وكثير من أبناء هذا الجيل لم يجد الرعاية الكافية في البيت أو على الاصح ، لم يجد الرعاية الصحية ، ثم انه لم يجد التوجيه السليم في المدرسة ، ولا الحدب الكافي في المجتمع ، ولذا عمت أكثر أفراده روح التمرد والسخرية والشك الذي لا يوصـل الى يقين • ولقـد كان لبلبلة التعليم ، وتنوع مصـادر الثقافة ، وضحالتها شأن في هذا الوضع • وكثير من أبناء هذا الجيل وبناته يتلقون قسطا لا يستهان به من معارفهم من صحائف الجرائد ، ومشاهد السينما ،

واخبار المجلات ، وحوار الروايات الرخيصة ، ناهيك عما تسرب الى اذهان بعضهم من كتب ونشرات مغرضة لم تهدف لنشر المعرفة الحقة ، ولم تدع للعلم الصحيح ، وقد تصل هذه المعلومات الى أذهان الناشئة في مرحلة مبكرة لم تنضج فيها ملكات النقد والتمحيص عندهم ، ولذا سرعان ما يعتقدون بأن تلك المسائل من الحقائق العلمية التي لا مجال للشك فيها .

ومن نافلة القول ان انبه هنا بانني لاأريد ان احظر قراءة الصحف والمجلات ، ولا أحول بين الشباب وبين مشاهدة السينما والاستمتاع بها ، كما لا أدعو الى عدم الاستفادة من قراءة الروايات وكتب الأدب الحديث ، ولكن الذي اعتقده ، وادعو اليه ، هو ان هذه الامور بمجموعها تكون جزءا مهما من غذاء الناشئة الروحي ، ولها شأن عظيم في توجيه أفكارهم ، فمن غير المعقول ان تترك من غير تنظيم أو مراقبة . اذ كما ان من أول واجبات الهيئات الصحية في كل بلد ان تراقب الاطعمة والاشربة لتحول بين الرديء والمغشوش منها وبين ان تصل الى جوف المستهلك ، كذلك من الزم الواجبات على المسؤولين عن غذاء الامة الروحي ان يحولوا دون وصول تلك المواد الى أذهان الناشئة وانظارهم . وعلينا ان نعلم ـ ان كنا لم نزل جاهلين ـ بأن عدونا يحاربنا بهذه الطريقة بسلاح هو أشد فتكا ، وأعظم تخريبا ، من الطائرات النفاثة والقنابل الذرية . وانه لمن المؤلم حقا ان نبقى في غفلتنا غير عابئين بخطر هذا السلاح ، وغير متخذين أية وسيلة فعالة من وسائل الوقاية والمكافحة .

خاتمـــــة

وقبل ان أختم محاضرتي هذه أرى من المفيد ان انبه الى نقطتين أساسيتين :

أولاهما ، هي انني لست من المتشائمين القانطين الذين لايرون مجالا لاصلاح أحوالنا بصورة عامة ، ولا اصلاح ما في هذا الجيل من نقائص وهنات . ولا شك في ان لهذا الجيل فضائله الى جانب نقائصه ، ومن الواجب علينا ان ننبه الى وجوه النقص ، لان على اصلاحها يتوقف

ـ الى حد بعيد ـ مستقبل الامة بكاملها ، ولا شك عندي في أن ما يصح قوله في هذا الجيل في العراق ، يصح ، الى حد بعيد ، في البلاد العربية الاخرى ، اذ ان عوامل التشابه عديدة ، بل انها تكاد تكون واحدة .

وثانيتهما هي انني لا أريد ان اتخذ من مقامي هذا منبر الخطيب ، او كرسي الواعـظ ، فأرثي الخـلق المفقود ، واسـتدر العبرات على الفضيلة الضائعة ، وغاية ما اريده ان اعرض ، بصدق واخلاص ، بعض احساساتي الخاصة عن بعض وجوه النقص في مجتمعنا ، وفي هذا الجيل من المجتمع على وجه التخصيص ، لنتدارك ما يمكن تداركه من عوامل النقص والضعف .

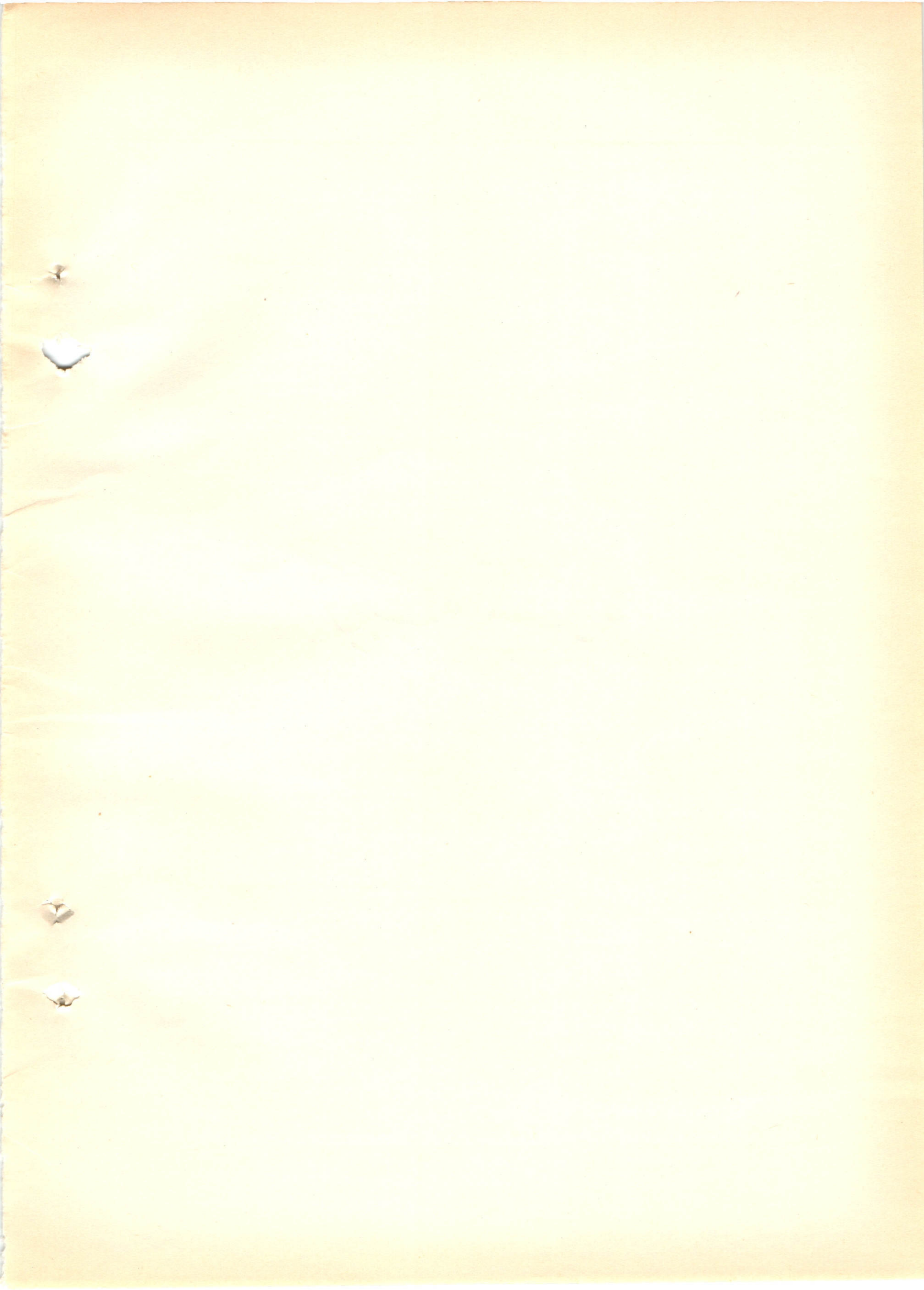
وعندي ان الاعتراف بتلك النقائص ، وتأكيدها ، مظهر سليم ، ودليل قوي على نقاهة الامة ويقظتها ، وليس في التسليم بالأمر الواقع ـ سواء أكان ذلك الامر الواقع سـياسيا أم اقتصاديا أم اجتماعيا أم ثقافيـا ـ ، والاعتقاد بكماله الا الجمود والتدني والموت .

ولست اخشى ، بعد ذلك ، ان تغضب آرائي وأقوالي من تغضب ، أو ترضى من ترضى ، فلست الى الاغضاب أو الارضاء أهدف ، وانما اهدف الى الحق أو ـ على أقل تقدير ـ الى ما اعتقده حقا ، واني لأعلم بأنني في قاعة حرية ـ كما يقول الغربيون ـ ومن أول واجبات رجال الفكر ان يكونوا احرارا فيما يعتقدون ، جريئين في اعلان أفكارهم ، على حد ما قال افلاطون :

مجانين ان لم نستطع ان نفكر .
ومتعصبون ان لم نرد ان نفكر .
وعبيد ان لم نجرأ على ان نفكر .



تربية المرأة



ترددت ، بادیء ذی بدء ، في اجابة طلب « اسرة المعلم الجديد » حين دعتني مشكورة للمساهمة فی هذا العدد الذي أعدته عن « تعليم المرأة »[1]؛ ذلك لان الوقت المحدد لاعداد مقال فی الموضوع المقترح كان من القصر بحيث لا استطيع معه أن أهيیء بحثا مستكملا لشروطه من العمق والاستقصاء. ولكني ـ بعد أن ترك لي اختيار الموضوع ـ آثرت أن ادلي بدلوي بين الدلاء ، وأتقدم لاعلان هذه الخواطر والآراء التي كانت كثيرا ما تجول بخاطري ، وتشغل حيزا أساسيا من تفكيري . وهي آراء لا تعوزها الصراحة ، وأرجو مخلصا أن لا تخلو من فائدة فی توجيه مستقبلنا الثقافي .

وغني عن البيان أن المستقبل الثقافي لاية أمة من الامم ـ بل ومستقبلها الاجتماعي والسياسي ـ يتوقف ، لحد بعيد ، على نوع الثقافة التي تعدها وتغذي بها أجيالها الصاعدة ، وعلى الاخص فتياتها ؛ أمهات المستقبل ، وصانعات التأريخ . وعلى هذا صار من المحتم أن تولي كل أمة متيقظة هذه القضية المزيد من عنايتها ، والا تترك الامر للظروف والاحداث من غير حساب دقيق ، وخطط منظمة ، ومناهج موجهة . وأحسب أن هذه الحقيقة صارت من الوضوح والجلاء بحيث لا ينازع فيها اليوم منازع . وكما تركت دول العالم « مبدأ التسيب الاقتصادي » ، وصارت تأخذ ـ بمقادير مختلفة ـ بـ « الاقتصاد الموجه » ، كذلك الشأن في التربية والتعليم ، وهما من أهم عوامل التوجيه الاجتماعي والسياسي في كل مجتمع حديث . وحاجة الدول الناشئة ، والامم المستضعفة ، لهذا التوجيه أشد بالضرورة ، وعليها لذلك أن لا تنی ولا

---

(١) نشر هذا المقال في الجزء الاول والثاني من مجلة المعلم الجديد الصادر في ١١ ايلول سنة ١٩٥٣ .

تضيّع أية فرصة فى احكام مناهجها ، والتأكد من سـلامتها ، وقدرتها على تحقيق اهدافها القومية البعيدة التي ترمي اليها •

ان نظرية العلم للعلم ، والثقافة للثقافـة ، والفن للفن ، وما الى ذلك من أقوال أشاعها بعض أحرار الغرب ومفكريه ، ان كانت تصلح لبعض الامم الراقية والمجتمعات الخاصة فانها ، دون أدنى شك ، لا تصلح اليوم لنا • ان مستقبل أمتنا يتطلب منا أن نؤمن « بالتعليم الموجه » قدر ايماننا « بالاقتصاد المنظم » • ولست أدرى أأنا بحاجة الى تكرار الحقيقة البديهية : بأن ما يصلح لامة من الامم ليس من المحتم أن يصلح لامة أخرى ، بل أن ما يصلح لامة في حين من الزمن قد لا يصلح لها في حين آخر • والتقليد في الازياء والاشكال والحاجات المادية قد يكون نافعا ، وهو أول مراحل التقدم ، ولكن استيراد الآراء والفلسفات دون تمحيص ، ودون نظر لحاجة الامة ، وطبيعة ظروفها ، وموقعها في سلم الرقي الانساني ، خطر عظيم •

ان الافكار الاساسية في التربية والتعليم يجب أن تكون واضحة كل الوضوح ، ومستقرة تمام الاستقرار ، وغير معرضة للهزات الخارجية تعبث بها كما تعبث الريح بأفانين الشجر • ويجب أن يعنى بكل ما يتصل بمناهج الدراسة العناية كلها • وعندي أن هذه العناية لا تقتصر على المسائل المنهجية ، بل يجب أن تشمل جميع النشاط الثقافي والاجتماعي ؛ فكتب المطالعـة ، وروايات الجيب ، ومجلات السمر ، والافلام السـينمائية ، والروايات التمثيلية ، كلها ذات أثر فعال في توجيه عقل الفتى أو الفتاة • ولهذا صار من المحتم أن تكون هذه الاشياء جميعا موضع عناية ، ورقابة ، وتوجيـه • والحاجة في التوجيه بالنسبة للفتيات أشد ، ذلك لان كل فتاة أم محتملة ، وانها ستصبح لذلك حجر الزاوية في الكيان الاجتماعي ، والقدوة ، بل المثل الاعلى ، لاطفالها ، وانها سترضع الفضائل أو الرذائل لوليدها مع لبن ثديها ، وستتحكم بنتيجة ذلك في مصائر الاجيال •••

ان التعليم حق وواجب ؛ هو حق لكل فرد ، وواجب على كل حكومة ، بل أن من أول واجبات الحكومة العصرية اليوم تعليم افرادها ذكورا كانوا أو اناثا ، ولكن هناك ، فيما أرى ، واجبا ألزم من التعليم ، واكثر منه أهمية ،

وأقصد به « التثقيف » • وغني عن البيان بأن المرأة المتعلمة ليس من المحتم أن تكون مثقفة ؛ لان التعليم وان يكن من أسس الثقافة وعواملها المهمة ولكنه ليس الثقافة كلها • فيجوز مثلا أن نطلق لفظ المتعلم أو المتعلمة على من يقرأ ويكتب ـ ولا أقول يحسن القراءة والكتابة ـ ، ويعرف أوليات الحساب والرياضيات ، ويدرك طرفا من مبادىء العلوم الطبيعية ، ويلم بقسط معقول من العلوم الاجتماعية ، ويساهم بالقدر المشترك في المعارف العامة الاساسية التي لا بد منها لكل فرد ، ولكن هذا كله لا يكفي لعد ذلك الفرد مثقفا • اذ تتطلب الثقافة بالاضافة الى هذا كله ، بل وقبل هذا كله ، سلوكا معينا ، ومبادىء خلقية خاصة ، وآداب اجتماعية ، ومعان حضارية تميز الفرد الانساني من باقي الكائنات الحية • وعلى العموم نستطيع أن نقول بأن متطلبات التعليم عامة ومشتركة بين الشعوب وذات طابع عالمي ، بينما متطلبات الثقافة خاصة وذات طابع قومي أو اقليمي يميز كل مجتمع حضاري عن سواه • فالمرأة المتعلمة قد تصبح بمجرد التعليم مثلا عالميا ، ولكن المرأة المثقفة ـ كالرجل المثقف ـ ذات طابع خاص • فالمرأة العربية المثقفة يجب أن تكون غير الانكليزية المثقفة ، وهذه غير الالمانية أو الامريكية ، والمرأة الامريكية المثقفة غير الهندية أو الصينية • فلا بد أن يكون للمرأة المثقفة ـ اذن ـ على الرغم من القدر المشترك العام ـ طابع خاص ، وتقاليد ومقاييس ومقومات عقلية واجتماعية وخلقية تميزها عن سواها • وتحرص كل أمة حية على أن تحتفظ بثقافتها لانها عنوان حياتها ، ودليل قوتها • واذا ما فقدت أمة ثقافتها انعدم كيانها الحقيقي على الرغم من وجودها الشكلي • فهل للمرأة العربية عامة والمرأة العراقية خاصة ثقافة معينة ؟ وهل لها اليوم طابع خاص تمتاز به ؟ وهل لها ذاتيتها المبدعة وأصالتها التي تنفرد بها ؟ • ولنا بعد أن نتساءل كم من متعلماتنا من تعرف آدابنا الاجتماعية ، وتقاليدنا القومية ، وترعاها حق رعايتها ؟ وكم منهن من تعرف تراثنا الحضاري في الدين والاخلاق والآداب والفنون والاجتماع فتحيا في ظلال الوارفة وتستمد منه مثلها العليا التي تسعى حثيثا لبلوغ مداها ؟ وكم منهن اللائي يحفظن القصائد الرائعة ، والاناشيد القومية ، والترانيم الوطنية ، والاهازيج الشعبية ، فينشدنها ويتغنين بها ويترنمن

بأنغامها ؟ بل كم منهن من تعرف صناعة ، أو تتقن فنا ، أو تجيد حرفة ، تزيد في جمال الحياة ، ومسرات البيت ، وهناء العائلة ؟؟!

ان على أجوبة هذه الاسئلة وأمثالها يتوقف ادراك مدى ثقافة المرأة العربية ، ومنها يستبين مقدار تقدمها الحقيقي • ومن العبث أن نخادع أنفسنا فنغتبط بالتقدم الجزئي الذي أصابته المرأة العربية بازدياد عدد المتعلمات ، وكثرة مدارس البنات ، والتطور الذى حصلت عليه في أزيائها ومظاهرها • لان عنايتنا يجب أن تتوجه الى « الثقافة الحقة » ، لانها هي المجدية في الحياة ، وليس الى مجرد التعليم الذي ان لم تواكبه الروح الموجهة ، ويقترن معه الخلق الرفيع ، قد يزيد فى بلبلة المجتمع وتأخره •

ولست أدري أيهما أنفع لمجتمعنا اليوم ، بل وأيهما أفضل في كل مقياس صحيح ! قروية أمية لم تزل تحتفظ بجمالها الطبيعي غير المجلوب بتطرية (كما يقول أبو الطيب المتنبي) ، وخلق فطري رضى ، وآداب اجتماعية تحرص الحرص كله عليها ؛ فهي تموت ولا تأكل بثدييها ، ومقاييس خلقية صلبة تقتحم الموت الزؤام ولا تجرأ على التفكير بتخطيها ، وشعور بالواجب نحو بيتها وقريتها ، أم متعلمة متبرجة ، لا تتقيد بمقياس خلقي ؛ ترى أن من حقها تقليدا للمرأة الغربية واستكمالا لحريتها وتمدنها أن تدخن وتشرب وتقامر وتسهر وترتاد كل مكان بلا تأثم ولا احتشام ، وتزدري العمل اليدوي ، وليس للمجتمع نصيب من نشاطها ، وترى ان كل واجباتها نحو اولادها أنها ولدتهم ، اما تربيتهم وخدمتهم فذلك شأن المربية والخادمة ؟!

وليست هذه السيدة المتعلمة بدعا من السيدات اذ من المؤسف أن امثالها ـ بصور شتى واشكال عديدة ـ كثيرات • واذا لم نتدارك التعليم بالثقافة ، والحرية بالنظام ، وحق الفرد بالصالح العام ، يوشك هذا النفر من المتعلمات أن يصبح بلية اجتماعية ، ومشكلة رئيسة تتطلب « قاسم أمين » جديد أكثر جرأة وأعمق ايمانا ليحرر المرأة من استعمار الغرب الفكري ، وطغيان التقليد الاعمى الذي مسخ ، أو كاد يمسخ ، حياة كثير من النساء العربيات ، وليعيد لهن « الحياة الفاضلة الكريمة » •

وأولى السبل التي يجب أن نسلكها ، ونسعى لها حثيثا ، اصلاح مناهج

الدراسة اصلاحا جوهريا جذريا • فقد كنا فيما مضى نعنى بالكم لا الكيف ، ونتعهد الجسم لا الروح ، ونهتم بالتعليم لا التثقيف ، وكانت مناهجنا ـ على العموم ـ خالية من كل روح دينية سامية ، ومشاعر قومية صادقة ، وكان معظم أساتذة العلوم الاجتماعية ومدرسيها ، واغلب المشرفين على التوجيه الثقافي في هذه البلاد ، ممن لا يحمل عقائد دينية عميقة ، ولا يتحسس شعورا قوميا أصيلا وكان حصاد ذلك الزرع هذا العدد الوافر من الشبان والشابات ، من الحائرين والحائرات ، والمضطربين والمضطربات ، ممن يسمون متعلمين ومتعلمات ، ولكنهم في الغالب الاعم ـ لم يوجهوا وجهة طيبة ، ولم يعدوا ليصبحوا مواطنين صالحين ، أو على أقل تقدير ، أفرادا مهيئين لتحمل تبعات الحياة • والمسؤولية الاساسية لا تقع بطبيعة الحال على عاتق هؤلاء الابرياء الذين سيقوا الى هذا المصير المؤلم ، بل على المشرفين والمسؤولين عن توجيهنا الثقافي في الحقبة السالفة ، وبصورة أخص في السنوات التي اعقبت الحرب العالمية الثانية •

اننا بحاجة الى مناهج عميقة دقيقة تعنى بالثقافة الحقة ، وتنمية الملكات الطبيعية ، وتغذي روح العقيدة والوطنية ، وحب الخير • واننا ، فوق ذلك ، بحاجة الى مربين ومربيات تخفق قلوبهم باحاسيس قومية صادقة ، وتمتزج ارواحهم بعقائد دينية صحيحة ، ويشعرون بقدسية وجلال الواجب الملقى على عواتقهم ، يدفعهم وجدان نقي الى أن يفنوا لينشئوا جيلا مثقفا ويبعثوا بذلك أمة •

وعندي أن اول ما يجب أن يعنى به في تثقيف المرأة تأكيد ما اختصها به الخالق ، وحبتها به الطبيعة ، وهو كونها « أما مستقبلة » • وعليه يجب أن يعنى بكل الصفات اللازمة للأم الفاضلة من حب وايثار وحرص • وما لم يهدف التعليم لتهيئة المرأة لواجبها الاول ووظيفتها الاساسية ـ وأكرم بها من وظيفة ـ يكون قد صار تعليما ناقصا ، لم يمهد لثقافة صحيحة • ومن اللازم أن يختلف تعليم المرأة عن تعليم الرجل في بعض مراحل التعليم على الاقل • وصار من المحتم أن توضع مناهج ومواد خاصة • ولابد أن يشترط مران معين في تربية الفتاة •

ولست أريد أن اخوض هنا في الموضوع الشائك المعقد (اختلاف طبيعتي المرأة والرجل أو وحدتهـا) • فلتكن نظريات العلماء الطبيعيين والاجتماعيين ما عساها أن تكون ، ولكن حقيقة واحدة على الاقل يجب ألا يجادل فيها ؛ وهي أن طبيعة الاشياء ومتطلبات الحياة ، وسنن الكون ، تؤكد أن الفتاة أم مستقبلة قبل كل شيء • وكل اغفال لهذه الحقيقة يؤدي الى أوخم النتائج لا في حياة الفتيات وحدهن بل في حياة الامة بكاملها •

وقد يخال البعض أن هذا الامر من البداهة والوضوح بحيث لا يحتاج الى تأكيد ، ولكن واقع الحال في بلادنا يدل على خلاف ذلك فهناك تيارات عنيفة ـ متعددة المنابع والغايات ـ تعمل بشدة لاخراج المرأة عن هذا المسلك القويم ؛ فحينا بأسم التجديد والقضاء على العادات البالية ، وحينا آخر باسم الحرية والمساواة ، صار تأكيد أنوثة المرأة يعتبر دليلا على الرجعية والتأخر • وقد أوحى بعض شياطين الانس الى النساء بأن الغاية من تأكيد أنوثة المرأة ، وكونها اما محتملة هضم حقهـا ، واستعبادها ، واحالتها حلية للرجال • ولست أزعم أن فريقا من الرجال لا يحملون أمثال هذه الآراء الخاطئة ، أو أن قسطا كبيرا من النساء لم تمتهن كرامتهن من بعض الرجال ، ولكن معالجة هذا الأمر لا تكون بالخروج على طبيعة الاشياء ، وسنن الكون • واستطيع أن أؤكد جازما أن ما قد تناله المرأة من حقوق على حساب اضعاف أنوثتها لا يمكن أن يعوض بحال من الاحوال • وخير للمرأة وللمجتمع عامـة أن تبقى نساؤه نساءا ، ورجاله رجالا من أن تتشبه نساؤه بالرجال ، ورجاله بالنساء ، فتنقلب الآية •

ان الثقافة الحقة هي التي يجب أن تحرص على تأكيد هذه الحقيقة الخالدة • وليس في ذلك غمط لحق المرأة ، أو انتقاص من انسـانيتها ، وليس في ذلك تفضيل لكل رجل على كل امرأة ، ولكنها مشيئة الخالق الذى جعل النساء من أنفس الرجال ، ولكنهن غير الرجال • وجميل بنا أن نتذكر كلمة للمهاتما غاندى في هذا الصدد اذ يقول : « أن المرأة والرجل كشفرتي المقراض ، تختلف الواحدة عن الاخرى ، وتتم الواحدة الاخرى » •

وليس في تأكيد أنوثة المرأة ، والحرص على المحافظة على كل ما

يتصل بهذه الصفة اعتراف بتقسيم المجتمع عموديا الى رجال ونساء تختلف مصالح كل جنس عن مصالح الجنس الآخر كما يحلو لبعض الفلسفات المادية أن تشيع • ان من أسوأ المساوىء أن يتجه التعليم هـذا الاتجاه ، وكفانا مافي مجتمعنا اليوم من اسباب للفرقة والاختلاف لاعتبارات عديدة لا حصر لها• أن التثقيف الصحيح يجب أن يتجه الى تأكيد التعاطف التام ، والتجاذب الكلي ، « ووحدة الانسانية التي هي في الاناث والذكور سواء » • ولكن تقسيم العمل ـ ولا انتظام في الحياة ، ولا عمران دون تقسيم العمل ـ وطبيعـة الحياة هي التي تفرض أن تختلف ثقافة المرأة عن ثقافـة الرجل بعض الاختلاف دون أن يكون هذا الخلاف الثقافي سببا للخصام أو تصادم المنافع والغايات بحال من الاحوال • وهل المرأة الا أم الرجل أو ابنته أو اخته ، أو زوجه ؟ وهل يسعد مجتمع يستحكم فيه العداء وتنمو فيه النفرة بين المرء وأمه وابنته واخته وزوجه ؟؟

ووثيق الصلة بهـذا الامر ـ واعنى به نقص الثقافة وسوء توجيهها ـ دعوة بعض السيدات في جملة من الاقطار العربية للمطالبة بما يسمينه بحقوقهن السياسية ، وطلبهن الدخول في المجالس النيابية • ولنا أن نتساءل أمن الحق أن مشكلتنا الكبرى تكمن هنا وهنا حسب ؟ واذا ما اتيح للسيدات أن تجلجل اصواتهن ـ ان كانت لهن اصوات تجلجل ـ في قبـاب البرلمان أنكون قد بلغنا الغاية وحققنا المطلب الاسمى ؟ ، بل لنا أن نصب السؤال بشكل أعم وأوسع فنقول : أمن الحق أن مشكلتنا الاساسية تحل في قباب البرلمان ومجالس التشريع ؟ ان نظرة عميقة فاحصة ترينا بجلاء ان مشكلتنا أشد تعقيدا واكثر عمقا مما تتظاهر ، وانها تحتاج لذلك الى اعمال جدية ، وجهود مضنية مستمرة • فلن تصلح أحوالنا حين تصبح « السيدة فلانـــة » أو « الآنسة فلانة » عضوا في البرلمان بدلا من زوجها أو أخيها ، أو أبيها أو معهم ، ما دامت العقلية هي العقلية ، والذهنية هي الذهنية ، والثقافة الناقصة هي الثقافة الناقصة • ولكنه التقليد الاعمى والسير في اعقاب المرأة الغربية دون رويـة أو ادراك ، ودون تحر عميق عن الاسباب الحقيقية التي أدت بالمرأة الغربية الى ما أدت اليه • فكم من متعلماتنا من تدرك المراحل التي

مرت بها المرأة الغربية قبل أن تطالب بالاشتراك في البرلمان ؟ ، وكم منهن من سبرت الرجات الاجتماعية والاقتصادية التي مرت بها الحياة الغربية وجعلت الملايين من الفتيات يفضن على عدد الفتيان بسبب الحروب الطاحنة ، التي جعلت الملايين منهن يعتمدن على أنفسهن في كسب العيش • ان الظروف الاقتصادية والاجتماعية لاية أمة من الامم هي التي توجه الحياة فيها • فبعد الثورة الصناعية في كثير من أقطار الغرب تكدس العمال والعاملات في المدن الكبرى ، وتغيرت سبل العيش ، ووهنت الروابط العائلية ، وتحت ضغط تلك الظروف اضطر الآباء ، وأرباب الاسر عامة ، الى التخلي عن كثير من عاداتهم ، وعنعناتهم ومقاييسهم ، كما أن الحروب الطاحنة التي ابتليت بها اوربا عرضت المرأة لما تعرض له الرجل من مخاطر ، وفرضت عليها القوانين ، يكاد يشبه ما فرضته على الرجال • بعد هذه المراحل أتيح للمرأة أن تساهم في الحياة العامة ، واتيح لها أن تشارك الرجال السلطات السياسية مشاركة لم تزل الى حد بعيد رمزية يراد بها « تطمين هوايات وتعويض نقص » اكثر من أي شيء آخر •

ونحن في شرقنا العربي هل وصلنا هذه المرحلة ؟ ، وهل غمرتنا الثورة الصناعية الى هذا الحد ؟ ، وهل طورت الحروب الطاحنة مقاييسنا وحياتنا ؟ •

أفمن الحق أن تطالب المرأة المصرية أو العراقية مثلا بحق الانتخابات ولا تطالب به السويسرية[1] ، وسويسرة من أرقى بلاد العالم ، ان لم تكن أرقاها على وجه الاطلاق ؟ أفمن المصلحة أن تلح المرأة المصرية أو العراقية في حقوقها السياسية وتصدف عن هذا الحق المرأة اليونانية واليونان أعرق البلاد الغربية قاطبة ؟ أمن المنطق أن تتمتع المرأة عندنا بهذا الحق السياسي ولم تتمتع به المرأة الفرنسية الا منذ بضع سنوات وبعد اعقاب الحرب العالمية الثانية ؟

ان وجود المرأة في البرلمان حلية اجتماعية ، والحلى الاجتماعية ، ككل الحلى ، يجب الا يصار اليها الا بعد استكمال كل الضروريات • ولست أدري ايهما أجدى لمجتمعنا عمل هذا الفريق من السيدات أم الفريق الآخر

---

(١) حصلت المرأة السويسرية في الكانتونات التي تتكلم الفرنسية على حق الانتخاب •

الذي يتصرف بجد وتوأدة ومثابرة لمكافحة الفقر والمرض والجهل والحفا والتشرد وآلام الحمل وكثرة وفيات الاطفال ، وما الى ذلك من اسقام وآفات جسمية واجتماعية واخلاقية لا حصر لها ؟ ، ولست ادري ايضا أيهما أحق بالتشجيع وادعى للأعجاب هذا النفر الصاخب أم ذلك الفريق الصامت الذى تمثله الحاجة « سنية ظافري » التي أثارت اعجاب القاضي في المحكمة العليا الامريكية « وليم دوكلاس » ووجد ان من اللازم أن يخصها بصفحة من كتابه عن الشرق الادنى المسمى : « بلاد عجيبة وشعوب صديقة » •

والحاجة سنية هذه قابلة عربية من أهالي حيفا هاجرت من وطنها مرغمة بعد كارثة فلسطين كما هاجر مئآت الالوف من العرب خشية بطش الصهاينة وخوفا من تكرار الاعمال الوحشية التي مثلوها في « دير ياسين » • والتجأت هذه الآنسة الفاضلة الى دمشق وحملها شعورها الانساني العميق ، وقوميتها الصادقة الى أن تكرس حياتها لخدمة الريف السوري • وسرعان ما اصبحت الممرضة لكل مريض ، والمرشدة لكل حامل ، والمولدة لكل والدة ، والمواسية لكل جريح ، وكان من نتائج جهادها الجبار أن انعدمت وفيات الاطفال في منطقتها ، وكانت قبل ذلك تصل الخمسين بالمائة من الولادات او تزيد •

هذا النوع من الثقافة هو الذي نفتقر اليه ، وهذا القبيل من المثقفات هو الذي يجب أن نحرص عليه •

والثقافة الحقة ، كما اسلفت ، هي التي لا تتعارض مع طبيعة الاشياء ، وهي التي تمتاز بالأصالة وعدم التقليد ، بالاضافة الى الروح الساخنة المتدفقة • ولست أدري علام هذا الحرص الشديد الذي يبديه كثير من الرجال والنساء على تقليد المرأة الغربية تقليدا أعمى ، وكثير من مفكري الغرب ومصلحيه أنفسهم يشكون أمرّ الشكوى مما يقاسيه مجتمعهم من آفات واسقام يرجع قسم غير يسير منها الى ضعف النظام العائلي ، ووهن الحياة الزوجية ، والافراط في تحرر المرأة ، وضعف الروح • أفلسنا بهذا نقيم الدليل على أننا لم نزل نرزح تحت أعباء « استعمار فكري » مقيت أفقدنا الاصالة في التفكير ، وحرمنا من الجرأة اللازمة لكل اصلاح ؟ • وعلام لا يكون من أهدافنا الاساسية تخليص مجتمعنا ، ما وجد سبيل الى ذلك ، من كثير من المخاطر والآفات التي تعرض لها الغرب في سيره في مضمار الحياة ؟!

وعلام ننسى أو نتناسى بأن للغرب روحه ومعتقده وطبيعته وهي تختلف عن روح الشرق وعقيدته وطبيعته ؟!

لا نكران من أن التيارات الاجتماعية كالانهار الفائضة المزمجرة لا بد أن تشق طريقها وتأخذ مجراها ، ولكن هناك فرق بين تركها على سجيتها للاقدار وقد تجرف مدنا ، وتقضي على آلاف الانفس ، وتعدم عشرات الالاف من الأفدنة الخصبة ، وبين ادراك الخطر سلفا وملافاته باقامة السدود المقتضية ، والتوجيه الممكن ، وتفادي كثير من المخاطر والكوارث ...

واني لاشعر بأن هذا الامر من الخطورة والاهمية بحيث لا يجدي معه كثيرا مقال لكاتب ، ولا خطبة لخطيب ، ولا نصح لواعظ . انها فتنة العصر الذي تضافرت عوامل عديدة على تحسينها وبهرجتها ، فبالاضافة الى سوء التعليم ، ومسخ الثقافة ، وضعف الوازع الذاتي ، والعوامل الاقتصادية والاجتماعية والنفسية العديدة ، فقد كان للقدوة السيئة ، والمثل غير الصالح ، أكبر الاثر في هذا الشأن . ويعز على ، وايم الحق ، أن اقول بأن شقيقتنا الكبرى ــ مصر ــ كانت ويا للاسف هذا المثل السيء ، وكان البلاط المصري ، وبعض الامراء والاميرات المصريات ، وكثير من أعيان مصر وبشواتها قد سنوا أسوأ السنن ، وجرّؤا الحرائر على ما لم يكن يجرءن على فعله لولا تلك الامثلة السيئة . وقد جسمت دور الاذاعة ، وافلام السينما ، والمجلات المصورة الداعرة هذا الامر وعممته . وعسى أن تكون نهضة مصر الاخيرة غير قاصرة على ارجاع الامور السياسية الى نصابها حسب ، بل تحقق مع ذلك للمرأة المصرية المقام الكريم الذي يتفق مع الدين القويم ، والعزة القومية ، وتصبح من جديد مصر قدوة صالحة في هذا الشأن لشقيقاتها[1] .

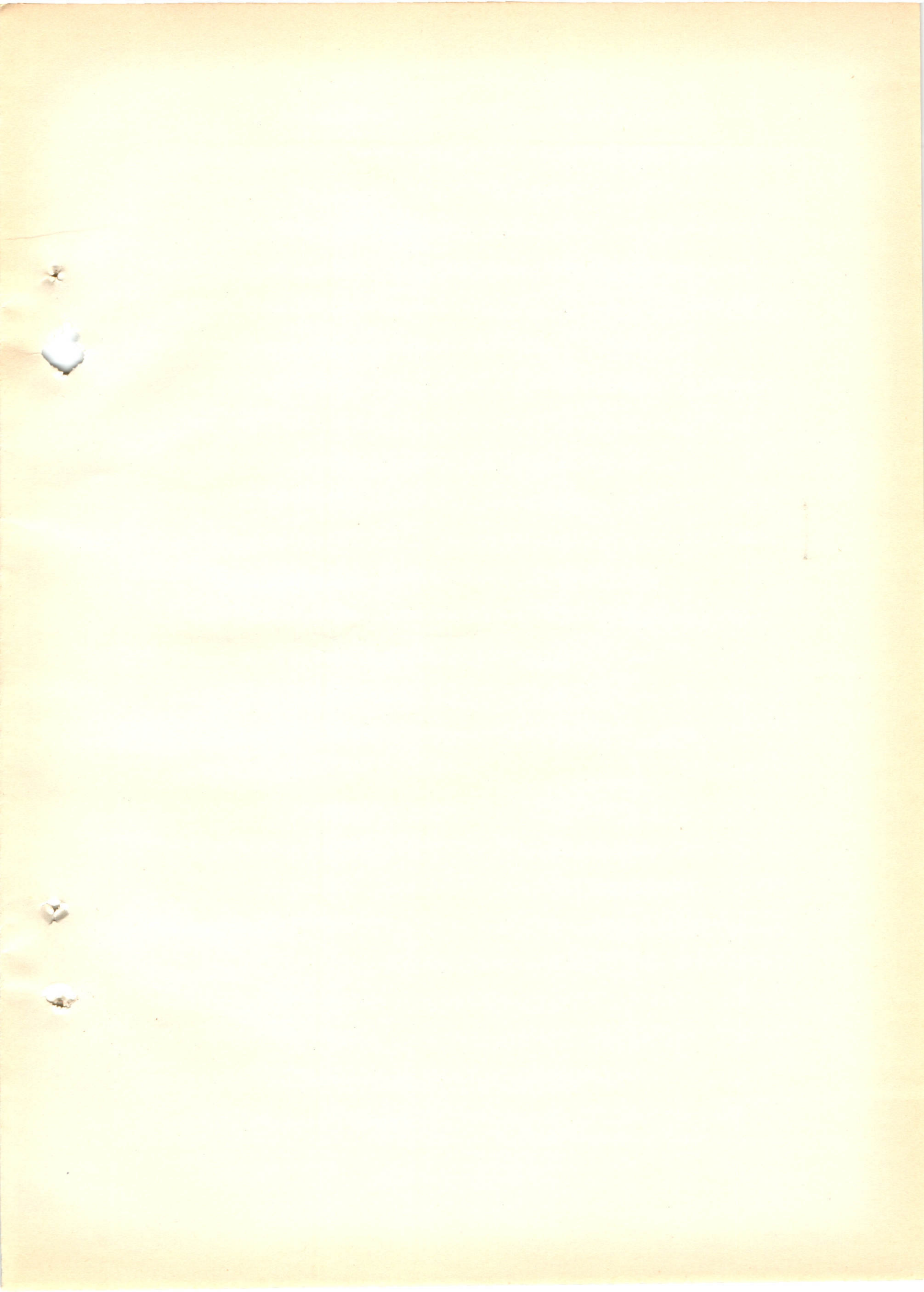
وفي الخلاصة نريد لفتياتنا ثقافة عربية أصيلة تجعل منهن معين الحياة وزينتها ، وعنصرا فعالا مجديا ، والسكن الذي تأنس فيه النفوس وتدرك انسانيتها .

---

(١) لقد قامت الثورة بقسط مشكور في هذا الميدان ولكن مجال الاصلاح بل والحاجة اليه جد واسعة والمرجو ان يقوم المشرفون على التوجيه بجهود اخرى ليتحقق ما نريد .



الإنكليز كما عرفتهم



I

تحديد الموضوع[1]

عنوان هذا الحديث لا يخلو من التباس أو ابهام ؛ اذ قد يرى الكثيرون ان ما أسميته معرفة بالانكليز هو محض ادعاء وانني لم ازل اجهل القوم كل الجهل . وفي الواقع فانني طالما كنت أوجه لنفسي اسئلة من هذا القبيل : احق انني عرفت الانكليز ؟ اصحيح انني توصلت الى كشف هذا اللغز الذي يحتار في فهمه كثير من الناس ؟ أمن الجائز لي ان ادعي انني عرفت الانكليز وفقهت ، تقاليدهم وعاداتهم ، بالدرجة التي أتمكن معها من اعلان الرأي ، والتحدث عنهم ؟؟

هذه اسئلة خطرت لي مرارا ، خاصة بعد ان طلب الي التحدث اليكم. وقد ترددت ، ولم ازل اتردد ، في الاجابة القاطعة عنها بالنفي أو الايجاب ..

ومهما يكن من أمر فان ما اذيعه الآن انما هو آراء شخصية لها كل ما للآراء الفردية من نقائص وميزات ؛ فقد تكون مصيبة ، وقد لا تكون ، ولكنها على كل حال تشبثات أقصد الجد منها ، واتحرى في اعلانها الانصاف . ولا يعنيني ، بعد ذلك ، اوفقت للحق الذي أقصده أم لم أوفق ....

---

(١) القيت هذا الحديث من دار الاذاعة العراقية بناء على طلب وجه الي وذلك بعد عودتي من لندن ــ حيث كنت اتم دراستي العالية ــ ولقد القي في أواخر شهر ايلول او أوائل شهر تشرين الاول ١٩٣٩ . وهو على كل حال أول حديث اذيعه من دار الاذاعة .

صعوبة هذا البحث

وموضوع كهذا صعب بطبيعته ، ومواطن الزلل فيه كثيرة ، وذلك لأنه يستند الى الرأي المجرد ، ويبني على الملاحظة الفردية . وقد يرى الانسان اشياء لم يرها غيره ، وقد يلاحظ أمورا يعدها جوهرية في تفهم طبائع البشر ، حين يعدها الكثيرون من توافه الامور ... هذا بالاضافة الى انه لا مناص من التعميم في بحث كهذا ، ولا يخفى ما في التعميم من خطر ، وما فيه من احتمال الشطط . والانسان بطبيعته ـ ولعله معذور في هذا ـ ميال للتعميم ، ووضع القواعد من دون تحرز أو استثناء . ولعل السائحين من الصحفيين أو الباحثين في شؤون الجماعات البشرية اجدر الناس بالتنبه الى هذه القضية ؛ فقد يصادف ان يشاهد انسان في مدينة من المدن معاملة حسنةمن شخص أو شخصين أو من اشخاص معدودين ـ ولا يستطيع أكثر الناس حبا للتعرف والاختلاط غير معرفة اشخاص معدودين ـ ثم لا يلبث أن يجزم بأن اخلاق أهالي تلك المدينة حسنة . وقد يذهب في التعميم الى أبعد من ذلك مدى ، فيعلن ان طباع اهالي البلاد التي تنتسب اليها تلك البلدة قد بلغت درجة الكمال . وانه لمن الواضح ان التعميم هذا ما هو الا نتيجة لصدفة حسنة ؛ وقد يكون ذلك الشعب أقل بكثير في الناحية الخلقية مما يظن . وقد يكون بين أفراد ذلك المجتمع من هم أشر الناس . هذا وقد يحدث ما هو عكس ذلك . فقد يصادف ان يسافر انسان في قطار فيجد مشقة في سفره تعود من حيث الاصل ، الى ابطائه في المجيء الى محطة القطار ، ثم انه قد لا يصادف حين وصوله الى البلد المقصود من يحمل معه امتعته الا بعد جهد ، وقد يزيد من ازعاجه لجاج الحمال في طلب زيادة اجرة ، وقد يرافقه سوء الطالع فلا يجد من معاملة صاحب الفندق الذي يحل فيه ما تطيب له نفسه ، فتكون هذه الحوادث الجزئية أثرا سيئا في حكمه على تلك البلدة ، وتجعله يرى ما يرى وعلى عينيه غشاوة لا تمكنه من رؤية الاشياء بالوانها الطبيعية ، فتراه يكره تلك المدينة ويشتم أهلها . ثم انه قد يذهب الى ما هو أبعد مدى من ذلك في تعميمه فتراه يسب اخلاق تلك

البلاد ناسيا انه لم يصادف فيها الا أفرادا قلائل ، وان ما اصابه من ضر يرجع ، في الدرجة الاولى ، الى سوء طالعه ، او قلة تدبيره ...

هذه مقدمة لمأر بدا من ايرادها لانها على بداهتها قد خفيت على الكثيرين من الباحثين في شؤون الاقوام البشرية . هذا من جهة ، ومن الجهة الاخرى أوردها هنا لتكون نذيرا للسامع كي لا يسلم بكل ما يقال ، وانما يجب ان ينظر الى بحوث كهذه على انها آراء تقرب من الصحة أو تبعد عنها بقدر ما اوتي أصحابها من علم وتجربة ، وعلى قدر ما منحوا من اقتصاد في القول ، واعتدال في الرأي ...

على ان اقامتي الطويلة بين ظهراني الانكليز عرفتني بهم في بلادهم ، وانه لمن الواجب ان يعرف الرجل في بلاده . وانه لمن الحق الا يحكم عليه الا بعد ان يجرب في وطنه ، وبين أهله وعشيرته . اذ يكون هناك أقرب في تسلكه الى الطبيعة منه في البلاد التي يدخلها مستعمرا أو سائحا أو مرسلا ، ولان تغير البيئة قد تحيل الكثير من صفاته الحسنة الى صفات سيئة أو بالعكس ...

ميزات المجتمع الانكليزي

ان أهم ميزات المجتمع الانكليزي العامة هي :

أولا ـ المحافظة ، وحب القديم ، ومظاهر الحياة التقليدية . ان لكلمة « تقاليد » "Tradition" منزلة خاصة في قلوب أكثر الانكليز ، وانك لتسمعها تتردد في كل حين في كل مكان . ترددها السنة الساسة في البرلمان والمحافل السياسية ، والسنة الخطباء في المجامع وصالات العلم ، وانك لتسمعها في اجتماعات الشركات والجمعيات وكل المؤسسات . ان لكل شيء تقاليدا في نظر الانكليز ، فللدولة تقاليدها تتبعها في حياتها الدستورية ـ ولعلها أهم أقسام الحقوق الاساسية الانكليزية ـ وللجمعيات على اختلافها تقاليد تلتزمها في اجتماعاتها وحفلاتها ، وللشركات تقاليد تتبعها في معاملاتها وطرق اعلانها ، وللمؤسسات الثقافية والجامعات تقاليد في الازياء والرسوم والحفلات ترعاها بدقة ،

وللعائلات تقاليد في ازيائها ومظاهرها تحرص عليها أشد الحرص[1] •

وحب الانكليز للقديم وتمسكهم به معلوم لدى الشعوب الأخرى ، وقد جعلتهم المغالاة بهذا الحب ، في بعض الاحيان ، عرضة للسخرية • وفي الحقيقة فقد يرى المنصف ان ليس في حبهم للقديم ضير هذا بشرط الاعتدال فيه ، اذ هو ناتج عن حب لاسلافهم ، ونتيجة لاعتدادهم بتاريخهم وعاداتهم • ولكن حب القديم ، والشدة في المحافظة ، قد تصل ببعضهم الى درجة السخف الذي لا يمكن ان يبرر ، وقد يقف حجر عثرة في سبيل الاصلاح والتجديد الذي لا يمكن ان يستغنى عنه شعب من شعوب الارض ، مهما كان لماضيه من السطوع •

ومما يروي في هذا الصدد انه لما قدم عام **١٨٣٨** الوزير الانكليزي السير روبرت بيل "Sir Robert Peal" لائحة لاصلاح أحكام العقوبات ، وتقليل عدد الجرائم التي كان يحكم على مرتكبيها بالاعدام ـ وكانت يومذاك تبلغ المئات ـ قام أحد النبلاء في مجلس اللوردات يعارض بشدة هذا الاصلاح ، ولكن المنطق قد خانه ، واعيته الحجة ، فجلس وهو يبكي ويقول : The old good days in England have gone

« لقد ولت الايام القديمة الصالحة في انكلترة » •

ومحافظة من هذا الطراز لاشك انها خطرا اجتماعي ، وهي لا ترتكز الا على عاطفة عمياء في تقديس الماضي ، وحب ما تعورف عليه في سابق الازمان ، وحجتهم كحجة عرب الجاهلية « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون » ••• وهذه حجة واهية تنكر سنن التقدم ، و لاتؤمن بتغير الأحكام بتبدل الازمان •••

---

(١) مما لا شك فيه ان الحرب العالمية الثانية قد خففت من شدة وطأة التقاليد في المجتمع البريطاني ، وكان للولايات المتحدة الامريكية من جهة ، والقارة الاوربية من جهة اخرى ، اكبر الاثر في الحياة الاجتماعية البريطانية حتى اننا لنسمع اليوم ـ وقبل اليوم ـ شكوى ينادى بها دعاة الاصلاح من الانكليز انفسهم من بعض مظاهر التحلل والافراط التي تقاسي منها الاجيال الصاعدة في انكلترة • انظر على سبيل المثال كتاب (بريطانيا والوحوش) تأليف بيتر هوارد
Britain and the Beast, by Peter Howard

والميزة العامة الثانية التي يمتاز بها الشعب الانكليزي جملة هي الشعور الغريزي العميق المتأصل في نفوسهم باعتبار ما يتعارفون عليه ، ويسيرون بمقتضاه ، « اصل » ، وما سواه « بدل » أو تقليد ، ولا يرقى بحال من الأحوال الى درجة ما هم عليه . هذه حقيقة ليس من السهل اكتشافها ، وذلك لانهم في احاديثهم وكتاباتهم يلتزمون عادة أدب القول والاعتدال في الرأي ، وليس في ظاهر معاملاتهم ما يشعر الاجنبي بانهم يعتقدون انهم أرقى منه .

ولكن اذا ما اتيحت للانسان فرصة الاختلاط معهم ، والاتصال الوثيق بهم ، لا يلبث ان يصل الى هذه النتيجة .

كنت مرة جالسا أكتب بالعربية ، وكان الى جانبي صديق انكليزي تعرفت عليه ، وزالت ما بيني وبينه من كلفة ، وبعد ان انهيت الكتابة بادرني قائلا : حقا انه لطريف ان أراك تستطيع الكتابة بصورة معكوسة .. .. معكوسة ؟؟ ماذا تعني ؟ فأجابني : ألا ترى ان طريقة الكتابة الاصلية يجب ان تكون من اليسار الى اليمين ، وانت تعكس الحالة وتكتب من اليمين الى اليسار .... عندئذ قلت له : أنا أعلم انكم ، والامم الغربية جميعا تكتبون من اليسار الى اليمين ، واننا وكثير من الامم الشرقية نكتب من اليمين الى اليسار ، وان الصينيين يكتبون من أعلى الى اسفل ، ولكني لا أعلم لم تكون الكتابة من اليسار الى اليمين أصلا وما سواها طريقة معكوسة ؟ . عندئذ انتبه صاحبي واعترف بغلطته في التعبير ....

ثم ان هذا الشعور ليظهر بمظاهر أخرى أكثر خطورة إذ انه يولد فيهم حماسا وطنيا وغرورا قوميا ، هو وان كان في ظاهره أقل عنفا من غرور النازيين القومي ، وأقل جلبة من حماس شباب ايطاليا الفاشستيين ، ولكنه بجوهره وأصله لا يقل عنهما في شيء ، وما يلاحظ بينهما من اختلاف انما هو ناتج عن اختلاف بيئاتهم السياسية والطبيعية .

الحق ان الانكليزي لا يعلن ان « انكلترة فوق الجميع » كما يفعل الالماني مثلا ، ولكنه في أعماق قلبه يعتقد ذلك . فهو يؤمن بأن الشعب الانكليزي هو ارقى الشعوب ، وان الاسرة الانكليزية المالكة هي أنبل

السلالات ، وان نظام الحكم الانكليزي هو أحسن انظمة الحكم ، وان الكنيسة الانكليكانية هي خير تسوية بين الكاثوليكية الجامدة والبروتستانية المتطرفة ، وعلى العموم فهو يعتقد بأن طرائق الانكليز في الادارة والسياسة والحرب هي أفضل الطرائق . ولسنا في معرض مناقشة هذه الاعتقادات ، وتبيان نصيبها من الحق ، ولكن الذي لا شك فيه هو ان « الانكليزي الاعتيادي » يعتقد بذلك . وهذا الاعتقاد يجعله أكثر الشعوب قناعة بنظام حكمه ، وأقلهم رغبة في التجديد . ثم انه يقوى فيهم الشعور « بالاصالة » ، وان الانكليزي حيثما يكون ، يبقى انكليزيا أصيلا[1] .

يروى ان سيدة انكليزية كانت في احدى البواخر الالمانية الصغيرة التي تسيح في نهر الراين فتقرب منها بحار الماني بدين طيب القلب يقصد ملاطفتها فوجه اليها السؤال التالي :

كيف وجدت بلادنا كأجنبية سائحة ؟ فقاطعته السيدة بشدة : أجنبية ؟ ماذا ؟ أنا انكليزية ... وقد فات هذه السيدة الوطنية انها على الرغم من انكليزيتها أجنبية ، في باخرة أجنبية ، وبلاد أجنبية ، ونهر أجنبي ...

والصفة العامة الثالثة التي تميز الانكليز هي حبهم الشديد للحياة الرياضية وممارستهم للالعاب بدرجة عظيمة حتى أصبحت كلمة سبورت "Sport" تعني أكثر من كلمة رياضي عندنا . فهم يعنون بها اليوم معاني خلقية كثيرة منها طيب الشمائل ، ورحابة الصدر ، والشهامة ، وانهم يتفاخرون بما لهم من ماض في الرياضة أو الالعاب . فمن جدف في سباق القوارب بين جامعتي اكسفورد وكمبرج يحتفظ بزي التجديف الازرق طيلة حياته ، ويتوارثه ابناؤه كأحسن تراث ، ومن ينال وساما أو شارة ، أو كأسا في لعبة من الالعاب فانه ليعرض مالديه في كل سنة يوم عيد ميلاده ، مهما تقادم عهده وأمتدت به السنون ...

---

(١) ان هذا التصوير لم يعد اليوم دقيقا لان افكارا حرة ، بل ومتطرفة ، نجدها اليوم في انكلترة ، وذلك من بعض آثار التطورات الكبيرة التى اصابت المجتمع البريطانى بعد الحرب العالمية الثانية ، وفقدان الانكليز لامبراطوريتهم العظيمة ، وشعورهم بالتخلف النسبي بالمقارنة ببعض دول الغرب الاخرى حتى التى قهرت في الحرب العالمية الثانية .

ولعل الرياضة والالعاب ، هي الطريقة التي يظهر بها الانكليز عواطفهم ، فهم على العموم قليلو التكلم ، كثيرو الانعزال ، يشعر الغريب بينهم بوحشة • ولكن اذا قيض للأجنبي ان يتعرف عليهم وهم يلعبون ، او وهم يشاهدون اللاعبين في ساحات كرة القدم أو في نوادي الرياضة مثلا يجد القوم على شكل آخر • يجدهم لطيفي المعشر ، يحبون المحادثة والتعرف ، ويظهرون دعة ولطفا لا يستطيع الانسان الا ان يعجب بهما •

وقد تشاهد الشيخ الكبير قد اشتعل رأسه شيبا ، ولكنه لا يتمالك نفسه دون أن يصد كرة القدم الى اللاعبين مهما كلفه ذلك من عناء ، وانك لتشاهد السيدة الكبيرة وقد هرمت حتى لا تكاد تطيق السير دون الاستناد الى عصاها تمر بلاعبي التنس فتسعى لخدمتهم برمي ما قد يتساقط من الكرات خارج ساحة اللعب •

ان لانتشار هذه الروح الرياضية ، وتعميم مالها من آداب ، لاشك احسن الاثر في تقويم حياة المجتمع الصحية والخلقية • وحتى أصبح للاصطلاح "fair play" « اللعب الجميل » معنى اخلاقيا واسعا ، اذ يدل على الانصاف ، والصدق ، والعدل ، وما الى ذلك من مصطلحات علم الاخلاق •

هذه جملة هي أهم ميزات الانكليز العامة ، أما خصائصهم الفردية ، ونقاط القوة والضعف فيها فهو ما ارجو ان يكون موضوع حديث قادم •••

II

خصائص الفرد الانكليزي[١]

واذا ما تركنا الخصائص العامة للانكليز ، من حيث هم شعب ، وحاولنا ان نتحرى عن اهم ميزات الفرد الانكليزي ، جاز لنا ان نوجزها على الوجه التالي :

ان اول ما يمتاز به الفرد الانكليزي هو روح المثابرة ، وعدم التثبط بعد الخيبة • وكان شعارهم دائما وابدا : « حاول ثانيــة » "Try again" ولقد غرس هذا المبدأ فيهم منذ الطفولة غرسا • وعندي ان هذه الصفة هي من افضل صفات الانكليز ، وقد افادتهم فائدة عظيمة سواء كان ذلك في الحياة السياسية او الاقتصادية او العلمية او غيرها • ان روح المثابرة هي التي مكنت اســحق نيــوتن ، وجيمس واط ، وداروين وكثيرين غيرهم من انجاز اختراعاتهم العظيمة ، فقد عملوا اياما وشهورا وسنين طوالا دون كلل او ملل حتى بلغوا غايتهم • ثم انها « روح المثابرة » هي التي مكنتهم من اكتشاف

---

(١) على الرغم من الاشارة الى هذا الحديث في آخر الحديث السابق فان السلطات المشرفة على الاذاعة العراقية حينذاك لم تسمح باذاعته لانها اعتبرت النقد الذى وجهته للفرد البريطانى فى آخر هذا الحديث غير منصف ، « وليس من المعقول ان يوجه الى حلفائنا الانكليز نقد وهم يحاربون الاعداء » •• وفي الوقت الذى منع هذا القول المعتدل الموضوعى فى بغداد كان الانكليز فى بلادهم يقولون عن انفسهم ، وفى زعمائهم ما يشاؤون ••• ولعل ذلك كان من اسباب انتصارهم آخر الامر ، لانهم كانوا يملكون الجرأة الادبية ، والحرية الفكرية والسياسية التى تبصرهم بواقعهم ••

القارات الجديدة وركوب البحار والتوغل في مجاهل افريقية ، وقمم جبال الهمالايا • ثم انها « روح المثابرة » وعدم اليأس والصبر هي التي مكنتهم من تحقيق مآربهم السياسية في كثير من الحالات[١] •••

والميزة الخلقية الثانية التي تشاهد بجلاء هي الاستقامة الفردية بصورة عامة في معاملتهم التجارية ، ثم الدقة في مواعيدهم • ويستطيع الانسان ان يتبسط كثيرا في توضيح هذه الخلة الطيبة ويضرب عليها الامثال الكثيرة • ولكن الواقعة البسيطة التالية التي حدثت لي في السنة الاولى من اقامتي بينهم قد توضح هذا الأمر بعض الشيء • اشتريت مرة من مخزن بعض ما كنت محتاجا اليه • وبعد شرائه ، ودفع ثمنـــه ، عرض علي البائع ان يوصل المبيع الى محل سكناي •

ولقد ترددت اول الامر قليلا وساورتني الظنون ، وقلت في نفسي ان اقل ما يمكن ان يعمله البائع هو تبديل ما اشتريت بشيء آخر ادنى منه قيمة • ولكني تجاه عرضه اللطيف المهذب وافقت على طلبه • وكم كانت دهشتي حينما عدت الى البيت فوجدت الشيء ذاته قد وصل مغلفا باناقة وفي الوقت الذي حدده لايصاله بدقة • فادركت مع نفسي ان لا مجال لشكوكي واوهامي التي كان مرجعها ما كنت احمله معي نتيجة سوء معاملة بعض الباعة واصحاب الحرف في بلادي • وبعد ان مرت السنون ادركت ان العادة الجارية هنا هي ان الباعة يوصلون الاشياء بامانة وفي اسرع وقت الى مساكن زبائنهم[٢] •

والميزة الشخصيةالثالثة التي تميز أكثر أفراد الشعب الانكليزي هي الواقعية "Realism" فالفرد الاعتيادي على العموم واقعي لا يترك لنفسه

---

(١) لاشك ان هذه الروح قد تجلت اثناء الحرب العالمية الثانية وبعد نكبتهم في « دنكرك » بصورة تدعو للاعجاب • وفي ذلك عبرة لمعتبر •

(٢) من الملاحظ ان صفة الامانة هذه لم تبق بنفس الدرجة على ما كانت عليه • هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان ايصال المبيع الى مسكن المشترى عادة مطبقة اليوم فى اكثر انحاء العالم ، بل هى جارية – وعلى مستوى لا يختلف كثيرا عما هو مطبق فى انكلترة – فى العراق ايضا •

عنان الخيال يسبح في فضائه اللانهائي ، وهو يلتزم في شؤون الحياة عامة المسائل الملموسة والمحسوسة بالفطرة • ثم انه ، على العموم سيء الظن بالمنطق ، ولا يفقه من الفلسفة الا ما تمليه عليه حواسه الظاهرة • وهو في تنكره للنظريات والفلسفات يعشق ما يسمونه بلغتهم « الأحساس العام » "Common Sense" ويريدون بذلك كل ما تمليه الفطرة السليمة ، دون تعمق او تفلسف •

ولعل القصة الخيالية التالية تبين بجلاء صفات الانكليزي وطراز تفكيره ، بالمقارنة ببعض الشعوب الاوربية الاخرى • يروى انه في مجلس صغير ضم اربعة اشخاص مثقفين ، احدهم فرنسي ، وثانيهم الماني ، وثالثهم بولوني ، ورابعهم انكليزي ، طرح عليهم شخص ان يزودوه بالمعلومات عن الفيل الذي كان قد سمع به ولكنه لم يره من قبل ، وضرب لهم أمدا لا يخلفونه • تفرق هؤلاء الاشخاص الاربعة كل متول وجهة خاصة هو موليها •••

ذهب الفرنسي الى المكتبات يدرس ما قيل عن الفيل في الادب الفرنسي ، وما كتب عنه من قصص ، ثم اردف ذلك بزيارة معارض الفن واطلع على ما فيها من صور للفيل جمعها في رسالة خاصة عنوانها : « الفيل في الفن الفرنسي » •

اما الالماني فقد ذهب الى المكتبات العلمية يدرس ما كتبه العلماء عن الفيل وما يتعلق بحياته وطرق تناسله ، ومقدار ما يعمر ثم يجمع الاحصاءات العديدة حول المقدار الموجود منه في العالم ، وما الى ذلك من بحوث علمية صنفها في كتاب عنونه « مقدمة في علم الفيل » •

أما البولوني فقد ذهب الى بلاده ليتحرى ما قيل أو كتب عن الفيل مما له مساس في حياة البولونيين ، وكفاحهم القومي • جمع ذلك كله في رسالة عنونها « الفيل والقضية البولونية » •

أما الانكليزي فتأهب للسفر وتوجه توا الى الهند ليرى الفيل هناك ، وصار يتنقل من محل الى آخر في آسية وافريقية واسترالية وكل الممتلكات البريطانية الاخرى ، ليشاهد الفيل بعينه • وبعد ان فرغ من

اسفاره كتب رسالة عنوانها « الفيل في الامبراطورية البريطانية » ، ضمنها واقع مشاهداته وتجاربه الخاصة .

ان هذه القصة الخيالية تفيد ـ جملة ـ في تصوير كل من هذه الشعوب وطرائق تفكيرها ، وتشير الى الخصائص العامة التي تمتاز بها كل امة ..

بعض نقاط الضعف في الفرد الانكليزى

اما نقاط الضعف في الفرد البريطاني فهي كما ـ تبدو لي ـ يمكن اجمالها على الوجه التالي :ـ

١ ـ ضعف الخيال . وهذا لا شك نتيجة من نتائج الواقعية التي امتاز بها الشعب البريطاني . ثم انهم جملة اقل كفاءة في الفنون من الشعوب اللاتينية ولذلك قلما نجد مصورا ذائع الصيت أو نحاتا مشهورا ، او فنانا مبرزا في زخرفة البناء ، كما نجد ذلك لدى الفرنسيين والايطاليين مثلا . وليس من مجرد الصدفة اننا نشاهد معظم كبار الموسيقيين من الالمان والبولونيين والروس وغيرهم من الشعوب الاخرى ، حين يندر ان نجد مؤلفا موسيقيا انكليزيا يقف الى جانب عظماء الموسيقيين العالميين ...

وكنتيجة لضعف الخيال ، وفتور العاطفة ، يشعر الاجنبي ان الانكليزي متبلد الحس وكانه خلو من العاطفة . فقد يسافر الانسان في قطار وبجانبه في عربة القطار شخص آخر فلا يتحدثان ، وان امتدت السفرة ساعات طوالا . وقد يسكن شخصان في دار واحدة او في عمارة واحدة كل في طابق ، ويبقون مدة طويلة جدا على هذا الحال دون ان يسعى اي منهما الى التعرف على الآخر ، او ان يحييه على الرغم من التقاءاتهما المتكررة . وهذه الصفة السلبية هي اشد ما يعاني منه الاجانب اذ انها تشعرهم بالغربة المؤلمة والوحدة الموحشة ، على الرغم من وجود الكثيرين من حولهم . على انه حين تتحقق صلات الود والتعارف مع الانكليزي يجد الاجنبي منهم ادبا جما ، وميلا لمساعدة الغير تزيل كثيرا من آثار النقمة التي يكونها للوهلة

الاولى بسبب مايبدو به الفرد الانكليزي الاعتيادى من عدم اكتراث بالغير[١].

ولعل نقطة الضعف البارزة الاخرى في خلق الفرد الانكليزي هي الظاهرة التي تجعلهم يبدون ، في احيان كثيرة ، بمظهر الانسان الذي تعوزه الصراحة .

ان هذه الصفة جعلت الفرنسيين ، وبعض شعوب القارة الاوربية الاخرى يتهمون الانكليز بالنفاق . وعلى الرغم مما في التعميم من قسوة فان الاجنبي حين يبصر الانكليز يتحدثون عن امر يشعر بشيء من هذا القبيل .

اما سبب ذلك فقد يكون الافراط في ادب الحديث الذي انشئوا منذ طفولتهم عليه ، وروضوا انفسهم جيلا بعد جيل برياضته . وقلما تجد انكليزيا يقول لشخص آخر انه خاطيء في رأيه ، هذا على الرغم من اعتقاده بهذه الحقيقة[٢] . واحسب ان الكثيرين من العراقيين ما يزالون يذكرون الطريقة التي كان يتبعها بعض من بلوناهم في بلادنا من المستشارين والمفتشين ، والاختصاصيين ، تلك الطريقة التي كانت تعرف بطريقة : « نعم ولكن yes but » ، وخلاصة هذه الطريقة هي انه حين يعرض عليهم امر لا يرضون به يوافقون عليه مبدئيا او على الاصح يتظاهرون لفظيا

---

(١) لقد تغيرت ، لحد ما ، وضعية الفرد في هذه الناحية نتيجة للحرب من جهة ، وصيرورة انكلترة بلدا سياحيا يفد اليه الاجانب بالملايين كل عام . وكثرت المطاعم والمقاهى على غرار ما يشاهد فى القارة الاوربية ، وصار الانكليزى الاعتيادى محبا للكلام ميالا للتعارف ، ونما جيل جديد قاري الطبع ، قارى في الكثير من مثله ، واساليب عيشه ، وطرق تفكيره . وعلى العموم توشك انكلترة ان تخرج من عزلتها التى فرضتها الطبيعة عليها من قبل ، ونماها الشعور بحب الانعزال ، والتعالى قرونا عديدة .

(٢) لقد عبر عن هذه الخلة بصيغة ذكية جورج مايكس مؤلف الكتاب الطريف الذى لا يخلو من مبالغات والمعنون « كيف تكون اجنبيا »

How to be an alien. by George Mikes

حين قال : ان الناس في القارة الاوربية اما ان يقولوا الحق او انهم يكذبون ، ولكن فى انكلترة قلما يكذب الناس ولكنهم لا يحلمون ان يقولوا الحقيقة .

In England they hardly ever lie, but they would not dream of telling you the truth.

بهذه الموافقة ، ثم يسعون لتحطيم تلك الموافقة بالاستثناءات العديدة والتحفظات الشديدة التي يضيفونها مما يحيل المسألة آخر الامر الى رفض تام •

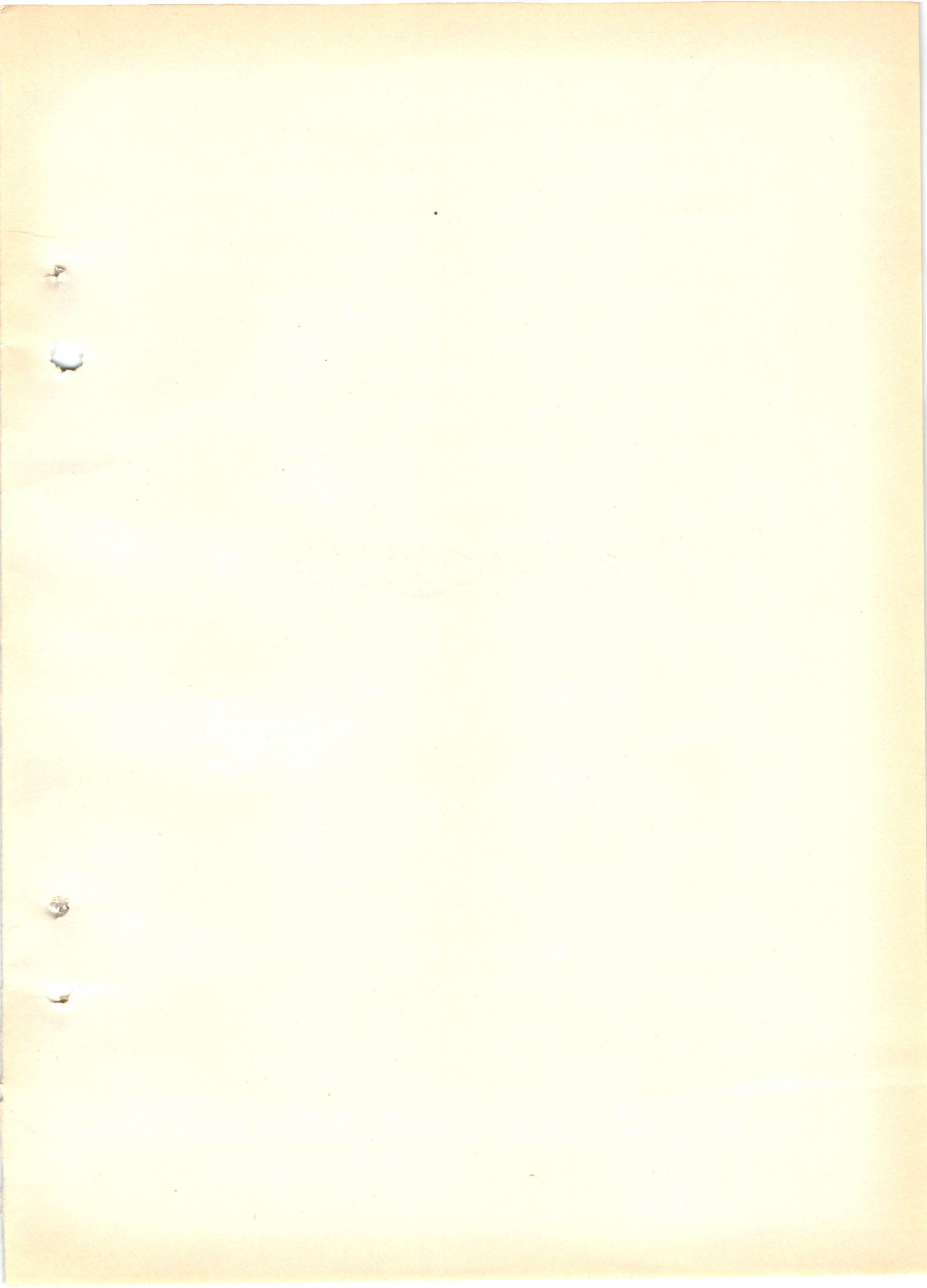
وقد يكون هذا السلوك ناتجا عن افراط البريطانيين في تطبيق مايسمونه في لغتهم بالتسوية أو الحل الوسط Compromise ويسعون فيها دائما الى التوفيق بين الاشياء المتعارضة • ان الانكليز يعشقون هذا الاصطلاح ، وقد افادوا منه في السياسة فوائد عديدة ، والذي اخشاه انهم يفرطون احيانا في استعمال التسوية التي لا شك ان مرجعها الأصلي حب الانصاف ، والاعتقاد بان لكل قضية وجهين او وجوه عديدة قد يمكن التوفيق بينها • وقد يكون مرجع هذه الصفة غلوهم في تطبيق القاعدة الخلقية التي يؤمنون بها والقائلة اعطي وخذ Give and take وهذا المبدأ في الحياة العلمية والمسائل الاعتيادية مفيد • ولكن الخطر يتأتى حين يغلو المرء في تطبيقه ، وحين ينسى ان هناك اشياء لا تقبل التسوية بطبيعتها ، وان هناك امورا لا يمكن فيها الجمع بين الاخذ والعطاء •

وقد يكون مرجع هذا حبهم لما يسمونه بالمعقول "reasonable" بحيث نراهم يستعملون هذا اللفظ بافراط صفة لاشياء عديدة • الرجل المعقول ، والشرط المعقول ، والظرف المعقول ، والسعر المعقول ، والتصرف المعقول •

وعلى العموم تغلب على الانكليزى صفات التاجر ؛ واقعي في نظرته ، محدود في ثقافته ، مؤدب في حديثه ، ميال الى الاعتدال والحلول الوسط التي تحقق النفع ، وتبقى الصلة موصولة بالآخرين •

هذه جملة اهم ميزات الفرد الانكليزي ونواقصه كما شاهدتها في بلادهم • واحسب اني في غنى عن تكرار القول بان هذه آراء شخصية ، وهي بطبيعة الحال عرضة للخطأ والصواب • انها تعميمات قابلة لكثير من الاستثناءات • ويكفينا ان نتذكر على سبيل المثال اننا حين نقول ان الانكليز مقلدون محافظون فان هناك بين نوابغ الانكليز احرارا مجددين ومفكرين ثوريين قد لا نجد لهم نظراء في الاقطار الاخرى امثال برنادشو ، وويلز ، وهكسلي ، وكثيرين غيرهم •

نظرات في حياتنا الاجتماعية



عدم التناسق الاجتماعي[١]

تمهيـــــد

تسود مجتمعنا العراقي اليوم مظاهر عديدة ليس من السـهل ارجاعها الى أصول موحدة ، ولا الى اسباب قابلة للحصر ؛ ذلك لأن العوامل المؤثرة في تكوين حياتنا الأجتماعية تكاد لا تحصى ؛ فبعضها عريق مــوروث ، وبعضها حديث مكتسب ، وبعضها تقليد ظاهر ، وبعضها اقتباس موفـق ، ومنها ما يرجع الى عوامل تاريخية ، ومنها ما يعود الى اسـباب طبيعيـة وجغرافية ؛ بل منها ما يرجع الى اسباب اقتصادية وسـياسية ، ودينية ، وخلقية ، باوسع ما في الاقتصاد والسياسة والدين والاخلاق من معان ٠

ولست اقصد بحال ان اتحدث اليكم عن نصيب كل من هذه العوامل ، وأثر كل من تلك الاسباب ، في تكوين مجتمعنا العام ٠ ولكن الذي اريده في هذا الحديث ـ وفيما يعقبه من احاديث في الاسابيع القادمة ـ هــو ان اعرض على حضراتكم بعض المظاهر الاساسية التي تطبع مجتمعنا بطابعهـا العام كما تظهر لي ٠ واحسب ان تغيبي عن هذه البلاد العزيزة بضع سنوات تعرفت فيها الى حياة اجتماعية اخرى ، لها طابعها وميزاتها ، قد تسـاعدني على تكوين رأي صحيح وحكم عادل ـ او على الاصح ، حكم قريب من العدل ـ في تقـدير ما في حياتنا من قوة او ضعف ، وما في تقاليـدنا من

---

(١) القى هذا الحديث من دار الاذاعة العراقية في بغداد في ١٦ حزيران ١٩٤٠ ٠

خصائص الخير او الشر ••• وارجو ان اوفق في احاديثي هذه الى تشخيص مواطن الوهن في مجتمعنا ، كي يستطيع كل منا القيام بقسطه في الاصلاح • ومن المؤكد ان كل فرد منا يستطيع ان يقوم ببعض الشيء في هذا السبيل لكي توفق الهيئات المختصة بمعالجة شؤوننا الاجتماعية من الالتفات اليها ، والاخذ ببعضها ، بقدر ما تعتقده فيها من حق ، وبالقدر الذي هي موفقـــة اليه • وليست وزارة الشؤون الاجتماعية ولا كل الوزارات بل ولا كل سلطات الدولة بقادرة على تخليصنا مما في المجتمع من نقائص ، وما فيه من علل وآفات ، ما لم يقم كل فرد منا بقسطه ، وما لم يتعاون الشـــعب مع الحكومة ، وما لم يستمر هذا التعاون باخلاص زمنا طويلا • ذلك لان بعض الادواء قد اصبحت مزمنة يحتاج علاجها الى صبر عظيم وحذق كبير ؛ وان بعض العادات الاجتماعية الفاسدة قد غرست في مجتمعنا منذ اجيال بعيدة ، فتعمقت جذورها ، وانتشرت جراثيمها ، ولا بد لاجتثاثها والقضاء عليها من جلد ومثابرة ••••

مظاهر عدم الانسجام

ولعل اول ما يسترعي نظر البصير في مظاهر حياتنا الاجتماعية العامة ، هو البلبة وعدم الانسجام في مختلف نواحي الحياة • ان عدم الانسجام هذا ليس مقصورا على اعراض الحياة الخارجية بل انه ، في الحق ، متغلغل في صميم الاشياء ، وشامل لجوهر الحياة ومقوماتها الاصيلة • ولا احسب اني بحاجة الى تعداد كل مظاهر هذا التبلبل في كل نواحي الحيـاة ؛ ولكنني ساكتفي بضرب بعض الامثلة على سبيل الاســـتطراد ، واترك لحضراتكم التفكير في البعض الآخر • ولا احسب ان احدا منكم سيعجز عن ذكر امثلة كثيرة أخرى غير ما انا ذاكر •••

لنفكر قليلا بسكان العراق ـ والسكان لا شك هم أول ما يجب ان تعنى بهم الدراســة الاجتماعية ـ ولنتصور الآن العراق ، العراق بكليته ، من اقصاه الى اقصاه ؛ من شماله الى وسطه وجنوبه ، ومن جباله الى وهاده وصحاريه ، بمدنه وقصباته ونواحيه وقراه ، وبحاضرته وباديته واهواره ؛

ثم لنفكر ـ ولو قليلا ـ بأساليب عيش ، ووسائط سكنى ، وازياء ، وعادات ، وثقافات ، سكانه جميعا • ثم لنجهد انفسنا في تصنيف ما نشاهد بعد هذا العرض ، واستخلاص النتائج مما يتضح لنا بعد هذا التصنيف •••

ألسنا نرى اختلافا شاسعا وبونا كبيرا بين سكان هذا القطر الواحد الذي نسميه العراق ؟؟ ألسنا نشاهد فيه البدوي البسيط بكوفيته وعقاله ـ الذى هو عقال بعيره ـ وثوبه الخشن الفضفاض ؛ ذلك البدوي الذي ما يزال يقتات على ما تدر به عليه ناقته ، ويأوى حيث يقتاده جمله ، وهو بعد ذلك لا يملك من حطام الدنيا فوق هذا شيئا ، وهو لا يعلم عن العالم امرا غير ما تمليه عليه حياة الصحراء ، وطبيعة الصحراء ـ اللهم الا ما قد يقتبسه عرضا من زيارته ، من حين الى حين ، لمدينة او قصبة ـ ونجد الى جانب البدوي البسيط ، الحضري المستغرب ـ ان صح هذا التعبير ـ بزيه الافرنجي الحديث وبأناقته التامة ، وباستمتاعه بكل اسباب المدنية المادية ؛ في لباسه ، ومسكنه ، وطعامه ، ووسائل جده وهزله ، وبعبارة اخرى : انه يعيش كما يعيش الناس في اوربا وامريكا • وبين هذين ؛ (البدوي البسيط ، والحضري المستغرب) ؛ اشتات من الناس والازياء وطرق العيش ؛ اصناف لا تكاد تحصى تستطيع ان تجعل من مجموعها صورة لسكان عالم لا لسكان قطر واحد •••

على اننا اذا تركنا البدو والبادية ورجعنا الى الحاضرة ؛ الى المدن والقصبات ، تراءت لنا مظاهر البلبلة وعدم الانسجام جلية في هذه الناحية ايضا • لننظر الى سكان المدن من حيث الكمية اولا ؛ نجد انه بينما تكاد نفوس بغداد تشارف نصف المليون[1] ـ وهي بذلك حرية ان تعد من مدن العالم الكبرى ـ لا نجد الى جانبها نفوس أية مدينة أخرى تبلغ مائة الف ولا قريبا من ذلك • فاتساع العاصمة في المساحة ، وازدياد عدد سكانها بهذه النسبة العظيمة امر غير مرغوب فيه من النواحي الاقتصادية ، والاجتماعية ، والحربية ايضا •

---

(١) كان ذلك يوم كتبت هذه الكلمة وهى اليوم اكثر من ثلاثة اضعاف هذا العدد •

ان هجرة سكان القرى والارياف الى بغداد امر يجب ان يعالج بسرعة وبشدة . ولما كان العراق قطرا زراعيا بطبيعته فليس من المصلحة ، والحالة هذه ، ان يترك الافراد حقولهم ومزارعهم فيتعطلوا عن الانتاج المفيد ليملأوا شوارع بغداد ومقاهيها باسراب من العاطلين وانصاف العاطلين ...

بغداد انموذج لعدم الانسجام

وعلى ذكر بغداد أليست هي بنفسها مظهرا قويا من مظاهر الفوضى وعدم الانسجام وعدم التناسق في شوارعها ودورها وعماراتها ، وفي وسائل مواصلاتها وفي كثير مما فيها ؟ فشارع الرشيد مثلا يمتد بضع كيلو مترات ، على جانبيه اعظم العمارات والبيوت التجارية ، ولا تكاد الحركة فيه تنقطع ليلا أو نهارا ، وتبلغ الضوضاء فيه والجلبة التي تحدثها وسـائل النقل ووسائط المواصلات حدا يثير اعصاب اكثر الناس ، حتى ليخال الانسان نفسه في اكثر الاقطار الاوربية ازدحاما ؛ بينما لا تجد في بغداد من الجهة الاخرى اي شارع آخر يوازي ذلك الشارع او يقرب منه من حيث السعة والأهمية[1] .

ان هذا الوضع الغريب جعل بعض السائحين من الغربيين يسمي بغداد ، بسخرية لا تخلو من حق ؛ « مدينة الشارع الواحد » ... كما حدا وضع مدن العراق بآخرين من الغربيين ان يسموا العراق قطر « المدينة الواحدة » وذلك اشارة الى عدم وجود بلدة في العراق عدا بغداد حرية ان تسمى مدينة ؛ من حيث السعة ووسائل العمران ...

فوضى المواصلات

واسباب المواصلات في بغداد والعراق بصورة عامة هي الاخرى مظهر حسن ـ ان جازت صفة الحسن هنا ـ لهذه الفوضى في حياتنا الاجتماعية .

---

(١) من الطبيعي ان هذا القول لم يعد دقيقا اليوم بعد ان فتحت شوارع جديدة ، وانتقلت معظم المخازن الكبيرة الى الجهة الشرقية من بغداد خاصة .

فبينما نجد مثلا وسائط النقل الخصوصية قد بلغت في الاتقــان والجمال والراحة حدا يفوق مثيلاتها في مدن الغرب الكبيرة كلندن وباريس وبرلين وغيرها ، نجد من الجهة الاخرى ان وسائل المواصلات العامة ـ الباصات ـ غاية في القذارة والقبح والخشونة[١] • وما يصح قوله في المواصلات داخل المدن ، يصح الى حد كبير بشأن المواصلات بين المدن ايضا • ان قطار الدرجة الاولى عندنا لا يختلف من حيث الراحة والانتظام عن قطار الدرجة الأولى في ارقى البلاد الغربية ، ولكن قطار الدرجة الثالثة ـ الدرجة التي تسافر بها الاكثرية الساحقة من اهل البلاد ـ لا يختلف الا قليلا عن قطارات الحمل في الخارج ••••

عدم الانسجام الاجتماعي

ليست مظاهر عدم الانسجام هــذه مقصورة على ما ذكرت ؛ بل انها شاملة لنواحي اخرى اعظم خطرا واكبر اهمية ؛ ففي الحالة الصحية وفي الثقافة العامة ، وفي مستوى التعليم ، نجد البون شاسعا بين افراد هــذا المجتمع ، بل اننا لنجد الخلاف عظيما في هــذه النواحي حتى بين افراد الاسرة الواحدة • ثم ان اختلاف مستوى ثقافة المرأة عن مستوى ثقافــة الرجل ، وافراط بعض الناس في تعليم ابنائهم وتفريطهم في تعليم بناتهم ، أدى الى أشــد الارتباك والتنافر في الحياة العائلية[٢] كــل هــذه القضايــا تستحق كثيرا من العناية • ولكني اشعر ان الوقت المخصص لهذا الحديث لا يتسع الى الاسهاب •

تحقيق الانسجام ضرورة قصوى

ولكني قبل ان اتم حديثي هذا اود ان أؤكد امرا واحدا وهو ان العمل على تناسق افراد المجتمع ليس ضربا من ضروب اللهــو بل انه قد اصبح

---

(١) كان هذا قبل انشاء مصلحة نقل الركاب •

(٢) تحسن الوضع في هذه الناحية لحسن الحظ خلال الربع قرن الماضي •

ـ خاصة للشعوب الحديثـة المتيقظة ـ ضرورة لازمـــة ، وامرا لا يمكن الاستغناء عنه ، في تكوين مجتمع صحيح •

والحق ان الاختلاف بين طبقـات المجتمع الواحـد في طرق العيش ، وأساليب السكنى ، والازياء والثقافة ، أمر لا بد منه في كل المجتمعات وفي كل العصور ، ولكنه لا يصل بحال من الاحوال الى ما هو عليه اليوم في العراق • وان جاز لنا ان نستعير تعبيرا من المناطقة قلنا ان الخلاف الموجود بين طبقات الشعوب الراقية في تلك النواحي انما هو اختلاف في الدرجـة ، بينما هو عندنا يكاد يكون اختلافا في النوع • ففي اوربا مثلا نجد الى جانب القصر الفخم في الريف الكوخ البسيط • ولكن هـــذا الاختلاف ليس كالاختلاف بين البدوي المتنقل في الصحراء وساكن القصر المنيف في المدن في بلادنا ، وهكذا الحال في النواحي الاخرى •

ويجب ان لا يظن احد ان هذا التباين بين طبقات المجتمع ، وأسباب عيشهم مما لا يمكن تغييره او على الاقل تهذيبه والتخفيف من حدته • ان الواقع المحسوس في العالم المتمدن يدلنا على ان ذلك ممكن واننا اذا ما صحت منا العزائم ، وصدقت الجهود ، قادرون على ان نقوم في هذا الصدد باشياء كبيرة • ولدينا اليوم من وسائل العلانية والتوجيه والتدخل في حياة الافراد ما لم يكن متيسرا في الازمان السابقة • ولا بد لنا من استخدام تلك الوسائل ، واصطناع كل الاساليب الحديثة التي تمكننا من توجيه مجتمعنا توجيهـــا صحيحا وجعله متناسقا ومتقاربا في ذوقه وثقافته وطرق عيشه ، وقبل ذلك متساويا في حقوقه العامة •

وحري بنا ـ قبل كل شيء ـ ان نوقـن بأن على هـذا التجـانس والانسجام يتوقف مصير مجتمعنا كله ، وانه كلما زاد التقارب بين طبقات المجتمع ، وقل التفاوت ازدادت قدرتنا على البقاء ، وعظمت قوتنا في مجابهة الاحداث ، واتسعت امامنا آفاق الحياة الحرة السعيدة •

الفقر الثقافي[1]

كنت قد تحدثت اليكم في الاسبوع المنصرم عن بعض مظاهر حياتنا الاجتماعية بالاجمال ، واشرت الى كثير من الاسباب والعوامل العديدة المؤثرة في تكوين بيئتنا الاجتماعية ، وكنت قد اسهبت في الحديث عن مظاهر عدم التناسق التي تطبع حياتنا الاجتماعية بطابعها الجلي •

فقرنا الثقافي

وأود في هذا الحديث ان اوجه انظاركم الى ناحية اخرى من نواحي حياتنا الاجتماعية ؛ الى ناحية تتعلق بالجوهر لا بالعرض ، وتتغلغل في صميم الحياة ولا تقف عند مظاهرها ، وأعني بهذا « الناحية الثقافية » •

واول ما يلاحظ في هذا الصدد هو فقر مجتمعنا في هذه الناحية افتقارا عظيما ، مما يجعل المستوى الثقافي العام في بلادنا في درجة واطئة ، ويجعلنا بامس الحاجة للاستزادة من الثقافة بشتى انواعها ، والسعي لرفع مستوى البلاد الثقافي لكي نصل الى سوية الدول المتمدنة الراقية • ومما يلاحظ جليا في هذا الصدد شيوع الاصطلاح الخاطيء لمفهوم « الثقافة » وما يقصد منها ، بين اكثر افراد هذا المجتمع ••••

---

(١) القى هذا الحديث من دار الاذاعة العراقية في بغداد في ٢٥ تموز ١٩٤٠ •

معنى الثقافة

ولعل من المفيد ان أبدأ حديثي هذا بتحديد المعنى الحقيقي لكلمة « الثقافة » وبتعريف من يحمل « لقب المثقف » بجدارة واستحقاق . واول ما يجب ان تتنبه اليه هو ان الثقافة ليست مرادفة لكلمة التعليم ، وليس لقب المثقف مقصورا على خريجي المدارس العالية او حاملي شهادات الجامعات . وفي الحق ان بين الكثيرين من خريجي المدارس العالية وحاملي الشهادات الجامعية من هم غير جديرين بأن يمنحوا هذا اللقب العظيم ، وفي الحق ايضا ان هناك كثيرا من الناس من غير خريجي المدارس العالية ، بل من الاميين الذين لا يحسنون القراءة والكتابة من هم اهل لان يعدوا من المثقفين . وقديما قال احد كتاب الانكليز الظرفاء (ان القراءة والكتابة ومعرفة الرياضيات لا تكون الثقافة ، كما ان السكين والشوكة والملعقة لا تكون الغذاء) فليست القراءة والكتابة والدراسة بمختلف درجاتها الا بعض وسائط التثقيف ، وهناك غير هذه الوسائط ، من دون شك ، وسائل اخرى عديدة تكون بمجموعها الرجل المثقف ، وذلك اذا اجتمعت لنفس حرة ، وتهيأة لفطرة سليمة ، واضاءة قريحة ذكية ....

ليس الغرض الاسمى من التعليم تزويد المجتمع باطباء ومحامين ، ومهندسين ، وكيميائيين ، ومعلمين ، وضباط ، ورجال دين ـ أو ما شئت من المهن الحرة الاخرى ـ ولكن الغرض النهائي هو تهيئة رجال مثقفين بكل ما في الرجولة والثقافة من معان .

من يستحق صفة المثقف

وعندي ان الانسان لا يستحق ان ينعت بهذا الوصف الا ان يكون له ، أولا ، المام شامل ومعرفة عامة بكل الافكار والنظريات الاساسية في العلوم والفنون والاداب ، وبعبارة أخرى لا بد له من ادراك صحيح لمقومات الحياة المادية والأدبية واطلاع على أسسها سواء أكانت تلك المقومات اجتماعية أم سياسية أم اقتصادية أم علمية أم أدبية أم فنية أم دينية أم فلسفية ...

هذا من جهة ومن جهة أخـرى فانه لابد ان يكون مختصا وذلك بأن يختار من هذه النواحي العلمية أو العقلية أو الادبية ناحية خاصة ينصرف اليها دون سواها، ولايكتفي منها بمعرفة الاوليات بل عليه ان يتعمق الى أقصى الاغوار الممكنة ، وان يتقن كل ما يمكن اتقانه في تلك الناحية ، وما يتعلق مباشرة بها ، وان يجعل له من تعقب تلك الناحية غاية يجد في السير حيالها كل لذة واستمتاع ...

فلا بد اذن للمثقف من هذين العنصرين : المـام بمختلف نواحي الحياة ، واتقان لناحية من تلك النواحي . فيجعل العنصر الاول نظرتـه للاشياء المحيطة به صحيحة ، وتكون آفـاق الحياة أمام عينيه متسعة ؛ فيجد المرء في حديثة طلاوة الاديب ، ويبصر في نظراته بريق الثقافة ، ويلاحظ في سلوكه سيماء النضج . ويمكنه العنصر الثاني من ادراك أعمق اسرار هذا الـكون وأدق خفاياه ـ في ناحية معينة على الاقل ـ ويجعله في مصاف العلماء المتبحرين الذين لا يستغنون بالظواهر عن الحقائق ، ولا بالقشور عن اللباب .

الشك العلمي الموصل الى اليقين ديدنهم ، والـكشف عن الحجب وتحطيم الاوهام دأبهم ، والتحري عن المعرفة والحق غايتهم التي قد وهبوا لها انفسهم ...

هل لدينا مثقفون ؟

بعد هذا التمهيد ، وهذا الشرح والتعريف للثقافة والمثقف ـ وليس في هذا التعريف غلو أو افراط ـ لنسأل أنفسنا كم عدد المثقفين بين أفراد مجتمعنا ؟ وكم عدد الذين لهم هذه النظرة الشاملة البصيرة بين بني قومنا ؟ بل كم مقدار الذين انصرفوا الى اتقان ناحية من نواحي المعرفة الانسانية وبذلوا في سبيلها بعض ما يفعل الآلاف من مثقفي الغرب ؟ ...

فاذا اشترطنا لان نعد الشخص مثقفا نيل القصاصة الورقية التى يوجد في طرف منها صورة الشخص الفوتغرافية وشيء عن هويته ، والتي تحوي

في مضمونها اقرارا بانه اجتاز امتحان الدراسة الابتدائية ، أو الدراسة المتوسطة ، أو الدراسة الثانوية ، أو الدراسة العالية ؛ وفي ذيلها ختم رسمي وأمضاء الموظف المسؤول ؛ اللهم ان كان هذا هو دليل المثقف وهذه شروطه فان لدينا ، بحمد الله ، منهم العدد الكبير ..

ان عدد هؤلاء المثقفين (بثقافة الخبز والزبد) على حد ما يقول المثل الالماني أو عدد المثقفين من حملة الشهادات على حد تعبير صحافتنا اليومية هو في تزايد مستمر . ولكن من المؤسف والمؤلم معا ان ليس للاكثرية الساحقة ـ هذا لنتحاشى ظلم التعميم ـ من حملة الشهادات عندنا أية غاية في الحياة غير غاية التوظف في دواوين الحكومة ، وما يعقب ذلك من تأمين أسباب الحياة بالاتكال على خزينة الدولة ـ ومال الدولة في نظر العامة لا ينضب ـ ، والتمتع بجاه الوظيفة ، وجاه الوظيفة مهما صغرت في نظر العامة عظيم . ولست أقصد بهذا توجيه اللوم الى الشباب من خريجي المدارس اذ ليسوا هم وحدهم المسؤولين عن هذه الحالة . بل هنالك أسباب عديدة تضافرت كلها لجعل الحالة بهذا الشكل المؤلم ، ولكني أقرر بهذا حقيقة لا احسب ان احدا ينكرها أو يماري فيها . لا ... ليست « الثقافة » بنيل الشهادات ، ولا بالتخرج في المدارس ـ وان كانت المدارس والمعاهد بلا شك من وسائل التثقيف ـ بل الثقافة أهم من ذلك وأعلى ، انها الاستعداد الصحيح لمعرفة الحياة وكنه الطبيعة ، ومقاومة عوامل التخريب في هذا الكون ؛ وقيام الفرد بناحية تجعل ، بعد تضافرها واتصالها بجهود الافراد الآخرين ، دولاب الكون يسير سيرا قويا متزنا صحيحا ، فينتج عن قوته واتزانه وصحته الخير لافراد المجتمع جميعا .

نقص ثقافتنا

لنترك التعميم ، ولنعد للواقع المحسوس ، ولنسأل أنفسنا ماذا جنينا من ثقافتنا ؟ ماذا عملت لنا دراستنا في تحسين حياتنا الاجتماعية ؟ كم منا من يفقه شيئا عن الزراعة الحديثة وما يتصل بها من علوم ، وقطرنا زراعي ، وارضنا من أخصب بقاع الله ؟ كم منا من علم شيئا افاد به في حفر القنوات

والترع وتوزيع المياه ؟ ، وانهارنا غزيرة متدفقة تصب الماء في البحر من دون أن نستفيد منه ؛ انه والحق لثروة مهدورة ومال مضاع ، بينما أكثر أراضينا الآن صحراء تشكو الجفاف وتتمنى ان لو تصيبها قطرات الندى[1]. أولا يصح فينا قول الشاعر في هذا البيت الذي أصبح عندنا الآن أغنية شعبية كثيرا ما نسمعها .

كالعيس في البيداء يقتلها الضما   والماء فوق ظهورها محمول

كم منا من علم شيئا عن التشجير وانشاء الغابات ، ونحن في أمس الحاجة الى ذلك لنتخلص بعض الشيء من هذا الحر المحرق الذي يكاد يذيب الاجسام ويصهر القلوب ؟ وقديما كانت بلادنا تسمى السواد لشدة خضرتها ، وكثرة رياضها المحيطة بمدنها وقصباتها . بل كم منا من علم شيئا عن تحسين زراعة النخيل ومقاومة آفاته والعناية بكبس التمور وتصديرها ، والتمر أهم محصولات البلاد وأول صادراتها ؟ كم هم الذين يفقهون شيئا عن النفط ، عن الذهب الاسود كما يسميه الغربيون ، هذا المعدن الثمين في السلم والحرب ، هذا الكنز الذي حبت الطبيعة به بلادنا فكان من أهم أسباب شهرة قطرنا في العصر الحديث ، وكان من الاسباب الاساسية في طمع دول الغرب وتنافسها في السيطرة على بلادنا ؟ كم منا من يعلم كيف يستخرج هذا الزيت وكيف يكرر ويصفي ؟ وكم هم الذين يعلمون ان مئات بل الوفا من المواد المستعملة في الصناعة والزراعة والطب تستخرج من هذا المعدن الثمين ... أليست هذه ادلة كافية على فقرنا الثقافي والعلمي ، وعدم استفادتنا من العلم القليل الذي نعلمه .

أجل يوجد في بلادنا شيء من الثقافة ، وبعض العلوم ، ولكنها في الغالب مما يصح فيها الحديث الشريف « نعوذ بالله من علم لا ينفع » .

اننا نعيش الآن في عصر شديد لا هوادة فيه ولا رحمة ، ومن لم يستفد

---

(١) من المؤلم ان هذا القول لم يزل في جملته صحيحا على الرغم من اكثر من ربع قرن مضى وعلى الرغم من بعض المشاريع التى لم تأت بعد اكلها .

من كل قواه غاية الاستفادة ـ وثقافة المجتمع لا شك قوة من هذه القوى ـ لا يمكنه ان يأمن على مصيره ولا ان يرقب الغيب باطمئنان ٠

فلا بد لنا اذن ان نوجد الثقافة الصحيحة النافعة في مجتمعنا ، وان نوجه الشباب شطر الناحية العلمية المفيدة ؛ ذلك لان مجتمعنا ، بالاضافة الى فقره الثقافي العام وخطأه في ادراك مفهوم الثقافة ، قد غلبت عليه الناحية النظرية ، وطغى فيه الادب ـ بمعناه الدارج ـ على العلم ، ولا تكاد توجد لدينا صحافة علمية ولا جمعيات ومؤسسات ثقافية ، بل ولا نسمع بمحاضرات علمية عامة او خاصة غير ما يدرس في المعاهد العالية ؛ بينما نجد بلاد الغرب والبلاد الشرقية الناهضة طافحة بكل ذلك ٠ فالجرائد اليومية تعالج البحوث العلمية الدقيقة علاوة على المقالات القيمة التي تنشرها المجلات والمطبوعات الدورية التي تشرف عليها المؤسسات العلمية ، والتي تغذي بها حياة المجتمع العقلية وتنمي ثقافته التخصصية ، وتجعل الاختصاصيين على اتصال دائم بآخر التطورات والاختراعات والاكتشافات العلمية التي تخصهم ٠

أين هي المجلات والنشرات التي تجعل اطباءنا على اتصال بتطورات مهنتهم الحيوية ، وبالعلوم الاخرى التي يستند اليها الطب ؟ أين هي المجلات والنشرات التي تغذي عقول محامينا ورجال العدل والقضاء عندنا وتعرفهم بالبحوث القانونية العميقة وتمدهم بآخر النظريات القانونية في العقوبات وفي الالتزامات وفي أسباب المسؤولية المدنية وما الى ذلك؟[١] ـ ومن العبث ان يظن البعض من الناس ان النظريات القانونية جامدة لا تتطور ـ اين المجلات والنشرات التي تمد مهندسينا بأحدث الصور وآخر التصاميم وبالمخترعات التي تساعدهم على القيام بمهنتهم على الوجه اللائق ؟ بل اين المجلات الزراعية والصناعية ؟ لاشيء من ذلك أبدا اللهم الا نزر قليل مما قد يرد من الاقطار الاجنبية ٠٠

أجل لدينا جرائد ومجلات تسمى أدبية واجتماعية أو ماشئت من صفات ،

---

(١) وجدت بعض المجلات فى هذا الشأن فسدت شيئا من الفراغ فى هذه الناحية ٠

ولكننا لا نراها تنشر غالبا من القول الا ما هو معاد مكرور ، ولا تسجل من الشعر الا كلمات مقفاة موزونة مرصوف بعضها الى بعض في تكلف وصنعة ، أما الافكار ، وأما الخيال ، وأما المعاني ، فلا يكاد يوجد منها شيء • اين نجد في مجتمعنا الكاتب الذي قال عنه الفيلسوف الالماني العظيم فيختة (انه انما بعث ليقف على ما يستتر تحت ظواهر هذا الوجود من حقيقة ، ليرى هذه الحقيقة بنفسه ثم ليرينا اياها) ثم يقول (وفي كل جيل جديد تتجلى هذه الحقيقة العليا في لهجة من لهجات الكلام جديدة ، ورسالة الكاتب هي الكشف للناس عن الحقيقة بلهجة العصر الذي يبعث فيه) •

أين هو الشاعر في مجتمعنا الذي ينشدك فتحسب انشاده وحيا من السماء ، وتقرأ قصيده فيسحرك ويهز أوتار قلبك هز وترتفع به بروحك وأحساسك الى ما فوق هذا العالم المادي •

اذا الشعر لم يهززك عند سماعه فليس خليقا ان يقال له شعر

اننا ـ والحق أقول ـ في فقر مدقع في كل ناحية من نواحي حياتنا • واننا لمطالبون بسد هذا الفراغ على عجل لتنظيم المجتمع الامثل الذي نريده •

تعدد مصادر ثقافتنا
وأثره في حياتنا الاجتماعية[1]

تمهيـــد

في حديثي الاخير الذي اذعته عليكم من هـذه الدار قبل بضعة أسابيع كنت قد أرسلت نظرات سريعة حول حياتنا الثقافية ، وبعد ان حاولت اعطاء تعريف جامع مانع ـ على حد ما يقول المناطقة ـ لمصطلح « الثقافة » لاحظت في هذا الصدد ثلاث ملاحظات أساسية عامة : الاولى هي شيوع المفهوم الخاطيء لمعنى الثقافة ، والثانية هي فقر مجتمعنا الثقافي ، والثالثة هي طغيان الناحية النظرية على الناحية العملية في ثقافتنا .

ولم أزل اعتقد بأن هناك نواحي أخرى حرية بأن تتنبه اليها ، وان نتحدث عنها في هذا المجال ، وهذا ما ارجو ان أوفق اليه الآن . وبعبارة أخرى اريد أن اتحدث ـ في هذا المساء ـ عن بعض مظاهر مجتمعنا الثقافية الاخرى كما تتراءى لي ...

يجب الا تصرفنا الحرب عن الثقافة

وقبل ان أفعل ذلك اشعر اني بحاجة ملحة تدفعني الى ان أقول كلمة

---

(١) هذا هو الحديث الثالث الذى اذيع بعد بضعة اسابيع من الحديث الثانى فى هذه السلسلة .

تمهيدية هي بمثابة الرد ، أو الجواب لما قد يرد على خواطر البعض منكم من تعليق او استفهام عن قيمة هذه المواضيع وهذا النوع من الاحاديث ، في هذا الزمن المضطرب ، وفي هذا الوقت العصيب الذي لم يعد الناس فيه يصغون الى لغة اللسان ولا الى لغة العين ـ كما يقول الشاعر ـ بل الى لغة الحديد والنار ، والى ما هو اشد من الحديد والنار من القوى الفتاكة المدمرة التي ابتدعها عقل البشر الجبار ليحطم بها ما شاده ، ورفع سمكه ، من أسس الحضارة وأركانها طوال العصور المديدة ....

ولكننا ـ ونحن بحمد الله ما زلنا بعيدين عن هذه النار المتقدة ، والتي نرجو مخلصين ان نبقى في مأمن ونجاة من لهيبها ـ احرياء بأن نعلم ان ليست الحرب الا حالة استثنائية في حياة البشر وانها قصيرة الامد بالنسبة للحياة الانسانية . ولابد ان ترجع الامور الى مجاريها ، ان عاجلا او آجلا . فليس من الحكمة ، ولا من الخير ، والحالة هذه ، ان تلهينا الحرب ، واخبار الحرب والقلق من الحرب ، عن النظر الدقيق في مختلف نواحي حياتنا ، ولا ان تعيقنا عن العمل الواجب والاصلاح المرجو في مجتمعنا .

وعندي ان هذه الحرب يجب ان تكون دافعا لنا لاطالة النظر ، وزيادة العمل في مختلف حقول حياتنا الاجتماعية ، والثقافية ، والاقتصادية والصحية ، علاوة على النواحي السياسية والحربية .

بعض عبر هذه الحرب

علينا ان نتخذ من هذه الحرب عبرة « والسعيد في الخلق من اتعظ بغيره » ، فنعلم ان التنظيم الاجتماعي عنصر هام وقوة لا بد منها لمن يريد الانتصار في أي كفاح . علينا ان ندرك الآن ـ بعد ان القت الحرب علينا دروسها وما تزال ـ ان التنسيق الاقتصادي الدقيق ، وتنظيم عوامل الانتاج عاملان جوهريان في احراز الظفر الاخير ، وعلينا فوق ذلك ان نعلم ـ ان كنا جاهلين ـ ان قوة الافراد الجسمية والروحية والخلقية تكاد تكون العامل الرئيسي للفوز في هذا الصراع ...

على ان هذه الحرب على ما فيها من قسوة وشدة لم تله الشعوب

المتطاحنة نفسها ، والمعرضة بالذات لاهوالها ، عن القيام بكل الاصلاحات اللازمة في الشؤون الاجتماعية ، والثقافية ، والصحية ، وغيرها ، وليس في هذا غرابة بل الغريب الا يكون الامر كذلك ...

ان من حسنات الحرب - ومن العبث ان يظن ان الحرب شر محض - انها تحفز الهمم ، وتنفخ في الشعوب روحا جبارة ، وتحرك قوى وملكات كامنة في الافراد والجماعات ، وترهف المشاعر فيحس الناس بالنقص ، ويبصرون المعوج ، من أمور معاشهم فيعملون - بالسرعة التي تمليها ظروف الحرب - على اتمام الناقص ، وتقويم المعوج . وليس الحال على هذه الصورة في هذه الحرب فحسب ، بل كان الشأن كذلك في الحرب العامة الماضية أيضا . وفي الحق ان كثيرا من أبواب الاصلاح في النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي ظهرت في هذا العصر المتأخر في البلاد الغربية كان قد بدىء بمعالجتها فعلا وقت الحرب او على الاقل كان قد شعر بها ، ووضعت اسس اصلاحها في سني الحرب ذاتها وان ترك التنفيذ الى ان تضع الحرب أوزارها ...

وفي مجتمعنا العراقي اليوم - وقبل اليوم - نقائص لسنا نذيع سرا ان جهرنا بالاعلان عنها بل من الحق علينا ان نشير اليها ، ومن واجبنا ان نعمل جميعا على اصلاحها - فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته - ويجب علينا الا نيأس أو نتلكأ لوجود هذه النواقص في مجتمعنا ، اذ في كل مجتمع ، وفي كل زمان نواقص ، و « الحكومة الفاضلة » و « الهيئة المثالية » فرضية فلسفية لم تتحقق بعد في عالم المحسوسات . وليس العيب ان توجد في المجتمع نواقص بل العيب الا يعمل الافراد والهيئات على اتمام الناقص ، وتقويم المعوج ...

ولم أر في عيوب الناس عيبا كنقص القادرين عن التمام

فقدان الطابع الاصيل لثقافتنا

واذا ما عدنا للنظر في الناحية الثقافية فاننا لا نجد لثقافتنا طابعها الاصيل ، ولا وجهتها الصريحة ، وما يصح قوله عن العراق في هذا

الصدد يصح الى حد كبير بالنسبة لاكثر البلاد العربية الاخرى • ولسنا الآن في مجال استقصاء الاسباب التي أدت الى هذا الوضع ، ولا توجيه اللوم الى الهيئات المسؤولة عن تسيير ثقافة المجتمع ، بل لعل من الطبيعي ان تكون الحال كذلك ، بعد ان مرت البلاد في الادوار التي مرت بها ، ولكننا نريد بهذا ان نقرر حقيقة لا نحسب ان احدا يشك فيها ، هي اننا الآن في مفترق الطرق ، وان ثقافتنا ليست الا مزيجا أو خليطا من ثقافات شتى ، وان شئت فقل انها شيء ناتج أو مكون من ثقافة الشرق القديمة وثقافة الغرب الحديثة ـ ان جاز هذا التصنيف ـ على أن العنصر الحديث في ثقافتنا هو بذاته اجزاء من ثقافات عديدة • فالثقافة اللاتينية ـ ممثلة بفرنسا ـ كانت هي السائدة في الشرق الادنى قبل الحرب العظمى ، ولم يزل أثرها عظيما في بلادنا خاصة في الناحية القانونية • ويتضح هذا جليا اذا ما علمنا أن قسما كبيرا من القوانين التي ورثناها عن الدولة العثمانية كان قد اقتبس من القوانين الفرنسية ، ولا احسب ان خذلان فرنسا العسكري وتغير وضعها السياسي ، سيؤثر كثيرا في اضعاف هذه السيادة الثقافية التي تمتعت بها فرنسا في هذا الشرق الادنى • وقد نشطت بعد الحرب البلاد الانكلو سكسونية ـ ممثلة بانكلترة والولايات المتحدة الامريكية ـ لتعميم ثقافتها ، والدعوة اليها ، تستند الاولى في بث رسالتها الثقافية الي منزلتها السياسية ، واعتبارها أعظم الدول الاستعمارية ، وتسند الثانية ثقافتها بتجارتها الواسعة ، وبعوثها الدينية التي تنفق عليها بسخاء • فقد انشأت المدارس والكليات ، والنوادي الثقافية في مصر وسورية والعراق وغيرها من الاقطار العربية وازداد نشاط ما كان موجودا منها قبل الحرب ، واتخذت أساليب عديدة الاجتذاب الناس الى ثقافتها وتحبيبها اليهم • وتثقف كثير من الشباب العراقي في الكليات والجامعات الامريكية والانكليزية • ومن الطبيعي ان يتأثر هؤلاء ـ عن قصد منهم أو عن غير قصد ـ بهذه الثقافة ، او على الاصح بهاتين الثقافتين لأن لكل من الثقافة الانكليزية والامريكية مزاياها الاصيلة الخاصة بهـا •

وكان من أثر نشاط المانيا السياسي والاقتصادي وفرض ثقافتها على

الناس فرضا خلال بضع السنوات الاخيرة ان تنبه العالم لوجودها ، فاوفدت كثير من الدول الناشئة بعض بنيها الى معاهدها العلمية والصناعية العالية ، وكان العراق بين تلك الاقطار التي ارسلت البعوث العلمية الى المانيا ...

فانت ترى من هذا العرض السريع ان ما نسميه بالثقافة الغربية ليس هو في الحقيقة ثقافة واحدة ، وكان الاحرى ان يسمى بالثقافات الغربية ، اذ لكل قطر مما ذكر من أقطار الغرب خصائصه الثقافية ، بالرغم من وجود العناصر المشتركة بين مختلف تلك الثقافات . ومن الحق ان هذا العنصر العام ليس بمعدوم حتى بين ما اصطلح عليه الكاتبون : « الثقافة الغربية » و « الثقافة الشرقية » ...

وليس في تعدد مصادر ثقافتنا الحديثة أي بأس - بل لعل فيه بعض الخير - هذا بشرط ان نستطيع من صهر كل تلك الثقافات وهضمها ، وتمثلها ، وجعلها مطبوعة بطابع ثقافتنا العام . أما اذا بقيت هذه الثقافات اخلاطا متنافرة ، فانها لاشك ستزيد في تشتيت مجتمعنا ، وتضيف الى عناصر الفوضى ، وعدم التناسق الموجودة في مجتمعنا ، عناصر جديدة ، ويكون عندئذ اثم ثقافاتنا الغربية أكبر من نفعها .

يجب ان تكون ثقافتنا الغربية وسيلة لا غاية بذاتها . يجب ان تكون وسيلة لبعث ثقافتنا وتجديدها ، لا عاملا من عوامل القضاء عليها وتبديلها بغيرها . فليست مهمة من يدرس العلوم الحقوقية في فرنسان مثلا ، أو العلوم الاقتصادية في انكلترة ، او العلوم السياسية في المانيا ان يدعو الى الاخذ بالنظام القضائي الفرنسي - رغم ما في القوانين الفرنسية من طرافة ودقة - ولا الاخذ بالنظام الانكليزي الاقتصادي - رغم ما فيه من متانة واستقامة - ولا بالنظام الالماني السياسي - رغم نجاحه واحكام اسسه - بل عليه ان يفقه كيف توصل الفرنسيون الى تفوقهم القانوني ، وكيف استطاع الانكليز تأسيس نظامهم الاقتصادي على هذا الاساس المتين ، وكيف وفق الالمان الى الفوز بنظامهم السياسي . عليه ان يسعى - لا بالتقليد بل بالابداع ، وبعد الاستعانة بالماضي وبعد تقدير طبيعة الشعب وظروفه - الى ان يكون

نظامه القانوني ، وكيانه الاقتصادي والسياسي ، على أمتن الاسس ، وان يسعى بثقافته الى تشييد صرح المجتمع خير تشييد . أما اذا فتن بثقافة معينة دون سواها وآمن بنظرية من هذه النظريات المعلومة في بلاد الغرب في القانون ، او الاقتصاد ، أو السياسة ، وأخذ يدعو اليها بكاملها ، وبحماس المؤمن المتعصب ، من دون تقدير لاختلاف الطبائع البشرية ، وتباين البيئات والظروف السياسية والاجتماعية فهذا هو الضلال المبين ، وذلك هو التقليد الاعمى الذي يؤدي بالمجتمع الى الخراب والاندثار ... وتصح هذه القاعدة على كل فروع الثقافات الاخرى ، تصح في العلوم كما تصح في الآداب والفنون فليست مهمة من يدرس النثر الفرنسي الحديث أو الشعر الانكليزي في عصره الذهبي ، او القصص الروسي المبدع مثلا ، تقليد أساليب الكتاب الفرنسيين أو محاكاة شعراء الانكليز ، ولا اقتفاء أثر قصاصي الروس ولا نقل أفكارهم وأخيلتهم ، بل ليثقف عقله ، ويوسع معـــارفه ، ويغذي مشاعره بنثرهم ، وشعرهم ، وقصصهم ، ليتمكن من الاتيان ، بلسانه العربي المبين بنثر وشعر وقصص لا يقل عن نثر الغرب وشعره وقصصه في شيء .

وهكذا الشأن فيما يتعلق بالفنون الاخرى كالموسيقى والتصوير ، بل هكذا يجب ان يكون الحال حتى في العلوم الطبيعية أيضا ، رغم ما في العلوم الطبيعية من صفة عالمية يصعب معها التحديد بالزمان والمكان أو النعت بالقديم والحديث ...

فعلى من يدرس العلوم الرياضية ، قبل ان يعلم ما قام به الغربيون في هذا الشأن ، ان يدرس ما قام به محمد بن موسى الخوارزمي ، الذي أخذ الغربيون منه مصطلح « اللوكاريتم » . وعلى من يدرس العلوم الفلكية ان يعلم أولا ما قام به « البيروني » الذي يقرر عنه المستشرق الالماني « ساخو » انه أكبر عقلية عرفها التاريخ في كل عصوره » . وعلى من يدرس علم الضوء ان يعلم الخدمات الجلى التي قدمها أبو الحسن عن بن اسماعيل الجوهري الذي أهتدى العالم - ببحوثه وبحوث أمثاله من فطاحل علماء العرب - لاكتشاف المنظار ، كما تقرر ذلك « دائرة المعارف البريطانية » في مادة « ضوء » . ومن يدرس علم النبات عليه ان يعلم ما قام به ابن البيطار ،

ورشيدالدين ابن الصوري • ومن يدرس الطب عليه ان يعلم الخدمات العظيمة التي قدمها في هذا الحقل ابن سيناء ، وابن رشد ، وابن طفيل ، « صاحب كتاب حي بن يقظان » ، وابن باجة ، واضرابهم من علماء العرب في المشرق والمغرب • ومن يدرس علم الجراحة عليه ان يفقه ماقام به أبو القاسم خلف بن عبدالله الزهراوي ، ذلك الجراح العربي العظيم الذي يقول عنه الاستاذ « هيلر » : « ان كتبه كانت المنهل العام الذي نهل منه جميع الجراحين بعد القرن الرابع عشر » • هذه اسماء لعلها غريبة على أسماع الكثيرين منا ، ولكنها يجب ان تكون شائعة « مألوفة » ومعروفة حتى لدى طلاب المدارس الابتدائية • يجب ان تكون عندنا اشهر من اسماء كاليلو ، وبسكال ، ولفوازيه ، ونيوتن ، ودارون ، وباستير • انها اسماء جديرة بالخلود ، ومن أولى الناس منا بتخليدها ؟؟!

خلاصة القول :

وخلاصة ما ادعو اليه هو توسيع ثقافتنا بالورود من معين الغرب ما استطعنا الى ذلك سبيلا • وعلينا ان نعتقد ان ليس في ذلك بأس او عيب ، بل البأس والعيب في ان نتقاعس عن ذلك • ولكن علينا في الوقت ذاته ان نتمثل تلك الثقافات ، وان نتخذ منها وسائل لاحياء تراثنا وتكوين طابع ظاهر وخصائص جلية لثقافتنا • وعلينا ان ننمي في مثقفينا ، وفي مجتمعنا عامة روح الابتكار ، ويكون ذلك بتقوية الاعتماد على النفس والثقة بملكاتنا ، وتغذية عنصر الاصالة والابداع في اشخاصنا • وليس هـــذا ضربا من ضروب المستحيل ، اذ لسنا أقل كفاية جسمية او عقلية من أعظم شعوب هذه الدنيا وارقاها • وكل الذي نحتاج اليه هو اتباع الأساليب الحديثة – وان شئت فقل القديمة لان العرب كانوا قد اتبعوها من قبل – في البحث العلمي المتقن ، والتحري المستمر المنظم • ولابد لذلك أيضا من ترويض انفسنا على الصبر والمثابرة والتضحية في سبيل المعرفة كما يصبر ويثابر ويضحي الغربيون اليوم •••

فان اتبعنا ذلك ، فنحن دون شك ، بالغون الهدف ، ومجزيون عن أعمالنا •••

مظاهر الحياة الاجتماعية في القرى[1]

تمهيـــــــد :

كنت قد عالجت في احاديثي السابقة تحت هـذا العـنوان الكبـير ـ نظرات في حياتنا الاجتماعية ـ بعض مظاهر حياتنا العامة ، من اجتماعية وثقافية ، وبينت ما فيها من خصائص القوة والضعف ، واشرت الى ماهى محتاجة اليه من وسائل الاصلاح وعوامل التجديد . واريد ان اتحدث الى حضراتكم في هذا المساء عن ناحية أخرى حرية بالعناية والاهتمام . أود ان اتحدث اليكم عن القرية ، وحياة القرويين في بلادنا . والسبب المباشر الذى دفعني لاختيار هذه الناحية موضوعا لحديثي في هذا الاسبوع ، هو عودتي حديثا من جولة موفقة في بعض ربوع العراق تمكنت خلالها من زيارة بعض القرى والارياف النائية ، ووفقت الى الاطلاع على سير الحياة فيها ، وتفحص خصائص تلك الحياة . ولا اخفى عليكم اننى قد تأثرت بما رأيت بعض التأثر ، وطبعت في مخيلتي بعض المشاهد صورا عميقة لا احسب ان الزمن قادر على محوها ... وثمة سبب آخر ـ هو اعمق في قرارة نفسي من غيره ـ اغراني باختيار هذا الموضوع ، وهو اننى حينما كنت بعيدا عن ارض العراق وسنحت لي الفرص السعيدة وتمكنت من الاطلاع على بعض القرى الاوربية الجميلة ، والعيش في بعضها آمادا ليست بالقصيرة ،

---

(١) القى هذا الحديث في ٢٠ ايلول ١٩٤٠ من دار الاذاعة العراقية .

كنت اشعر بألم عميق مبعثه ماكنت اجده من بون شاسع بين القرية العراقية وبين تلك القرى ، وماكنت ابصره من فروق جلية بين الحياة في القــرية العراقية والحياة في القرية الاوربية ، وكثيرا ما كانت تتوق نفسي الى اعلان هذا الامر ، والجهر به ، لعله يجد من يصغي اليه ، وكثيرا ما كنت احس ـ كما كان يحس غيرى من دون شك ـ بحاجتنا الملحة الى اصلاح القرى ، وتحسين حال القرويين ...

ولعلى اليوم ـ بعد ان شاهدت بأم عيني حال القرية من جديد ـ اشد اعتقادا بلزوم هذا الاصلاح ، واكثر دعوة اليه . ولعلي اليوم أيضا ـ ولم تبق لي مما كنت قد شاهدت الا ذكريات ، و « الذكريات » كما يقول شاعرنا « صدى السنين الحاكى » ـ اشد أسفا واعمق حزنا وذلك لانك بينما تجد الحياة جميلة حقا ، منظمة حقا ، ومنتجة للخير العميم والمال الوفير في القرى الغربية ، تجد في قرانا حياة فضة مرتبكة ، وانتاجا بدائيا زهيدا . على انني ـ ومن الحق علي ان اعلن هذا حالا ـ قد شاهدت ما انا مغتبط به ، من بعض مظاهر التحسن ووجوه الاصلاح في حياة القرية مما ساعرض له . وهذه الظاهرة يجب ان تزيد في ايماننا وتقوى من عزائمنا وتجعلنا مؤمنين باننا اذا ما ثابرنا على العمل ، ونشطنا للاصلاح ، بالغون ما نريد من كمال انسانى ممكن . واننا حين نأسف اذ نرانا ما نزال بعيدين بعدا شاسعا عن تلك المنزلة المرجوة ، يجب ان لا يكون اسفنا أسف القانط اليائس ، بل يجب ان يكون أسف الطامح الراغب في المزيد ، العامل في هذا الصدد بكل ما اوتي من جهد وطاقة .

ولئن كانت القناعة فضيلة في خلق لافراد ـ وهى لا تعدو ان تكون فضيلة سلبية ـ انها رذيلة او توشك ان تكون رذيلة ، في خلق الجماعات والشعوب . فعلينا اذن ، كشعوب وكأمة ، ان نكون طموحين أقصى غايات الطموح ، مجدين في تحقيق ما نطمح اليه غاية الجد ، وعلينا ان نعلم ايضا ، ان ليس في هذا العالم مكان للشعوب القانعة المتواضعة ، ولا حياة للجماعات الخاملة المتوانية ...

اهمية هذا الموضوع

وموضوع القرية حرى ان يشغل بال الكثيرين منا ، وهو خليق بأن ينال من العناية ، والالتفات من جميع الجهات ، الاهلية منها والرسمية ، اضعاف ما ناله حتى الآن •• وانا اذ اتحدث اليكم عن القرية لا أريد ان اعرض عليكم احصائيات او حقائق جامدة – كما يقولون – حول القرى العراقية واسمائها ، وعدد سكانها ، وما تنتجه من محصولات ، وما يقوم به سكانها من اعمال ، وما يسلكوه من سبل لكسب عيشهم ، وما الى ذلك من معلومات هي على فائدتها ، ليست مما تحتمله هذه الأحاديث التثقيفية العامة •

ولست فوق هذا اقصد ان اتحدث اليكم عن مشروع القرى العصرية ، والمدى الذى وصل اليه ، ولا عن شيء من تلك الجمعيات والمؤسسات مما نسمع اسماءها تتردد في الفضاء ، والتى قصد بها مؤسسوها العمل على اصلاح القرى ، ورفع مستوى الفلاحين ، وانعاش حياة الريف عامة في قطرنا الزراعى • لا اريد ان اتحدث اليكم عن شىء من هذا ، وان يكن كل ذلك او بعضه على الاقل ، حريا بالحديث • ولكن الذى اقصده هو ان ابث بعض الخواطر ، اثارتها مشاهداتي ، وهدتني اليها تجاربي ، في جزء (اعترف بانه صغير) من اجزاء العراق ، ولكني – رغم حذري من التعميم – احسب ان ما شاهدته ينطبق ، الى حد كبير ، على الغالب من القرى عندنا ، ويمثل حياة القرويين في بلادنا بصورة عامة •••

الطابع العام للحياة في القرية

فبالاضافة الى المظاهر الاعتيادية التى طبعت بها حياة الريف عندنا منذ اجيال عديدة ، من فقر مدقع ، وفاقة ملحة ، وخشونة عيش ، وانتشار للعلل والاسقام ، ونقص في الوسائل الصحية الاساسية ؛ من مساكن حديثة ومياه شرب نقية ، ومستوصفات للاسعاف الاولي ، هـذا الى ما امتاز به القرويون من خصال حميدة موروثة ، لا يزالون يحتفظون بها ككرم الضيافة ، وسلامة الفطرة ، والحمية والشجاعة • يجد الملاحظ الفاحص بعض الميزات

والمظاهر الجديدة في حياة القرية مما تجلب الانتباه • وقد توجه نظرى ، وانا اتجول في بعض القرى ، الى ثلاثة مظاهر حسنة مفرحة ، تقابلها ثلاثة اخرى سيئة محزنة •••

بعض المظاهر الحسنة

اما المظاهر الحسنة التى ابصرتها فهي :

اولا – الرغبة المتزايدة بين القرويين في دخول المدارس • وهذه الرغبة مشتركة بين الآباء والابناء على حد سواء ، وان حديث المدارس ومصير الاطفال الذين يدرسون فيها ليشغل الجزء الكبير من بال كثير من القرويين ، وهو بعد الحديث الذى لا يكادون يفرغون منه • على ان منشأ هذه الرغبة في الانتساب الى المدارس لا ترجع ، بالطبع ، الى حبهم للعلم ، ولا الى رغبتهم في الثقافة لذاتها •

وليس من العدل في شيء ان نطالب القرويين بما لم يتحقق بعد حتى بين سكان المدن والقصبات • اننا لنعلم جيدا ان اكثر الآباء والامهات لا يدخلون ابناءهم وبناتهم المدارس رغبة منهم في تثقيف ابنائهم ، وتزويدهم بالعلم المفيد ، والمعرفة الضرورية ، لجعل الحياة حرية بالعيش ، والانسان خليق ان يسمى انسانا مدنيا متميزا عن سائر المخلوقات ، بل لاسباب اخرى اكثر تواضعا من هذا المقصد النبيل ، واكثر منه واقعية ايضا • انهم انما يدخلون ابناءهم المدارس لانهم يعتقدون ان الرزق يأتي عن طريق التعليم • والرزق الذى يفكر فيه ، في العادة ، اكثر سكان الحاضرة هو مرافق الدولة ، ووظائف الحكومة بشتى انواعها وعلى اختلاف درجاتها • وهذا بالذات ما يفكر به القرويون •••

ومهما يكن مقصدهم من التعليم ومهما يكن دافعهم اليه ، فانه مما لاشك فيه انهم في غالبيتهم ، راغبون في التعليم ، بل ومتحمسون له احيانا • وفي هذا بعض الخير • وان لم يكن خيرا كل الخير •

والظاهرة الحسنة الاخرى بين سكان الارياف هي التحسس القومى ،

والشعور بالواجب الوطني شعورا متزايدا مستمرا . واحسب ان الفضل الاكبر في ايجاد هذا الشعور وتقويته يرجع الى نظام الخدمة الوطنية الالزامية الذى بدأ العراق بتطبيقه منذ بضع سنين . اذ يوجد ، في كل قرية من قرى العراق اليوم ، عدد ممن اتموا الخدمة الوطنية او قضوا سنوات في الجندية . وطبيعى ان يتحدث هؤلاء الى مواطنيهم ويطيلوا الحديث . هم يتحدثون - والحديث ذو شجون - عن الجيش وعظمته ، عن قوى الدولة في العتاد والمدافع والرشاشات والطيارات وما الى ذلك من صنوف الكلام ، ويجد المتحدث منهم من افراد قريته اذنا صاغية وقلوبا واعية ، خاصة في هذا الزمن الذى لم يبق للناس فيه من حديث شاغل غير هذه الحرب الضروس التي احرقت ولا تزال تحرق ، الاخضر واليابس - كما يقول المثل - فانت ترى من هذا ان ليست فائدة الخدمة الوطنية الالزامية مقصورة على تهيئة جنود مدربين مستعدين لتلبية دعوة الوطن حينما ينادى المنادى فحسب (بل وفوق ذلك) انها مدرسة شعبية عامة تعلم الناس فنا من فنون الحياة ، وتبث في الافراد شعورا قوميا موحدا ، وتمكنهم من التفكير الجمعي ، الذى يذوى فيه العنصر الفردى ويفني ، فهى بهذا الاعتبار عامل من اهم عوامل تنسيق المجتمع وتوحيده ، وحرى بالمشرفين على شؤون الجيش ، والقائمين بتدريب الجنود ، ان يعيروا هذا الغرض السامي ما هو حري به من عناية ، وان يدركوا - ان لم يكونوا مدركين - ان ليس هذا الغرض باقل اهمية ولا ادنى شرفا ، من الغرض الاول ...

والظاهرة الثالثة المفيدة في حياة القرى هى تقدم القرويين النسبي في الثقافة العامة ، وتوسع مداركهم في تفهم شيء عن هذا الكون الذى يعيشون فيه . فلم يعد القرويون يظنون ان العالم محصور بين قريتهم وبين بعض هذه المدن التى تعودوا زيارتها لقضاء بعض الشؤون فيها او التى اعتادوا ان يسمعوا اسماءها من آبائهم واجدادهم . بل هم يدركون ، ولو بصورة ابتدائية وتقريبية ، سعة هذا العالم وتعدد اجناس البشر ، وهم يعلمون شيئا عن بعض شعوب الارض العظيمة ، وشيئا عن هذه الحوادث الجسيمة التى تشغل بال العالم .

والفضل في توسيع ثقافة القرويين يعود بالدرجة الاولى ، على ما اعتقد ، الى توسع الدعاية وانتشار اجهزة الراديو في القرى ، لتمكن القرويين من الاصغاء الى ما تقوم به الاذاعة العراقية من نشر وتثقيف ، هذا بالاضافة الى ما يسمعونه من المحطات الاجنبية العديدة ، وفي العالم اليوم ما لا يقل عن عشر[1] محطات تذيع باللغة العربية . ولكن ليس كل ما تذيع تلك المحطات خاليا من الخطأ او الضلال ، بل لعل العكس هو الصواب . لعل اكثر محطات الاذاعة الاجنبية التى تذيع بالعربية انما وجدت لتعلن الخطأ ، وتشيع بين السامعين الضلال ، ما دام ذلك في صالحها.فليس بدعا ، والحالة هذه ، ان تشيع بين القرويين معلومات مزيفة ، وافكارا ضالة استقوها من بعض الدعايات الاجنبية ... ومن الحق على مديرية الدعاية العامة – وعلى كل الهيئات الرسمية الاخرى المسؤولة عن التثقيف الشعبي ، وتوجيه الرأى العام توجيها صحيحا – ان تعير هذه الناحية الاهتمام اللازم ، وعليها ان تسعى لان تحول بين القرويين وبين الاصغاء الى هذه الضلالات الاجنبية ، ويتسنى لها ذلك بتجهيز القرى باجهزة راديو خاصة لا تلتقط الا محطة معينة ، وعلى ان تسعى دار الاذاعة بأن تجعل لها منهاجا يوميا خاصا بالقرى والارياف ، لكي يجد فيه القرويون ما يشبع اذواقهم ، وعقولهم ، من فنون الغناء والموسيقى والشعر والكلام ، مما ينشر بينهم الفضيلة والمعرفة ، ويدفعهم الى العمل المثمر[2] . وعليها ان تسعى لان تخلص القرويين (بل غير القرويين) من هذه الالحان المريضة الحزينة المؤلمة ، الفاسدة ، ومن بعض هذه الاغانى الرخيصة المبتذلة المتكسرة المائعة ، ما لا ينمي عاطفة شريفة ولا يرقى الى منزلة الفن الرفيع . ونحن سكان المدن ان حكم علينا بسماع هذه الالحان جبرا في بعض الاحيان فليس من اللازم ولا من المفيد ، بل ولا من المصلحة ان نترك القرويين يعانون من هذه العقوبة المرهقة ، المفسدة لطبائعهم ، واذواقهم وفطرهم ، واخلاقهم ،

---

(١) اصبحت اليوم عشرات .

(٢) لاشك ان وزارة الثقافة والارشاد قد خطت في هذا المضمار بعض الخطـوات .

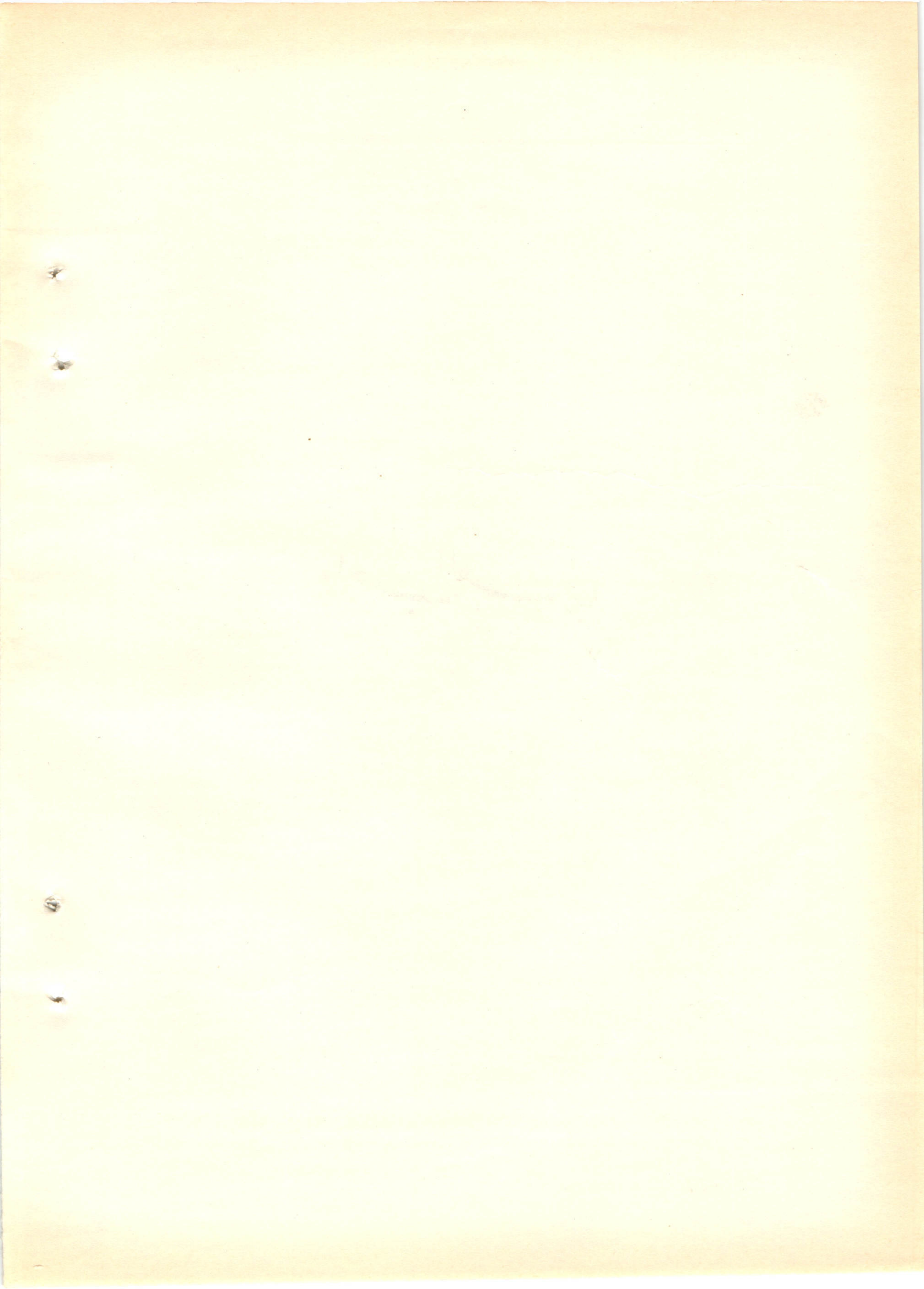
وهم بعد مادة البلاد الاساسية والعنصر الذى يجب ان نسعى دائما وبكل قوانا لابقائه بعيدا عن كل الادران والشرور التى ليس لسكان المدن منها بد او محيص ...

ومهما يكن من أمر فان من أقدس واجبات الهيئات المشرفة على اخلاقنا العامة ، والمعنية بتوجيه الشعب توجيها صحيحا ، يقوى في الرجال صفات الرجولة القوية المتينة ، وفي الاناث خصائص الانوثة الطاهرة ، ان لا يهملوا هذه الناحية الحيوية الخطرة من نواحى حياتنا الاجتماعية طليقة من دون اى رقيب .

هذه بعض المظاهر الجديدة التى لاحظتها في القرية العراقية ، واما الملاحظات الاخرى التى اشرت اليها من قبل ، فهي مما ارجو ان اتحدث اليكم عنها في فرصة اخرى .

ولكنى قبل ان اتم كلمتي هذه اؤكد ان هدفنا في اصلاح حياة القرية والقرويين ، يجب ان يكون لغرض تحقيق اكبر قسط من الرفاه المادى والادبي لسكان القرى والارياف ، واعدادهم اعدادا سليما مستقيما ، بالمحافظة على الصفات الحسنة المتوارثة من اجيال سحيقة ، وبادخال عوامل التجديد بينهم في النواحى الاخرى ، مما يساعدهم على ان يكونوا انفع لانفسهم ولمجتمعهم . ولا يتأتى ذلك الا بوضع المناهج الاصلاحية الدقيقة المرنة الشاملة ، والا بالعمل الجدى المستمر لتحقيق تلك المناهج بدقة وصبر واخلاص ..

واجب العرب



حديثنا في هذا المساء هو عن واجب الفرد العربي اليوم[1] ، اي في هذا الوقت العصيب الذي تمر به الانسانية جمعاء وترزح تحت اعبائه . اريد ان اتحدث اليكم عن واجب الفرد منا باعتباره فردا من مجموع ، واترك لسواي الحديث عن واجب العرب كجماعات ، وواجبهم كدول ، وواجبهم كأمة ...

والعربي المخاطب في هذا الحديث هو كل فرد يقطن البلاد العربية - البلاد العربية بمعناها الواسع بما في ذلك العراق بكليته بالطبع - ويتحسس بالشعور العربي ، ولا يتعصب لجنسية أجنبية ، ولا يدعو الى عصبية اقليمية ؛ فهو على العموم كل من يعتقد بأن مصالحه ومصيره متوقفان على حياة الجماعة الكبرى ، وان سعادته منوطة بسعادتهم ، فهو يشاركهم في آمالهم ، ويسعى معهم لتحقيق تلك الآمال ؛ ثم ليعتنق بعد ذلك ما شاء من المذاهب والاديان ، ولينحدر مما شاء أو شاءت له الاقدار ، من أصول وسلالات ...

ان واجب الفرد ، او بالاحرى واجبات الفرد العربي ، هي الآن بلا شك اشد منها في كل دور من ادوار حياته ؛ ذلك لأن سير الزمن السريع ، وتطور الحادثات تطورا قد جاوز حدود التنبؤ والتخمين ، هذا مضافا الى ما عليه الفرد العربي اليوم من تأخر في حياته الاجتماعية والاقتصادية

---

(١) اذيع من دار الاذاعة في بغداد في ١٩ تشرين الاول ١٩٤٠ .

والادبية ؛ وافتقار للعلوم والفنون والصناعات ، وكل اسباب الحياة ومقوماتها المادية ، كل ذلك يفرض عليه واجبات شاقة ، ويحمله تبعات ثقيلة لابد له من القيام بها مهما كان الطريق أمامه وعرا ، ومهما كلفته من مشقة وعناء . ولكنه عند قيامه بتلك الواجبات سيكون قادرا على تجديد العهد ، نائلا نصيبه من هذه الحياة موفورا ، ظافرا بما يرجـــوه ويتطلع اليه من عزة وكرامة ...

وأول هذه الواجبات وأهمها هو واجب نفسي ؛ وهو اساس لكل الواجبات الاخرى ؛ واعني بذلك وجوب الثقة بالنفس .

ومن جهلت نفســه قدره   رأى غيره فيــه مالا يرى

ولزوم تحطيم الاوهام القاتلة ، واليأس المميت . هذا اليأس الذي استولى ، مع الاسف الشديد ، على عقول عـدد من الناس ليس بالقليل ؛ من شيبهم وشبانهم ، من عامتهم ومثقفيهم ، من نســـائهم ورجالهم . وانك لتحس هذا اليأس في احاديثهم وتلمسه من حسراتهم وتتبينه في امـارات وجوههم . وان المرء ليسمع اسئلة تتردد على افواه الكثير من هؤلاء فتظهر هذا اليأس اشد الظهور ...

ماذا ترى يستطيع ان يفعل العرب بوصفهم أمة ، بله الفرد العربي ، في هذا الزمن المضطرم ؟! .

وما فائـدة العمل وها نحن اولاء نرى شعوبا كبيرة تسحق ، ودولا عظيمة تدك الواحدة تلو الاخرى ، بين عشية وضحاها ؟!

ثم علام العمل والجد ومستقبل العالم بكليته مجهول لا يعلمه الا علام الغيوب ؟! ثم من يدرينا لعل الساعة آتية ، وان العالم محتضر يوشك ان يلفظ آخر انفاسه ؟!

ان اسئلة من هذا القبيل تتردد على السنة كثير من الناس ، وتدور بخلدهم ، وتساور نفوسهم ، بين الفينة والفينة ، خاصة بعد سماع اخبار

التدمير ، واهوال هذه الحرب الضروس ...

ومهما يكن من امر فأن افكارا وخيالات من هذا النوع تكوّن خطرا على حياة المجتمع كله لانها توهن العزائم ، وتثبط الهمم ، وتدعو الى اليأس والاستسلام ، وما وراء اليأس والاستسلام الاّ الموت والفناء ...

ان هذا التواكل المشين يبتعد أشد البعد عن الطبيعة العربية التي يجب أن يكون شعارها على مر العصور والازمان : « العمل الدائم » و « الثقة بالمستقبل » . وان هذه الجبرية المستكينة لتخالف قواعد الاسلام ومبادئه ومثله الخالدة المتمثلة في هذا الحديث الشريف : « اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا ... » .

ان واجب العربي الآخر ـ بعد تحطيم أوهام اليأس ، والخيال الضال ، وتجديد الثقة بالنفس ـ هو العمل . عمل كل فرد في دائرة اختصاصه ، وضمن المجال الذي هو فيه . العمل المستمر من دون تثبط او تردد او اتكال . عمل كل طبقات المجتمع مهما اختلفت منازلهم واعمارهم وقابلياتهم . فمن كان تلميذا في مدرسته ، او طالبا في كليته ، عليه ان يدرس ما يتلقاه ، وأن يجد في درسه ، ويستعد لا متحانه كل الاستعداد . ومن كان صانعا في مصنعه او معمله فليعمل وليتقن صنعته « ورحم اللّه إمرءاً عمل عملا فأتقنه » . ومن كان فلاحا او مزارعا فليفلح حقله وليزرع ارضه ، وليكثر من انتاجه ومحصوله . ومن كان تاجرا فليعرف سوقه ، وليحسن تجارته . وليعلم هؤلاء جميعا ، وغير هؤلاء من مختلف أفراد المجتمع وطبقاته ، أن واجباتهم ليست بأقل من واجبات الجندي الذي يتمرن كل يوم على فنون الحرب ، واصول القتال ، وأن تبعاتهم ، وما يترتب على تقصيرهم في القيام بواجباتهم لا تقل عن تقصير الجندي في واجبه . خاصة في هذا الوقت الذي لم تعد الحرب فيه حربا بين جنود وجنود بل صراعا بين أمة وأمة ، أو أمم وأمم ، بكل ما اوتيت تلك الامم من قوى مادية وأدبية . وكل فرد من افراد الشعب مهما كانت صنعته أو قابلياته ، هو قوة يجب ان تستغل ، وان تستغل على احسن وجه وأتمه ...

ثم ان حالة الحرب ، مهما طالت ، ومهما عظمت ، ليست الا حالة غير اعتيادية لا تلبث أن تزول ، وهي قصيرة الامد بالنسبة لحياة الانسانية المديدة • ولابد أن يعود السلم وتزول الشدة ، وترجع الحياة الى هدوئها واستقرارها • « فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا » •

ان هذه الحرب العظيمة المتقدة اليوم في اوربا ، والتي توشك ان تعم العالم باسره وتضرمه بلظاها ، تفرض على الفرد العربي خاصة واجبين مهمين حريين بالتنبيه ؟ احدهما « سلبي » واعني به موقفه تجاه الدعايات الاجنبية ، وثانيهما « ايجابي » وأريد به وجوب الاستعداد للطوارىء •••

ان من الوسائل التي استجدت في هذه الحرب ، علاوة على اسباب الهلاك والتدمير الجديدة ، التي لم يسمع بمثلها من قبل ، هي حرب الدعاية وما تشمل عليه من فنون الكفاح ، وطرق تحطيم الاعصاب ، وهدم معنويات الشعوب ، وتهيئة الرأي العام في داخل القطر وخارجه الى سياسة معينة وآراء خاصة • وان بعض شعوب الارض قد حذقت هذه الناحية اشد الحذق ، وتفننت بها غاية التفنن ، خاصة بعد أن عم انتشار الراديو ، وصار الاثير ينقل الخبر الواحد فيسمع من اقصى الارض الى اقصاها ، واصبحت الاخبار تبث في مختلف لغات المعمورة فيسمعها الانسان عن قصد منه او عن غير قصد •

فواجب العربي تجاه تلك الدعايات ـ وقد أصبح بطبيعة الحال يكاد يكون مرغما على سماعها ، أو قراءتها أو رؤيتها معروضة أمامه في دور السينما ان يقف حيالها موقف القاضي ازاء ما يعرض أمامه اثناء رؤية الدعوى وسير المرافعات • ان القاضي يسمع افادات الخصوم ، ويصغي الى بينات الشهود ، لا ليأخذ بها كلها ، ولا ليصدقها كلها على أنها الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بل ليتحرى الحقيقة من ورائها ، وليقف من بينها على جلية الامر • والقاضي الفاضل بعد ذلك لا تغريه بلاغة المدعى على الاخذ برأيه ، ولا يصرفه اعياء المدعى عليه عن الأصغاء اليه والاستماع لحجته •

ثم انه لا يتسرع في الحكم ، بل يتريث ويتلوم الى ان يُتم فحص مختلف الأدعاءآت • وهو فوق ذلـك حين يصدر حكمه لا يصدره ، في غـالب الحالات ، على انه الحق والعدل المطلق ، بل لأنه الحق الممكن الذي اتضح له مما عرض أمامه ، وبعد ان اجهد نفسه في الوصول اليه مخلصا • هذه العقلية القضائية ، اعني التشبه بحال القضاة والأتصاف بصفاتهم ، هي اليوم ضرورية لكل فرد عربي يود ان يعرف الحقائق العالمية على وجهها الصحيح ، ويُصدر عليها حكمه الصائب ، وبها تكون نجاته من الغلو في الادعاءآت ، وفرط التلفيق في صياغة الحوادث في كل ما يسمعه أو يقرؤه أو يبصره من متناقضات وأضاليل • وبهذه الخلية يستطيع ان يميز بين الحق والباطل ، والغث السمين •

واما واجب العربي الثاني في هذا الزمن العسير ؛ فهو لزوم « الاستعداد التام » ••• أجل « الاستعداد » • ان الفرد ليستعد للطوارىء كما تستعد الحكومات والشعوب • وانه لمن العجز ، وقلة المروءة ان ينتظر الفرد منا كل شيء من السلطات الرسمية دون أن يقوم هو بقسطه على الأنفراد ••• على كل فرد منا ان يستعد فيقوّى جسمه ان كان ضعيفا ، ويعالج داءه ان كان مريضا ، ويروض بدنه فيجعله قويا ، وعليه ان يخلص نفسه من كل الآفات الخلقية والخُلقية ان كان ببعض الآفات مصابا ، وعليه ان يعود نفسه على الطاعة والصبر والانتظام في حياته الخاصة واعماله الاعتيادية حتى فيما يظهر له طفيفا لا يحتاج الى مران أو ترويض ؛ وذلك لأن النفس على حد قول الشاعر ، كالطفل :

والنفس كالطفل ان تهمله شب على   حب الرضاع وان تفطمه ينفطم

على الفرد منا ان يعتقد انه كالحجر في البنيان العظيم ؛ انه الجزء من الكل ، ولولا الاجزاء لما صار الكل كلا ؛ وكما ان البناء يكون متينا قويما اذا كانت مواده الاولية واجزاؤه متينة كذلك الكيان الاجتماعي ، فأنه يكون قويا صحيحا اذا كان افراده أقوياء اصحاء في اجسامهم وأرواحهم وعقولهم•

على العربي ان يكون مستعدا دائما ، متهيئا لنداء الوطن أبدا ، مؤمنا ، بعد الله ، بأمته ، وقدرته ، يرقُب الغيب بثقة وطمأنينة ، وشعاره دائما : « لنعمل ان المستقبل لنا »[1] .

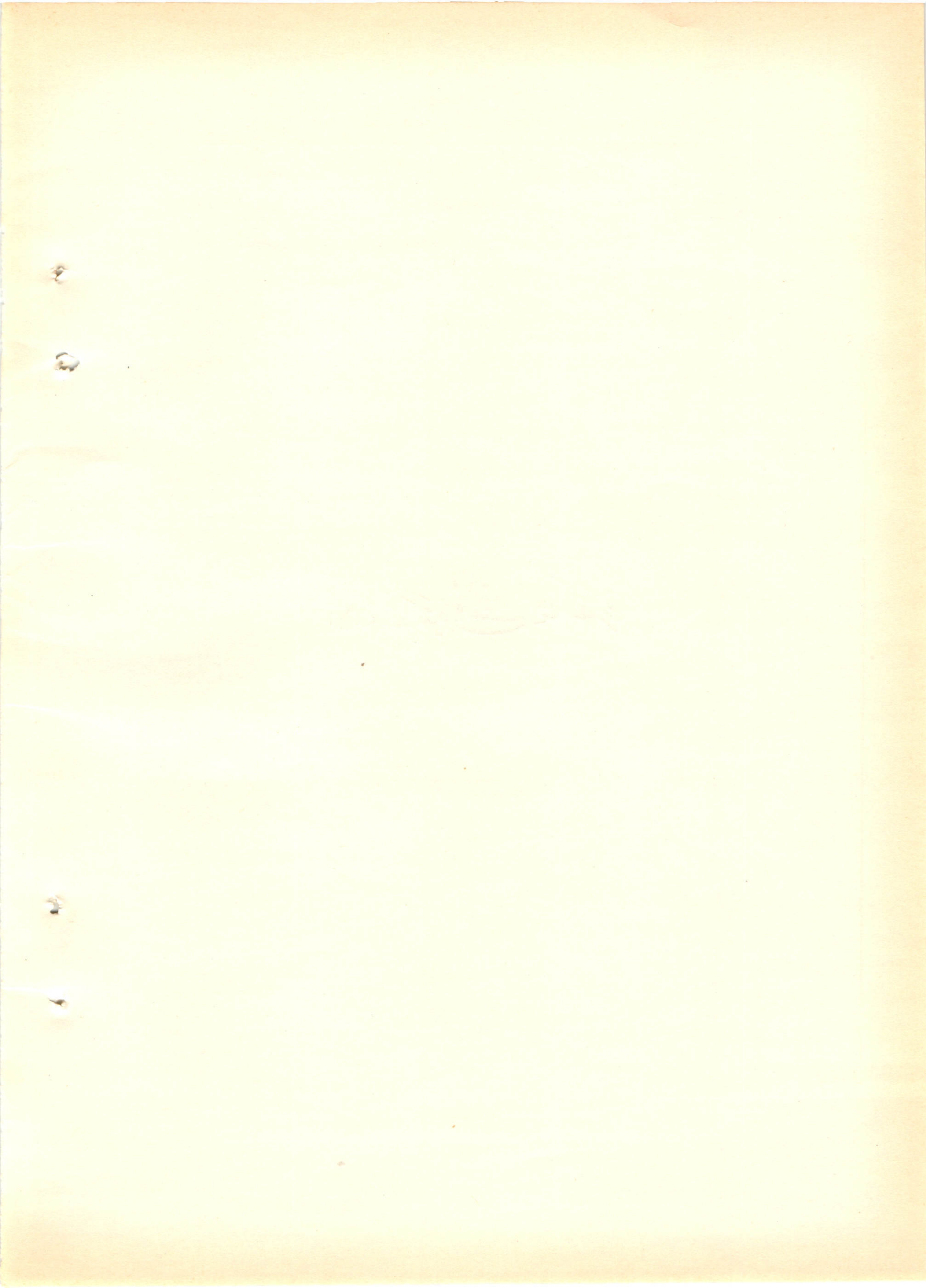
---

(١) كنت قد اذعت هذا الحديث قبل اكثر من ربع قرن . وكانت الحرب العالمية الثانية في مرحلتها الاولى ، وكان شررها يتطاير الى كل ناحية ، ونذرها تعم كل مكان .

ولقد اصابت النفوس بقلق شديد ، وكان اليأس والذعر يعمان معظم انحاء المعمورة . وكنا في العراق نحس آثار القلق واليأس كأشد ما يكون القلق واليأس . ولذلك شددت القول في هذا الحديث في لزوم الثقة بالنفس ، والاستعداد للمستقبل .

واليوم ؛ وبعد النكسة المروعة التى أصابت اخيرا امتنا ما احوجنا نحن بالذات الى أن نستعيد الثقة بانفسنا ، وما اشد حاجتنا الى من يذكرنا بأن الحروب سجال ؛ فيوم لنا ويوم علينا . ثم ما أحرانا بأن نحذر الحذر كله من دعاوى القانطين ، والمرجفين ، والمتخاذلين ، والمتشككين .... لابد لنا ــ قبل كل شىء ــ من يقين ثابت ، وعزيمة صادقة ، لكى نستطيع محو آثار هذه النكسة المفجعة ، وتحويل الهزيمة الى نصر مبين .

الأُمّةُ العَرَبيّة في مُفتَرَق الطُرُق



تجتاح العالم اليوم أزمة شديدة[1] ليس الى نكرانها أو التغاضي عما قد تؤول اليه من سبيل ؛ وتتصادم مصالح الدول والشعوب تصادما ان لم يوفق القادة والساسة وذوو الشأن الى التخلص منه ، او تخفيف شدته على الأقل ، فقد يؤدي الى كارثة جديدة تقضي على البقية الباقية من مدنية العالم وحضارته • وقد يكون من العسير ان يقال ان الوضع العالمي اليوم ، وبعد ان تلظى الناس بلهيب الحرب خمس سنوات تقريبا ، وبعد ان كابدوا من الويلات والنكبات ما كابدوا ، خير منه عما كان عليه قبل هذه الحرب ؛ من حيث توازن القوى ، واستقرار الدول والشعوب ، او من حيث الوضع الأقتصادي والاجتماعي العام •

وفي هذا الخضم المضطرب ، وهذا الوضع العالمي المائج ، تقف الامة العربية من جديد في مفترق الطرق ، لم تتبين بعد بجلاء الوجهة التي يجب عليها ان تولي وجهها شطرها • فعلى الرغم من ان العرب رموا بأنفسهم الى جانب الدول الديمقراطية التي خرجت من الحرب الاخيرة منتصرة ، وعلى الرغم مما بذلوا من أنفس وأموال ، وعلى الرغم مما أصابهم في سبيل هذا النصر من ضنك وضيق وتقتير ؛ أقول على الرغم من هذا كله خرجت الامة العربية من الحرب ومشاكلها الأساسية هي هي ، بل ان بعضها قد ازداد سوءاً وتعقيداً •

---

(١) اعد هذا الحديث في ٥-٦-١٩٤٦ ولكنه لم يذع ، كما لم يسبق له ان نشر •

فالشعوب العربية في مختلف الامصار ؛ في قارتي آسيا وأفريقية ، لم تحقق بعد ما تصبوا اليه ، وما هو حق من حقوقها حسب قواعد العدل وقانون الطبيعة ، من حرية واستقلال واستقرار . فعرب مراكش والريف والجزائر وتونس واخوانهم البربر لا يزالون يأنون من ثقل وطأة الاستعمار الفرنسي والاسباني[1] ، والمجاعات تهدد الالوف بل عشرات الألوف من الناس ، واليأس والفاقة ضاربة اطنابها في ربوعهم ، والدول الغربية التي أصبح لها نفوذ في تلك البقاع اثناء هذه الحرب ، لم تعمل شيئا يذكر في سبيل انقاذ سكان تلك البلاد مما هم فيه من نكد وضيق ، رغم تلك المبادىء السامية ، والعهود السامية ، والعهود المعلنة المتكررة التي قيل ان الدول الديمقراطية انما خاضت الحرب لتحقيقها لشعوب الأرض كافة .

وبرقة وليبيا وان نجتا من الكابوس الفاشستي الغاشم لم تنالا حتى الان استقلالهما التام[2] بل اصبحتا موضوع مساومات بين الدول العظمى التي ترغب كل منها ان تحل محل الدولة الايطالية المغلوبة .

وبلاد وادي النيل ـ مصر وسودانها ـ رغم ما بذلت من مجهود عظيم، لم يستطع ساسة الانكليز وقادتهم نكرانه ، لم تزل قضيتها معلقة في يد القدر ، وان الدولة الحليفة التي كان عليها ان لا تنسى ما قدمت لها مصر من أياد بيض في الوقت العصيب ، أخذت ، بعد زوال الكرب ، تماطل في الحق الصريح[3] .

---

(١) تغير الوضع في هذه الاقطار ، كما هو معلوم ، ولكن ذلك لم يتم الا بعد تضحيات جمة وصراع مرير تعرض له كل قطر وخاصة الجزائر التى بقيت تحارب فرنسا نحوا من سبع سنوات حتى حظيت اخيرا باستقلالها .

(٢) بعد هذا التاريخ استقلت المملكة الليبية المتحدة ثم اصبحت اخيرا دولة موحدة .

(٣) استقلت مصر ، كما استقل السودان بعد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وكان لسياسة رجال الثورة فضل كبير في تحقيق ذلك الاستقلال .

وفلسطين العزيزة قد ازداد حالها سوءاً الى حد كبير[1] ، فقد عدمت الاستقرار ، وأصبح مصيرها مجهولاً ، فبعد ان وعدت الحكومة المنتدبة بانهاء حال الانتداب واعلان استقلالها في المدة المعينة في الكتاب الابيض الذي اصدرته الحكومة البريطانية سنة ١٩٣٩ ، عادت فنكصت على أعقابها تحت ضغط النفوذ الصهيوني والتدخل الامريكي السافر الذي لا يستند الى ظل من الحق والأنصاف اللهم الا المناورات الحزبية ، وسعى ساسة الامريكان لكسب العطف اليهودي لأغراض السياسة الامريكية الداخلية . وهكذا أصبحت فلسطين من جديد ضحية المطامع والاهواء ، واستمرت سيول المهاجرين الذين يسمونهم شرعيين وغير شرعيين – وكلهم في عرف الحق غير شرعيين – تتدفق الى ذلك البلد الذي اعترف الخبراء من الانكليز أنفسهم ان موارده الطبيعية لا تكفي الآن لسد حاجات سكانه الحاليين . وان كل زيادة في المهاجرين لا تهدد استقلال فلسطين وحق العرب في الحياة فحسب ، بل تكون عاملاً لأرتباك اقتصادي عظيم قد يؤدي الى الفوضى والانحلال لا في ذلك القطر الصغير فقط ، بل وفي الشرق الأدنى او الأوسط كله . ولم يعد خطر الصهيونية قاصراً على فلسطين وشرق الاردن بل ان لبنان وسورية وحتى العراق مهددة بغزو شنيع من عنصر مستميت ومدرب على أعمال العنف والقسوة والتدمير بكل طرقه وأنواعه ؛ والدولة المنتدبة – التي تبنت الصهيونية وشجعتها – لم تنج من أهوال ذلك التدمير ، ولكنها مع ذلك لم تتخذ الوسائل الفعالة للقضاء عليه ، وانما اصطنعت اللين والمسايرة الى حد جعل العرب من اصدقائهم يرتابون من صدق نوايا ساسة لندن تجاه العرب وقضيتهم كل ارتياب .

على انه من الحق علينا ان نعترف أن بعض الاقطار العربية قد استفادت نسبيا من هذه الحرب ، وان استقلال سورية ولبنان – رغم جهادهما الطويل وتضحياتهما العظيمة – قد ساعدت الاوضاع التي انتجتها هذه الحرب على

---

(١) بقيت فلسطين ارض النكبات والمآسي ، وحالها اليوم – كما هو معلوم – يدمي القلب ، ويستدر العبرات .

تحقيقه . والذي نرجوه لهذين القطرين ، وللأقطار العربية جميعا ، استكمال وسائل الحرية ، وتمام الاستقلال الاقتصادي والسياسي .

على ان حالة بعض الاقطار العربية ـ ومنها العراق ـ من الناحيتين السياسية والاقتصادية ـ لا يمكن الأطمئنان اليها ، وما لم يتخذ المسؤولون الوسائل الفعالة في اصلاح أحواله ، والعمل على رفع أسباب التشكي فقد يحدث فيه ما لا تحمد عقباه[1] .

ومهما يكن من أمر ، ومهما تكن سياسة الدول الكبرى ومطامعها وغاياتها ، فأن على العرب ان يعتمدوا على انفسهم ، وعلى انفسهم حسب ، في اصلاح أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وعليهم ان لا ينخدعوا بالدعايات البراقة التي تبثها بعض الدول ، والمبادىء الخلابة ، والمثل التي يتحدثون عنها ، ولكنهم لا يعملون بها عندما تصطدم مع مصالحهم ، ذلك ان البلاد التي لا ترتجى خيراً من ابنائها لن تنال الخير والنصفة على يد الأجنبي مهما تظاهر بالعطف على قضيتها ، والحدب على شؤونها ومهما أعلن من مبادىء سامية ومثل رفيعة .

وعليهم ان يعلموا ان الدول كافة ـ والدول الكبرى على الأخص ـ ليست مؤسسات انسانية تعمل الخير حباً في الخير ، وانما هي تعمل ، أولاً وبالذات ، بوحي من مصالحها الذاتية ، وان كان في ذلك الحيف على غيرها من الشعوب .

وعلى العرب ان يعرفوا مصالحهم معرفة حقة ، وان يجدّوا في العمل لتحقيقها ، وعليهم ان يعرفوا أقدار انفسهم ، ويدركوا أنهم يكونون كتلة بشرية عظيمة بينها من عوامل الانسجام والتشابه والقوة الشيء الكثير ؛

---

(١) فى هذا اشارة الى ثورة العراق التى لم تتحقق الا بعد سنوات عديدة من تاريخ اعداد هذا الحديث . هذا ولم اشأ ان اغير اللفظ الذى استعملته فى هذا الحديث الذى كنت قد كتبته سنة ١٩٤٦ اى بعد عام واحد من نهاية الحرب ، وكأن تسلط الاجنبى على شؤونه حقيقة يدركها كل العارفين . وكان التنادي بالثورة قائما بين الفئات الواعية يومئذ ولكن الظروف لم تمكن العراقيين من ذلك الا بعد حين .

وان بلادهم تشمل بقاعاً غنية في مواردها الطبيعية والمعادن والزيوت ، ولها موقع استراتيجي هام في حفظ التوازن والسلام العالمي ، مما يجعل الدول الطامحة تتنافس في جذب ودها والتقرب اليها • وعليهم ان يدركوا ـ وهم لاشك مدركون ـ ان الامن والسلام العالمي ضروريان لسلامتهم ، ولازمان لتمكينهم من اصلاح بلادهم الشاسعة التي هي احوج ما تكون الى الاصلاح والتنظيم والاخذ بالوسائل الحديثة ، وذلك كله لا يتأتى الا حين يسود الامن والسلام •

ثم ان الاصلاح والتجديد لن يتحققا الا باصطناع الوسائل الديمقراطية الحقة التي تقتضيها روح العصر ، وتدعو اليها الفطرة العربية السليمة •

فمن واجب العرب على اختلاف طبقاتهم ، وفي جميع ديارهم ، حكومات وشعوبا ، أفرادا وجماعات ان يعملوا جادين على الاخذ بها ، وفسح المجال لما تقتضيه مبادؤها من حرية وتسامح وتنظيم •

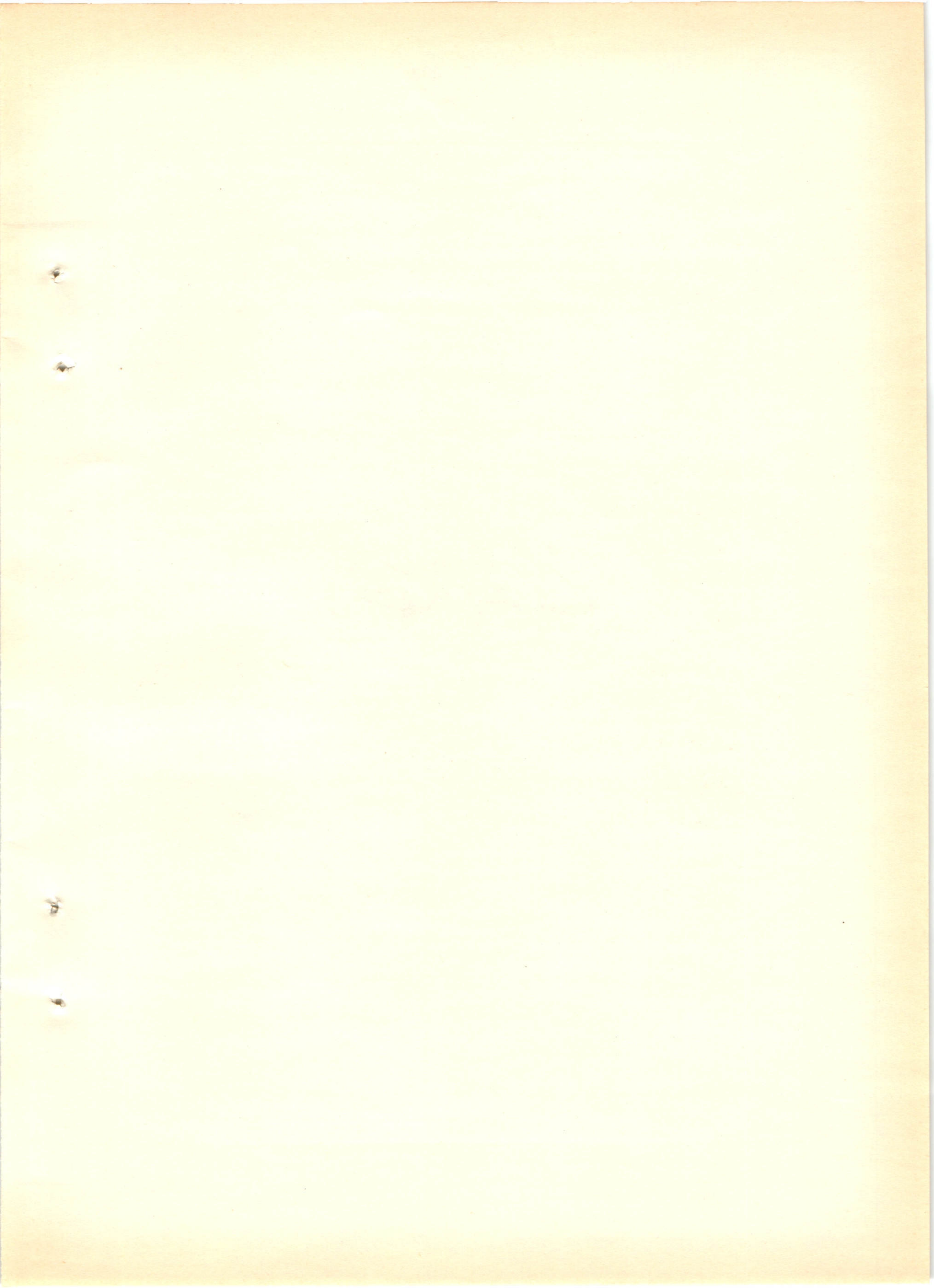
وعليهم أخيرا ـ وليس آخرا ـ ان يتيقنوا ان لا سبيل الى تحقيق أهدافهم ، ونيل حقوقهم كاملة الا بتعاونهم ، وتناصرهم واتفاق كلمتهم وتوحيد جهودهم • ولله در شاعرنا الرصافي حين يقول :

أقول والبرق يسري في مراقدهم
يا ساهر البرق أيقظ راقد السمر

يا أيها العرب هبّوا من رقادكم
فقد بدا الصبح وانجابت دجى الخطر

كيف النجاح وأنتم لا اتفاق لكم
والعود ليس له صوت بلا وتر

وِجهةُ العَرَب



لست ارى موضوعا يصح لي التحدث فيه[1] ، بعد سلسلة احاديثي في شهر رمضان ، خيرا من هذا الموضوع ، وذلك لعلمي بأن اكثر الناس قد ملت الاحاديث التأريخية والاجتماعية والنظرات الادبية والقانونية ، والمواعظ الخلقية والدينية .. والجمهور لا يعني كثيرا الا بما يتصل بحياته اليومية ، وكيانه العام ، وتكوينه السياسي .

واحسب ان الناس غير ملومين كثيرا في هذا ، اذ من العبث صرفهم عن الشؤون الاساسية الى الامور الثانوية ، ومن العبث ايضا اشغالهم بالفروع والكماليات حينما يشعرون ان الاصول لم تستقر في اذهانهم ، وان الضروريات لم تستوف بعد . والتحدث في الشؤون التاريخية والادبية والاجتماعية – على فائدتها – قد يصبح احيانا من قبيل الترف العقلي والذهني الذي لا يرغب فيه الا المترفون بهذا المعنى . وافراد الشعب ، في هذا القطر وغيره من الاقطار العربية ، يتساءلون اليوم عن النبأ العظيم نبأ الحرب العالمية المقبلة ، وهم يستفهمون عن موقفهم من التيارات العالمية الجامحة ، ويودون ان تتضح وجهتهم ويستبين سبيلهم ليخففوا بذلك من بعض العناء والضيق الذى يحسون به في حاضرهم المؤلم ، ويخشونه في مستقبلهم المظلم ، وهم مشفقون اشد الاشفاق مما يبيته لهم الغيب في ثناياه الحوالك .

يقف العرب اليوم فى مختلف اقطارهم ، افرادا وشعوبا وامة ، في

(١) أذيع من بغداد في ٤–٨–١٩٥٠ .

حيرة واضطراب في بحران هذا العالم المملوء بالمفاجأت والاحداث الخطيرة ، وهم لا يكادون يبصرون الطريق الذى عليهم ان يسلكوه ليصلوا الى ما يصبون اليه من حياة كريمة تليق بالانسان في هذا العالم ، وتليق خاصة بأمة يبلغ سكانها عشرات الملايين ، وتمتد اقطارها في بقاع غنية شاسعة في مركز هذا العالم •

ونحن اذا استقرينا حال افراد الامة العربية جاز لنا اجمالا ان نصنفهم في هذا الصدد ، الى ثلاث فرق ينتظم كل فريق منهم طوائف فرعية عديدة • فأما الفريق الاول فهم الذين آمنوا بالغرب ــ وقد يكون هذا الغرب انكلترة او فرنسا او الولايات المتحدة الامريكية ام غيرها ــ وبهرتهم مدنيته ، واخافتهم قوته ، وجذبتهم بهرجته ، وتعودوا على ما قدم لهم من صنوف الملذات وانواع النعيم ، فلم يعودوا ليتصوروا الحياة بغير الغرب حياة • ومن هذا الفريق طائفة آمنت بالغرب ايمان المنتفع بمن نفعه ، لا ايمان المعتقد الذى آمن بعد كفر ، وتيقن بعد شك ، وهؤلاء هم الذين اغنتهم دول الغرب بعد فقر ، وأعزتهم بعد ذلة ، واسبغت عليهم نعمها ظاهرة وباطنة • وقد وضع هذا الفريق يده بيد الغرب بوحي من مصلحته الذاتية ، وهو يريد ان يقسر الامة العربية ان تتجه وجهته ، وتسير في ركاب من هو سائر فى ركابهم • ولم يبق لكثير من افراد هذه الطائفة من الامة العربية والوطن العربى الا الانتساب السياسي والجغرافي ، والا هذه اللغة الركيكة التى درج على استعمالها في تافه شؤونه اليومية ، بل ان بعضا من هؤلاء لا يستعمل هذه اللغة في حياته العائلية ومع اولاده • وترى كثيرا منهم يعنون اشد العناية بتعليم ابنائهم الفرنسية او الانكليزية مثلا ، ولا يعتقدون ان مما يشينهم ويشين ابناءهم ان لا يعرفوا العربية وآدابها • وعلى العموم فان عواطف هذا الفريق من العرب وافكارهم وميولهم متجهة نحو الغرب حتى لم يعودوا يفكرون ان لهم كيانا خاصا ، ولغة خاصة ، وقوما خاصين • واني لاعرف شخصا من هذا الفريق كان يشفق على انهيار انكلترة سنة ١٩٤١ كل الاشفاق ، ولا احسب ان هذا الشخص شعر باى الم يوم كان قبل ذلك التاريخ ، بسنتين او ثلاث ، طياروا القوة الجوية الملكية البريطانية

يرمون افراد القبائل العربية في حضرموت وجنوب اليمن بقنابلهم « الانسانية » ـ على حد ما عبر عنها بسخرية المستشرق الانكليزي المشهور « عبدالله فلبى » في مقال له انتقد فيه حكومته على سياستها تلك ـ وذلك عندما قاومت القبائل العربية ضم اراضيها البالغة مئات الالوف من الاميال المربعة الى محمية عدن بقرار اتخذته الحكومة البريطانية من تلقاء نفسها ، وبذلك وسعت مساحة محمية عدن آلاف المرات بالنسبة الى مساحة المحمية القديمة .
وكثيرون منا ولا شك يتذكرون تلك المقالات الطافحة بعاطفة الالم والرثاء ، التي كتبها بعض كبار ادباء مصر يوم انهارت فرنسا وسقطت باريس بيد الالمان ، وكيف كان عشاق باريس يسفكون الدموع الغزيرة ، ويرثون مدينة السحر والجمال والفن والمراقص ومسارح اللهو والتمثيل ، ولكن احدا من اولئك الادباء لم تهتز مشاعره ، ولم تثر اشجانه يوم رمى الفرنسيون بطيشهم دمشق واحرقوها بمدافعهم .

والفريق الثاني من ابناء الامة العربية ، لم يؤمنوا الا بما جاء به الغرب الغرب من فلسفة مادية ، واسس علمانية ، ومبادىء شيوعية ، وانكروا ما عدا ذلك من روح الشرق ومثله واديانه . ويضم هذا الفريق عددا من المثقفين واشباههم . وتجد هذه المبادىء عادة تربة صالحة بين الذين لم ينحدروا من اصول عربية ، ممن لا يزالون يقاسون من مركب النقص ، ويحسون بشعور شعوبي دفين يجدون بالشيوعية وسيلة عصرية فعالة ينفسون بها عما يحسون . وقد يكون فريق من هؤلاء قرأ شيئا عن الاشتراكية العالمية ، والتفسير المادي للتاريخ ، او جذبته بعض الروايات والقصص الخيالية ، ثم هزته بعد ذلك انتصارات الروس في الحرب العالمية الاخيرة ، وصار يعتقد ان الحكومة المثالية الفاضلة قد وجدت في هذا العالم في روسية ، وفي روسية وحدها ، وان الفقر والمرض ، والجوع والشقاء قد زال من بلاد السوفييت كما زالت الفوارق الاجتماعية والجنسية والعنصرية والدينية بين الناس ، وتحقق العدل المطلق ، والحرية التامة والسعادة التي لا ينقصها اي شيء ، وما الى ذلك من خيالات واوهام .

ويريد هذا الفريق ان يوجهوا الامة العربية شطر

موسكو ، ويجعلوا من البلاد العربية سوفيات تخضع لحكم الكرملين كما تخضع جورجيا وارمينيا مثلا ، وهم لا يعنيهم بعد مصير الامة العربية ، وخصائصها ، ورسالتها ، وهم في الحقيقة يريدون ان يستبدلوا البلاد استعمارا باستعمار ، وسيطرة بسيطرة ، ويأملون ان يقوموا هم بالدور الذي يقوم به دعاة الغرب في البلاد العربية اليوم ، وينالوا من الحظوة لدى الروس ما نال اولئك لدى الانكليز والامريكان والفرنسيين ...

والفريق الثالث ، وهم غالبية الامة ، وعمودها الفقري ، يكفرون بالغرب كل الكفر ، على انهم على كفرهم بالغرب يؤمنون بالعلم والصناعة والفن والروح ، وبكل مفيد انتجته قرائح الغربيين او الشرقيين ، وهم لا يعتقدون ان ذلك خصيصة من خصائص الغرب بل هو تراث انساني مشترك بين العالم جميعا ....

كفرت الامة العربية بسياسة الغرب ومبادئه ، كفرت بالديمقراطية التي تنادي بها انكلترة وفرنسا والولايات المتحدة الامريكية وهولندة ، كما كفرت بالشيوعية التي تنادي بها روسية والبلاد الخاضعة لها . كفرت بديمقراطية هؤلاء لانها تبينت ـ بعد تجارب مريرة متعددة ـ ان الديمقراطية في واقع الحال ليست اكثر من كلمات معسولة ، وآراء مجردة ، وخطب رنانة تكتب في الكتب والمجلات والجرائد ، او تلقى في البرلمانات والمؤتمرات والندوات ولكنها عند التطبيق الفعلي ـ بالنسبة للبلاد العربية خاصة ـ ليست الا الاستغلال والاستعباد والاستعمار . وكفرت بالشيوعية لانها تعلم يقينا بان دعاتها لا يؤمنون بمساواة الشعوب ، ونصفة المظلوم ، وهم لا يعدون الكذب رذيلة ما دام في سبيل نشر مبادئهم ، ويعتقدون كل وسيلة مبررة لتحقيق غاياتهم ، وينكرون القيم الروحية والاعتقادات الدينية ، وهم بعد ذلك ليسوا اقل جشعا وحبا للسيطرة من اعرق الدول في الاستعمار[1] ...

---

(١) اذيع هذا الحديث عام ١٩٥٠ وآثار الخيبة ، ومرارة الاندحار في فلسطين كانت لم تزل تمض في النفوس . وكانت روسية ـ كما هو معلوم ـ قد تعاونت مع الولايات المتحدة الامريكية في انشاء اسرائيل والاعتراف السريع بها . كما كان النظام الستاليني على شدته . اما بعد ان غيرت روسية كثيرا من معالم سياستها في الداخل والخارج فلم يعد

وينتظم هذا الفريق الثالث عددا غير قليل من المثقفين ثقافة صادقة ،

التصوير الذى صورت به بلاد السوفييت منطبقا اليوم تمام الانطباق على واقع الحال ٠

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فأنى قد دعوت الى سياسة الحياد الايجابى قبل ان تقبل هذه السياسة دول العالم الثالث بشكل صريح واضح ، وقبل ان تتبناها رسميا أى من الدول العربية حينذاك ٠ ثم انى كنت ـ ولم ازل ـ افرق بين « الشيوعية » و « روسية » ؛ الشيوعية من حيث هى عقيدة اقتصادية سياسية مستقرة ، وروسية من حيث هى دولة كبرى لها مصالحها وسياستها المتطورة حسب طبيعة الزمن وطبيعة الاشياء ٠ وكنت ادعو دائما الى لزوم التعاون سياسيا واقتصاديا مع روسية حتى في العهد الملكي كما اوضحت هذه النقطة بجلاء فى كتابى المعنون : ثورة العراق هل كانت حتمية ؟ وحينما انطيت بي المسؤولية في العراق احلت وجهة نظرى هذه الى واقع سياسي ملموس ٠ ولقد مهدت للصداقة السوفيتية والتعاون المخلص معها بالعـــديد من البيانات والاحاديث والاتصـالات والالتقاءات الدبلوماسية مع من يعنيهم الامر حتى وصل هذا الامر ذروته حين وجه الى السيد كوسجين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى دعوة لزيارة بلاده ٠ ولقد حققت زيارتى في الصيف الماضى لتلك البلاد نفعا عظيما للعراق ٠ فلاول مرة بعد ثورة ١٤ رمضان يغير الاتحاد السوفييتي سياسته بوضوح تجاه العراق ، ويستجيب لمطاليبنا الاقتصادية والتجارية والعسكرية بشكل جلى واضح ، ويعدنا باسداء العون في انشاء السدود على نهري الفرات ودجلة ٠ كما وافق الاتحاد السوفييتي على حل الكثير من الخلافات المستعصية المتبقية من عهد عبدالكريم قاسم ٠

ان السير على هذه السياسة يجب ان يبقى مدار علاقاتنا مع الاتحاد السوفييتي بل يجب ان ننمي تلك العلاقات ونزيدها قوة ٠ وانه لمن الجدير بالملاحظة والتأكيد هنا ان الاتحاد السوفييتي لم يطلب من العراق مقابل هذا التعاون انحيازا الى جانبه ٠ ان سياسة الاستمساك التام بالحياد الايجابى ، والرغبة الصادقة بالسلام العالمى العادل ، والعمل المخلص في داخل العراق لتحقيق وحدة الشعب كله في ظل ما اسميته بالاشتراكية الرشيدة الهادفة الى العدل الاجتماعى عن طريق زيادة الانتاج وعدالة التوزيع وانصاف طبقات المجتمع كلها ، والعناية التامة بالقطاعين العام والخاص ، اقول ان هــذه السياسة بالذات وجدت تفهما وقبولا لدى زعماء السوفييت الذين تجاوبوا تمام التجاوب مع الحكومة العراقية حينذاك ٠

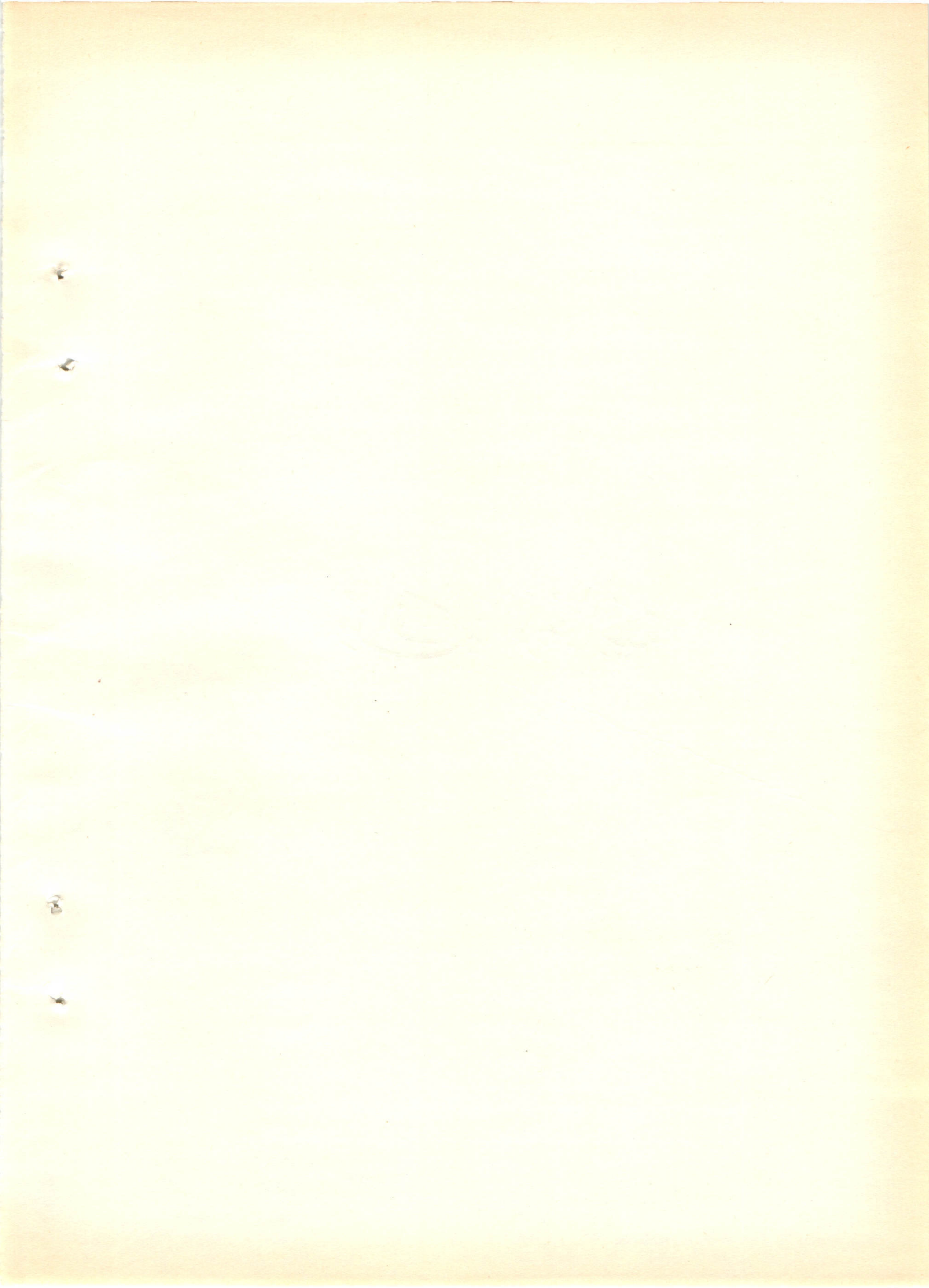
واليوم ، وبعد النكسة الاخيرة الخطيرة ، وبعد الموقف المشرف الذى وقفه ولم يزل يقفه السوفييت ، فأنى ادعو باخلاص الى مزيد من هــذا التعاون بين روسية والبلادالعربية كلها ، وأرىفيه ـ فيالمرحلةالراهنةخاصة ـ طريقنا الذى ليس علينا الا ان نسلكه ٠ واكثر من هذا فأنى انكر سياسة بعض الدول العربية المتزمة والتي تفرط في انتقاد روسية ، وتزعم انها انما تحاربها خوفا على عقيدة الاسلام ٠

المؤمنين ايمانا ثابتا بقوميتهم وعقائدهم ، الذين لا يريدون ان تركن بلادهم الى اولئك ولا الى هؤلاء بل تحتفظ بكيانها ومقوماتها واستقلالها • ولها بعد ذلك ان تتعامل مع هؤلاء او مع اولئك على قدم المساواة وبوحي من مثلها ومصالحها •

ولكن هـذا الفريق من ابناء الامـة العربيـة كان في اغلب الاحيان معرضا الى الاضطهاد من دول الغرب المسـيطرة على البلاد العربيـة ، ومن بعض الحكومات العربية الخاضعة لمشيئة الغرب • على ان هذا الفريق لا يزال يحتفظ برأسمال كبير هو ثقة جماهير الشعب به ، ذلك لان ابناء الامة العربية ، على الرغم من فقرهم وجهلهم ، لا يزالون يحتفظون في غالبيتهم ، بروح سليمة ، وحس صادق ، يستطيعون به ان يستشعروا الخير ، ويميزوا بين الصالح والطالح •

وغالبية العرب تدرك ، بوحي فطرتها ، بأن طريق الخلاص هو طريق هؤلاء ، وان الوجهة الصحيحة التي يجب ان يتوجه العرب اليها هو اتحادهم ، وتوحيد جهودهم في سـبيل خلق كيانهـم الخاص بهم ، وان يحتفظوا باستقلال هذا الكيان سياسيا واقتصاديا وثقافيا وروحيا ، وان يعملوا لخلق الابداع ، ونشر الروح السامية في هذا الكيان ، ليعيشوا كرماء ، اعزاء ، سعداء ••••

مِنْ آفاقِنا الاجتماعيّة



مشكلتنا الكبرى

التدني الخلقي [1]

قد يسأل سائل : ما هي مشكلتنا الكبرى موضوع حديث هذا المساء ؟ أهو « الجهل » الذي يخيم على عقول وأفكار أكثر ابناء الأمة العربية ، ويحول بينهم وبين ادراك اسرار هذا الكون ، والاستنارة بنور المعرفة الوهاج ؟ أم هو « المرض » المتفشي بينهم على اختلاف بيئاتهم ، والمتوطن منذ قرون عديدة في اقطارهم ، او الذي يفدهم بين حين وآخر من هنا او هناك ؛ ذلك المرض الذي يقضي في كل عام على آلاف وعشرات الالوف منهم ، والذين يبقى من يبقى في سقم دائم ، وهزال مخيف وضعف عصبي يجعلهم أقل قابلية على الانتاج المثمر ، وأقل استمتاعا بمباهج الحياة وملذاتها ، ويترك القليلين يرفلون بنعيم العافية ويتمتعون بجمال الصحة التامة ؟ أم هو « الفقر » المدقع الذي يقاسي منه أكثر أفراد الشعب في هذا القطر وغيره من أقطار العروبة ؛ ذلك الفقر الذي جعل حياتهم الاقتصادية في مستوى واطىء ، وحال بينهم وبين تحقيق مطاليبهم الاساسية الضرورية اللازمة لكل مخلوق حري بأن يطلق عليه لفظ الانسان ؟

---

(١) اذيع هذا الحديث من دار الاذاعة العراقية في بغداد في ١٣ تشرين الثانى ١٩٥٠ .

أهو « الاستعمار » الذي انشب اظفاره في جسم الامة وقطّع أوصالها ، وهدّ من قوتها ، وجعل منها عددا من الدويلات وأشباهها من امارات ومحميات ، وحال بينها وبين « الكيان الموحد » المحترم الخليق بأمة يبلغ تعدادها زهاء السبعين[1] مليون نسمة ، ذلك الاستعمار السافر في بعض اجزاء الوطن العربي ، والمقنع في البعض الآخر ، والذي يظهر اللين والمخاتلة والمصانعة حينا ، والشدة والبطش والتنكر في أحيان أخرى ؟

وقد يقول قائل : أفليس في انشاء « دولة اسرائيل » البغيضة في أعز بقعة من أرض العروبة ، وأهم منطقة فيها من كل النواحي الجغرافية والعسكرية والتاريخية ، يكمن الخطر الاعظم ، والمشكلة الكبرى ، والسرطان الذي يوشك ان يتسلط على جسم الامة كلها فيهدم كيانها ، ويقضي قضاءا تاما على ما تبقى من معالم العروبة ؟

ولست اشك ، ولا أحسب أن أحدا غيري يشك ، في ان الجهل مشكلة ؛ ومشكلة خطيرة ، وان المرض مشكلة ؛ ومشكلة عظيمة ، وان الفقر مشكلة ؛ ومشكلة مهمة ، وان هذه الاعداء الثلاثة تجب مكافحتها في كل قطر يريد العيش باطمئنان وسعادة . ولست أشك أيضا ، ولا أحسب ان احدا غيري من المخلصين يشك ، في ان الاستعمار مشكلة أساسية من مشاكلنا ، وان الصهيونية التي خلقتها دول الغرب المستعمرة وغذتها مشكلة على غاية من الخطورة ، وحرية بكل تنبه واهتمام .

ولكن مع هذا كله أرى أن هنالك مشكلة أهم من هذه المشكلات جميعا ، وهي أشد منها فتكا في كياننا ، واعظم خطرا على مستقبل أمتنا ، وهي التي سميتها بـ « المشكلة الكبرى » واعني بها « التدني الخلقي » الذي نحسه ونلمسه ونبصره بين كثير من أبناء هذه الامة في شتى اقطارها ، ومختلف طبقاتها ؛ بين شيبها وشبابها ، وبين رجالها ونسائها ، وبين عامتها ومثقفيها ، وبين عمالها وزراعها وتجارها وموظفيها على حد سواء ...

وقد عملت عوامل كثيرة على ايجاد هذا التدني الخلقي الذي نشكوا

---

(١) تعداد العرب اليوم يبلغ اكثر من مائة مليون .

منه امر الشكوى والذي لست الآن في صدد استقصائه ، ولكن مما لا شك فيه من أن الاستعمار الاجنبي ، والفقر ، والجهل ، والحروب ، والنكبات التي أصابت هذه الامة قد تضافرت جميعا فأدت الى هذه النتيجة المؤلمة التي توشك ان تؤدي الى الانهيار التام ...

وتتجلى مظاهر هذا الانهيار في ضعف الوازع الخلقي والوطني والديني ، وشيوع الكذب في مختلف مظاهره وصوره ، وتفشي روح الاثرة ، وانعدام الايثار ، وازدياد الانانية ، وتوارى الغيرية ، والتكالب الشديد على المنافع الذاتية ، والملذات الجسمية ، والانصراف عن المثل الرفيعة ، والمقاييس الروحية ... فكم هم الذين يعدون الكذب رذيلة فيتجنبوه ؟ وكم هم الطلاب الذين لا يغشون في الامتحانات حينما يتاح لهم ان يغشوا ؟ وكم هم الذين يصرحون بافكارهم ومعتقداتهم بلامواربة أو مداهنة ؟ وكم هم الذين يؤثرون غيرهم على انفسهم ويفكرون بالصالح العام قبل التفكير بمصالحهم الذاتية ؟ وكم هم الذين يتجنبون الملذات غير المشروعة بوازع من ضمائرهم ؟ بل كم هم الذين ينفقون الاموال للمحتاجين ، وفي انشاء الملاجيء ، والمدارس ، والمستشفيات بدلا من الحفلات الداعرة والولائم التي تقام لتكريم من لا يستحق غير التحقير ؟! ...

اننا بحاجة ولا شك للفرد المثقف ، الصحيح الجسم ، المكفى ماديا ، ولكننا ، قبل ذلك ، بحاجة للفرد السليم الروح المتين الخلق . وانه لمن الميسور ان نعلّم كل ابناء الامة العربية في فترة معينة من الزمن ، متى توفر المال اللازم ، ووجدت الحكومة العازمة . ونستطيع ان نقضي على المرض - الى حد كبير - بوسائل العلم الحديث ، وطرق الوقاية العصرية . ونتمكن من ان نحول فقرنا غنى ، وعسرنا يسرا ، نظرا لخصب بلادنا واحتوائها على كنوز معدنية ثمينة ، وذلك متي ما تخلصنا من الأجنبي واستغلاله لمواردنا وتدخله في شؤوننا ... ولكن ذلك كله لا يجدينا نفعا كبيرا ، أو على الادق ليس من طبيعة الاشياء تحققه ، ما لم ننشيء أولا الفرد الصالح ، القوي الايمان ، المتين الخلق ، المهيء لتحمل التبعات الجسام ...

ولست اريد للمواطن الصالح تحقق الفضائل السلبية من عفة ، ورحمة ، وصبر ، فحسب ، بل اريد له الى جانب ذلك الفضائل الأيجابيـة حتى يحسب الضعف ذلا ، والسكوت على المنكر ضلالا ، وتبديد أموال الدولة سرقة ، والركون للأجنبي خيانة ، والهروب من الواجب عاراً ... ولا بد لنا من ان نشيع في المواطن خلق الرجولة الحقة التي تمقت التخنث والتبرج ، وتعاف الدنايا ، وتعشق المعالي ، وتهوى الحضارة المفعمة بالروح الساخنة ، والعاطفة المتدفقة ، والحيوية المبدعة ، وتغرم بالبطولات ، ولا تركن للمدنية الفردية المادية المترفة التي لارواء فيها ولا بهاء .

ولسنا بدعا من الخلق فيما نشكوا منه من ظواهر التدني الخلقي ، فقد مرت أمم من قبلنا بمثل ما نمر به ، وقاست مما نقاسي الآن منه ، ثم استطاعت بعد حين ان تقيل عثرتها ، وتصحو من غفلتها ، وتقف بعد كبوتها . ان جوهرنا الأساسي لم يزل سليما ، على الرغم مما مر علينا من محن ، وما تعرضنا له من نكبات ، ولم تزل في هذه الامة بقية قادرة - لو اتيح لهـا الامر - ان تبني المتهدم من كياننا ، وتقوّم المعوج من اخلاقنا ، وتوصلنا الى محجة الامن والسلام ، وتعيدنا - كما كنا - قمناء بما وصفنا الله به في كتابه العزيز « كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عـن المنكر » .

اخــــلاق الرجولــة[1]

تحدثت في حديثي السالف قبل اسبوعين عما سميته بالمشكلة الكبرى ، وقصدت به مظـاهر الانهيار والتدني الخـلقي الذى نعـاني منه في مجتمعنا الحديث • وقلت بأن أهم ما نفتقر اليه اليوم ـ قبل العلم والصحة والرفـاه الاقتصادي والاستقلال السياسي ـ اخلاق الرجولة • فيكون من المفيد ، فيما أرى ، ان اوضح في حديثي هذا المساء ما اريده من اخلاق الرجولـة بشيء من الاسهاب •

وليس من الميسور وضع الصيغ المحدودة والتعاريف الجامعة المانعة ، لخلق الرجولة ، بل لست اعتقد ان ذلك لازم أو مجد في مثل هذا الحديث• ولعل أمثل طريقة هي عرض صور مجسمة حية لاخلاق الرجولة مستمدة من تاريخنا وتاريخ الأمم الاخرى • وبالتأمل في تلك الصور ندرك البون الشاسع بين ما هو كائن وما يجب أن يكون ، وبين الوضع المعوج والحال السليم •

فمن خلق الرجولة « الجرأة في الحـق » وصدق المشورة والتمسك بالعدل الى أقصى حدود التمسك • ولعل من أروع الامثلة في هذا الصدد ما اتصف به الفقيه العظيم « بابنيانس » الروماني التبعية ، والعربي الاصل • ويتجلى ذلك عندما طلب اليه الامبراطور « كريكولا » ان يحـر ر خطابـا يبرر فيه قتل الامبراطور لاخيه ليلقيه في مجلس الشيوخ الروماني • وقد

---

(١) اذيع هذا الحديث من بغداد في ٢٦ـ١١ـ١٩٥٠ •

قصد الامبراطور ان يخفف ، بفتوى هذا الفقيه ، من موجة الغضب التي اجتاحت المجتمع الروماني بسبب تلك الجريمة النكراء • ولكن الفقيه الكبير أجاب الامبراطور بجواب خالد : « ان تبرير جريمة قتل الاقـربـاء لهي جريمة أشد بشاعة من جريمة القتل ذاتها » • ولم يكن ذلك الفقيه العظيم ليجهل ما قد يؤدي اليه جوابه هذا ولكنه خلق الرجولة ، والتمسك العظيم بالحق ، أبيا عليه الا ان يكون صريحا • وقد أمر الامبراطور الطاغية بقتل الفقيه وابنه • ولكن الامبراطور كريكولا فنى ، وعفى الزمن على اسمه ، كما عفى على اسماء اباطرة كثيرين ، وبقى اسم بابنيانس خـالدا ؛ تتناقل الاجيال آراءه ، وتتدارس المعاهد كتبه ، ويعنى الباحثون بفتاواه • وصـار لقبه الرسمي في التاريخ الروماني « الفقيه الاعظم » وكان رأيه مقدما على آراء سواء من فقهاء العهد العلمي • وهو الذي قال عنه الفقيه الفرنسي الكبير « كوجاس » : « انه أعظم فقيه كان أو سيكون ، ومنزلته بين الفقهاء كمنزلة هوميروس بين الشعراء » •

ولنا اليوم ان نتساءل كم هم الذين يجرءون على مخالفة آراء ذوي الشأن والصولة ؟ وكم من المفتين والمستشارين من لا يحسـب في فتواه ومشورته حسابا لغير الحق والضمير ؟

ومن خلق الرجولة « الصرامة » في الحق ، والصدع بالعدل دون وجل أو محاباة • وابدع صورة تمثل هذا الخلق ما حدث لعمر بن الخطاب وعلي بن ابي طالب ، وذلك حينما أقام يهودي الدعوى على علي في عهد عمر • فلما جاء موعد النظر في تلك الدعوى صـاح القاضي عمر بصوت مجلجل : « قم يا أبا الحسن وقف الى جوار خصمك » • اذ من أول واجبـات القاضي ان يسوّي بين الخصوم في مجلسه مهمـا اختلفت منازلهم واقدارهم • ولقد ابصر عمر شيئا من التجهم في وجه عليّ حسبه ناتجا عن طلبه منه الوقوف الى جانب خصمه اليهودي • وما كاد يفرغ من دعواه تلك الا وسأل علياً عن سبب ذلك التجهم فأجابه بجواب عظيم : « لم يكن تجهمي لانك طلبت مني ان أقف الى جـوار خصمي الذمي ، ولـكنك حينما طلبت ذلك مني كنيتني « بأبي الحسن » وكان لزاما عليك ان

تناديني باسمي وكفى لان في الكنية تعظيما لي ، وقد يدخل ذلك في روع خصمي انك تحابيني ، وانا اشفق ان يتهم قاضي المسلمين بمحاباة أحد » .
ذلك هو خلق الرجولة في القاضي الفاضل والخصم العظيم ...

ترى كم من قضاتنا وحكامنا اليوم من يتمسك بآداب القضاء الى هذا الحد ، وكم من أصحاب المصالح والخصومات من يرضى بالتسوية التامة ويشفق ان يحابيه قاض كما اشفق عليّ .. ؟!

ومن اخلاق الرجولة « الصراحة » التامة وان أدت تلك الصراحة أحيانا الى غضب الغاضبين وازورار المزورين . واحسن صورة تتمثل في اخلاق زعيم الهند العظيم طيب الذكر غاندي ، فقد كان صريحا الى اقصى حدود الصراحة . وكانت صراحته ، وعمق يقينه بعدالة دعوته ، سر عظمته ، ومن أهم أسباب الفوز في حياته . ومن صراحته انه كان يعلن عيوب نفسه وعيوب أمته ويسعى في اصلاحها في نفسه وأمته . وهو لايخشى في صراحته تلك غضب المستعمر الغاصب ، او ثورة الجماهير الصاخبة . شعر ان نظام النبذ ، وابقاء طبقة المنبوذين ، أمر غير عادل فثار عليه ، وأعلن بطلانه ، على الرغم من تعارف الهنود عليه قرونا ، وتسليم الديانة الهندوكية به ، ثم أعلن الحرب الصريحة على كثير من عادات قومه كزواج الاطفال والزنا المقدس الذي كان الكهنة يجيزونه ويمارسونه . ولم يخش في آرائه وافكاره لومة لائم ، ولا أرهبته الجماهير الصاخبة ، أو القوة الغاشمة .

ترى كم بين مصلحينا وقادتنا وعلمائنا ومجتهدينا من يجرؤ على اعلان رأيه بصراحة من غير ان يحسب لشتى الاعتبارات ألف حساب ... ؟!

ولم تزل ترن في اذني كلمة قالها لي أحد رجال الدين وقد كنت اجادله في قضية اقنعته بوجهة نظري حولها ، وطلبت اليه ان يعلن هذا الرأي ما دام قد اعتقد به ، فما كان جوابه الا ان قال لي ما كان استاذه يقوله له في مثل هذه الحالة : « كنا نفتى بثالث الاحتمالات ونخشى العامة » . وكان جوابي عليه : أيجوز في شرع الله ان يخشى من يتصدى لنصح الامة وتوجيهها أحدا غير الله ؟!

ومن اخلاق الرجولة « الصلابة في الحق » والتمسك به كاملا .

ويصور لنا هذا الخلق زعيم ارلندة ورئيس وزرائها « ديفاليرا » احسن تصوير. فقد آمن بأن انكلترة كانت مغتصبة لبلاده ، هاضمة لحقوقها ، وكانت قد جنت عليها بتقسيمها الى ارلندة الشمالية ، وارلندة الجنوبية . فثار عليها وقبض عليه وحوكم مع باقي الزعماء ، وحكمت عليهم المحاكم البريطانية بالاعدام . ونفذ الاعدام فعلا فيهم عدا « ديفاليرا » الذي خدمته الصدفة ، اذ كان قد ولد في الولايات المتحدة الامريكية من أب اسباني وأم ارلندية ، وان نشأ بين أخواله في ارلندة أمريكي الجنسية . ولذلك كان يعتبر بالنظر الى القانون الامريكي أمريكيا فعمل السفير الامريكي في انكلترة جهده بتأثير الارلنديين المهاجرين الى أمريكا وخلصه من الموت المحقق ، ثم أتيح له ان يفوز ، وان يصبح رئيس وزراء ارلندة الحرة أولا ثم رئيس وزراء جمهورية ارلندة . وحاولت انكلترة مرارا عديدة أن تسترضيه وتستميله ولكنه بقى على صلابته ، لا يرجع عن أفكاره ، ولا يلين في أقواله ، ولا يترك فرصة لاعلان سخطه لعدوان انكلترة على بلاده الا استغلها أحسن استغلال .

واذكر في هذه المناسبة موقفه المشرف حينما تقدمت انكلترة الى عصبة الامم ، قبيل الحرب العالمية الاخيرة ، بمشروع تقسيم فلسطين بين اليهود والعرب . وكان ديفاليرا حينذاك رئيس الدورة لتلك المنظمة الدولية ، فوجد الفرصة مؤاتية للدفاع عن العرب وعن بلاده وعن الحق ، فأعلن بأن تقسيم أي قطر ، واقتطاع الغرباء جزءا منه ، يعتبر من ابشع الجرائم التي ترتكبها الدول الكبرى .

ولنا ان نتساءل مرة أخرى كم من زعماء الامة العربية وساستها من يبقى متمسكا بمبادئه داخل الحكم وخارجه ؟ وكم منهم من لا تنسيه المناصب الرفيعة ، والرتب الجوفاء ، والالقاب الفارغة مطالب قومه ؟!! .

هذه بعض صور أخلاق الرجولة قد اعقبها بصور اخرى وهى تمثل الجرأة في الحق ، والصراحة والصلابة فيه ، وهي صفات ليس لامة تريد العيش بعز وكرامة مندوحة عنها . انها اخلاق البطولة التي تكون التاريخ ، وتنشيء الامم ، وتخلد على الزمن ...

صور من اخلاق الرجولة[1]

وعدتكم في آخر حديثي السالف بعرض صور اخرى تمثل « اخلاق الرجولة » التي يمكن اجمالها ، في الجرأة والصرامة في الحق ، والصلابة وقوة العقيدة وعلو النفس وعزتها • وقد تخيرت ثلاث صور ، بل ثلاثة مشاهد مقتبسة من تاريخ أمتنا العربية في صدر الاسلام؛ تمثل الاولى الجرأة والصرامة احسن تمثيل ، وتصور الثانية الصلابة وقوة العقيدة ابدع تصوير ، وتعرض الثالثة علو النفس وعزتها أجمل عرض •

ولست ادري فلعلي قد اطلت عليكم الحديث في هذا الموضوع ، ولعلي بلغت بكم ، او ببعضكم حد السأم والضجر • ولكنني اعتقد ـ واحسب ان الكثيرين منكم يشاركونني معتقدي هذا ـ بأن اهم واجل ما نفتقر اليه في مجتمعنا العراقي الحديث خاصة اخلاق الرجولة الصلبة التي لا تتكسر ولا تتلوى ، المؤمنة التي لا تتذبذب ولا تداجي ، العزيزة الكريمة التي لا تذل ولا تتساقط عند التلويح بالمغريات ، وفي هذا يكمن بعض العذر في اطالتي التحدث في هذا الموضوع •

واول هذه الصور تمثل ذلك الشيخ الوقور النحيف الوديع الرقيق ابا بكر الصديق واذا به اشد بأسا من الليث الهصور ، وامضى عزما من

---

(١) اذيع هذا الحديث من بغداد في ١٣ـ١٢ـ١٩٥٠ •

الخفاف الصوارم ، وارسخ عقيدة من الجبال الشوامخ ، وكان ذلك يوم الردة ، يوم ان ثار الاعراب ، وارتدت معظم القبائل ، واضطرمت الفتنة ، حينما شاع نبأ التحاق النبي عليه السلام بالرفيق الاعلى • وقد امتنعت بعض القبائل عن اداء الزكاة ، وزعم بعضها الآخر انها لا تؤدي الزكاة الى ابي بكر بل لها ان تتصرف فيها كيفما تشاء • ثم اوشكت القبائل المتمردة ان تهاجم مدينة رسول الله ذاتها لتقضي على النظام الاسلامي من اساسه • وقد اشفق فريق من المسلمين من مغبة هذا الامر الخطير ، ورجوا ان تحل مشكلة القبائل المتمردة باللين والمسايرة ولو الى حين ؛ وكان على رأس هذا الفريق عمر بن الخطاب الذي قال لأبي بكر : « يا خليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم ••• كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فمن قال لا اله الا الله فقد عصم نفسه وماله الا بحقه ، وحسابهم على الله » •

ولكن ابا بكر ذا العزم الجبار قد صمم على قتالهم ، واعلن ذلك بصراحة تامة وقال : « والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فان الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عناقا[1] لقاتلتهم على منعها » • وقال يخاطب عمر : « ألم يقل النبي الا بحقه » • ثم اشتد الجدال بين الصاحبين العظيمين وتملك الغضب ابا بكر فصاح باعلى صوته : « يا ابن الخطاب ، رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك • أجبار في الجاهلية وخوار في الاسلام ؟ انه قد انقطع الوحي ، وتم الدين ، او ينقض وانا حي ؟ » • يا لها من كلمات جبارة تصدر عن قلب عظيم وعبقرية صادقة ، وياله من مشهد رائع تجلت فيه الرجولة ـ كل الرجولة ـ والصرامة ـ كل الصرامة ـ والعقيدة الراسخة ، والايمان القويم •

---

(١) العناق : الانثى من اولاد المعز • وقيل هو ما كان دون السنة من صغار المعز او الضأن • هكذا ورد قول ابي بكر في كتب الحديث المعتبرة كالصحيحين • وان ورد النص في بعض كتب التاريخ المعتبرة : « لو منعونى عقالا لجاهدتهم عليه » • يقول الطبرى في ص٤٧٦ من الجزء الثانى من كتابه المشهور تاريخ الامم والملوك : « وكان عقل الصدقة (اى ما تربط به من حبال ونحوها) على أهل الصدقة مع الصدقة » •

وقد كتب لابي بكر ان ينتصر ، وينتصر الاسلام بانتصاره ، ويقمع دابر السوء ، وتفيء الاعراب رغبة او رهبة الى حضيرة الاسلام الكامل من جديد ، ويخلد التاريخ اسم ابي بكر بين اعاظم الابطال وافذاذ الرجال ..

قال ابو رجاء البصري « دخلت المدينة فرأيت الناس مجتمعين ، ورأيت رجلا يقبل رأس رجل ويقول له : انا فداؤك ، ولولا انت لهلكنا . قلت من المقبل ومن المقبل ؟ قالوا هو عمر يقبل رأس ابي بكر في قتاله لاهل الردة اذ منعوا الزكاة حتى اتوا بها صاغرين » . وقد علق أحد كتاب العصر على هذا المشهد فقال : « وكأن عمر قد وضع بشفتيه شفاه المسلمين جميعا على ذلك الرأس الجليل يوم انحنى عليه بالتكريم والتقبيل » .

والصورة الثانية تمثل ذلك المولى المستضعف « بلال ابن رباح » وقد شرح الله صدره بنور الاسلام ، فاحتمل في سبيل عقيدته ما لا سبيل الى احتماله ، واظهر من الصلابة وصدق اليقين ما جعله بين الخالدين . فقد غضب سيده أمية بن خلف من اسلامه ، وهم بقتله ، لولا ان اوصاه عمرو بن هشام ـ او كما صار يكنى فيما بعد « ابو جهل » ـ بألا يقتله بل يعذبه حتى يرجع عن اسلامه ، ويثوب الى ما يحب سيده ، وليكون مثلا لغيره من الغلمان والاماء والموالي . فصار امية يسومه العذاب الوانا ، يرسله مع الصبيان وهم يضربونه وينكلون به في اليوم القائض وفي وقدة الهجير ، وقد اجاعه واظمأه حتى يكاد يهلك فيلقيه على الرمضاء ، وقد قيد رجليه ، وشد يديه الى ظهره ، ووضع حجرا ضخما على صدره وهو يقول له : لتهلكن او لترفضن ما تابعت محمدا عليه . فلا يزيد بلال عليه الرحمة على ان يقول : أحد أحد . فيزداد غيض سيده ، ويزداد قسوة الى قسوته في تعذيبه والتنكيل به . ولكن الجوع والعطش والقيد والتنكيل والحر والألم لم تثن بلالا عن عقيدة الأيمان باله واحد احد ، الى ان قيض الله له أبا بكر الذي ساءه ما رآه من حاله فاغرى سيده امية واشتراه منه بسبعة أواق ، واعتقه حرا في سبيل الله . ثم نال بلال شرف الصحبة والمرافقة للنبي عليه السلام واصبح داعي السماء يردد النشيد القدسي بصوته العذب الحنون فيملأ الكون روحانية وسكينة .

وقد هلك امية ، وهلك هشام بن الحكم ، كما هلك مئات من سادات قريش وصناديدها ، وعفى الزمن على ذكرهم • وهم حينما يـــذكرهم التاريخ انما يذكرهم بسيئاتهم ومساوئهم • اما بلال وامثال بلال من اصحاب العقائد الراسخة فقد خلدوا ما خلد تاريخ الانسانية • يقرأ سيرته المسلمون وغير المسلمين[1] فيعجبون جميعا بها كل الاعجاب •

اما الصورة الثالثة فهي ليست لخليفة من خلفاء المسلمين ، ولا لمؤذن من مؤذني النبي ، ولكنها لشاعر من ثقيف نشأ في جاهليته ، كما ينشأ انداده من ابناء الطائف المترفين يعاقر الخمر ، ويغازل النساء ولكنه مع ذلك كان رجلا حرا شريفا عزيز النفس ابيها • وقد اسلم حينما اسلمت ثقيف في العام الهجري التاسع ، ولكنه كان قد شب عن الطوق ، كما تقول العرب في امثالها ، وتأصلت به عادة معاقرة الخمر • وقد شرب وتغزل في عهد عمر فاقام الحد عليه ، ولكن معاقبته قد اثارت كبرياءه وجرحت عزة نفسه ، وصار يعتقد ان من العار عليه ان يترك الخمر خوفا من العقوبة وهو الشجاع الابي ، ولذا شرب ثانية وثالثة ورابعة ، وكان يحد عندما تقوم البينة على سكره ، حتى ضاق به عمر ذرعا وهم بنفيه الى جزيرة موحشة كانت العرب في جاهليتها تنفي اليها خلعائها • ولكنه استطاع ان يفر الى العراق حيث الحروب المستعرة بين الجيوش العربية بقيادة سعد ابن ابي وقاص وجيوش الدولة الفارسية • ولكن عمر الساهر على مصلحة الامة ، الدقيق في تصرفاته ، سمع بخبره ، فما كاد الشاعر يصل العراق حتى وجد ان اخباره قد سبقته الى سعد • فأمر سعد - تنفيذا لاوامر عمر - بحبسه في قصره بعد ان قيده بالحديد • وكان الشاعر الفارس يبصر الحرب الدائرة في القادسية بين الطرفين وتطمح نفسه الكبيرة في ان يشارك في هذا الفخار العظيم ، فيرجو سعدا بذلك فيخيب رجاءه ، ثم يستعطف سلمى زوج سعد فلا تلين لاستعطافه ، فينشد في سجنه بنغم حزين :

---

(١) اثارت حياة بلال ، وعقيدته الراسخة اعجاب الاديب القصصي الانكليزي لفكاديو هيرن Lafcadie Hearn فكتب عنه فصلا طريفا بعنوان « المؤذن الاول » تجد ترجمته في آخر كتاب الاستاذ عباس محمود العقاد « داعي السماء » بلال بن رباح •

كفى حزنا ان تطعن الخيـل بالقنا

واترك مشـدودا عليّ وثاقيـا

اذا قمت عناني الحديد وعلقـت

مصاريـع من دوني تصم المناديا

وقد كنت ذا مال كثير واخـوة

فقد تركونـي واحدا لا اخاليـا

هـلم سلاحي لا ابالـك اننـي

أرى الحرب لا تزداد الا تماديا

ولله عهـد لا أخيس بعهـده

لئن فرجـت الا ازور الحوانيـا

فلما سمعته سلمى اشفقت عليه ، واستخارت صدق وعده ، فاطلقت سراحه ، وأخذ « البلقاء » فرس سعد فاقتحم الصفوف ، وخاض غمار الحرب ، وحمل على العدو حملات منكرة ، وابلى بلاء حسنا ادهش العرب والعجم .

ثم لما وضعت الحرب اوزارها في منتصف الليل عاد الى سجنه ووضع بيده الحـديد في رجليه . وفي الصباح علم سعد بأمـره وأعجـب ببلائه وبطولته ، وفك وثاقه ، وعاهده الا يجلده بعد اليوم اذا شرب ...

ولـكن شاعرنا أبا محجن الثقفي رجل امتلأت معـالم الرجولـة في شخصه ، عزيز النفس تهزه الأريحية ولكنه لا يخاف العقاب ، فتحركت فيه مشاعر الرفعة وأطمأن الى كرامته فقال لسعد :

« كنت آنف ان أتركها من أجل الحد ، فاما اذ تبهرجني فلا والله لا أشرب » . وقد كان على حد قوله لا يخيس بعهده ، فلم يعرف عنه ، طيب الله ثراه ، ان زار حانة بعد ذلك أو شرب خمرا .

هذه بعض صور الرجولة ومشاهدها منتزعة من تاريخنا وهو تاريخ لو تدبرناه مليا لوجدناه حافلا بأمثال هذه الروائع الخالدة التي تهز المشاعر الرفيعة في كل انسان سويّ .

الفرديـــة[1]

« الفردية » التي اتخذتها عنوانا لحديثي هذا المساء ، والتي اعتبرتها ويعتبرها الكثيرون غيري ، آفة من أشد آفاتنا الاجتماعية خطرا ، هي نقيض الجماعية ، وهي مظهر من مظاهر الانعزالية المضادة لروح التعاون والتضامن • وخلق الفردية ـ بهذا المعنى ـ طبيعة تغلب ، عادة في الجماعات غير المتحضرة التي يعتمد الفرد فيها على مواهبه الخاصة ، وملكاته الذاتية ، ولا يستعين أو يتعاون الا مع أفراد عائلته وخدمه ورقيقه الذين هم بحكم أفراد عائلته • وقد تطغى روح الفردية أحيانا في ظل بعض المدنيات المترفة ، والبيئات المنحلة ، والارستقراطية الكاذبة ، التي لا تجد فيها روح الحضارة المتدفقة ، أو التضامن القوي ، أو الجماهيرية المخلصة • والروح الجماعية لا تتجلى عادة الا في المجتمعات المتحضرة الراقية التي تبلغ مرحلة من التقدم بحيث يشعر الفرد ، كل فرد ، مهما بلغت ملكاته ، وتعددت نواحي نشاطه ، واتسعت امكانياته انه اعجز من ان يعيش عيشة رفيعة مجدية دون التعاون مع الآخرين في مختلف مجالات الحياة وآفاقها • وعلى هذا نستطيع القول بأن الفردية سجية بدائية ، أو ظاهرة خلقية غير مشرفة ، وهي على كل حال لا تصلح للحياة العصرية المتشعبة النواحي ، البعيدة الاغوار ؟ وهي من دون

(١) اذيع هذا الحديث من بغداد في أواخر عام ١٩٥٠ •

أدنى شك ، لا تستقيم مع حياة أمة تروم النهوض والتقدم ، ولا تصلح الا للذين يريدون ان يعيشوا على هامش الحياة ، لا يعنيهم صلاح المجتمع ، ولا يهمهم خير الجماعة وسعادتها ...

على ان بعض صفات الفردية لازمة ومهمة لتحقيق التقدم ، وتنمية روح الابداع والتبريز ، وهي بهذا المعنى ، صفة مرغوب فيها ، ولازمة لبعض الأفراد ، ولذلك دعى اليها بعض الفلاسفة والمفكرين ، وجعلها بعض المربين لازمة في انشاء الفرد الصالح .

ولكن الفردية تصبح خطرا اجتماعيا عظيما اذا وصلت الى الحد الذي يحول دون تعاون أفراد المجتمع ، وبلغت المرحلة التي تحطم الانسجام فيما بينهم ، وعندئذ تنعدم روح التضامن ، وتطغى الغرائز الفردية من استئثار ، وأنانية ، وانتهازية ، وهذا هو بعض ما نشكوا منه في مجتمعنا الحديث ، وفي بلدنا هذا على الاخص .

ولست بطبيعة الحال أقدر في حديثي هذا على ان اسهب في ذكر مظاهر الفردية ، وتبيان آثارها السيئة ، ولكن اكتفى بعرض سريع لبعض نتائجها .

فالفردية هي من أهم أسباب تأخرنا الاقتصادي ، لانعدام المشاريع الاهلية الكبرى ، وشركات المساهمة ، وجمعيات التعاون الانتاجية والاستهلاكية ، ونحن نعلم كم هو أثر تلك المشاريع والشركات والتعاونيات في انهاض الشعوب ، ورفع مستوى الافراد الاقتصادي ورفاههم المادى[1] !!

واذا ما تركنا الناحية الاقتصادية جانبا ، وابصرنا الناحية الاجتماعية العامة ، فان من أبرز نقائص مجتمعنا الحديث هو ضعف أثر الهيئات والجمعيات والنوادي ، على اختلاف أنواعها في حياة الامة العامة بالقياس الى الامم الحية اليقظة ، وذلك لان روح الفردية تجعل الاقبال على المؤسسات العامة ضعيفا ، ثم ان طغيان تلك الروح يجعل انتاجها محدودا ، ومفعولها جزئيا ، وحياتها قصيرة . فكم هي المؤسسات والجمعيات والنوادى التي لم تعش الا سنين معدودة او شهورا قليلة ، بينما مر على انشاء بعضها في بلاد

---

(١) حدث بعض التطور لحسن الحظ في هذه الناحية .

الغرب أجيال وقرون وهي تقوى يوما بعد يوم ، وسنة أثر سنة حتى أصبح بعضها كالصروح الراسخة في المجتمع • وقد بلغ أعضاء بعض النوادي والجمعيات عشرات الالوف ومئاتها ، وصارت وارداتها السنوية تحصى بمئات الألوف أو بالملايين •

ومن المدهش حقا ان نجد بعض المؤسسات والنوادي تتألف لاسباب تافهة أو لمناسبات عرضية ، وتبقى مع ذلك في اداء مهمتها • فقد تكون في لندن مثلا « نـاد » باسم نـادى Mary Smith أو « مريم الحـداد » والرابط الاساسي بين أعضاء هذا النادي هو الاسم المشترك • فقد تقدمت مائتا فتاة ، تدعى كل منهن باسم Mary Smith على انشاء هذا النادي ، وما يزال لهذا النادى نشاطه وفعاليته • أرأيتم الى أي مدى تطور المجتمع هناك ، والى أي درجة وصلت روح التعاون والتكتل ؟! فاذا كان هذا الحادث العرضي ، وهو توافق الاسماء بين عدد من الفتيات مبررا لتكوين ناد يظهـر فيه الانسجام بين عضواته ، ويقوم بنشاط وخدمات لا بـأس بها ، فكم حرى بفتياتنا وفتياننا ان يؤسسوا النوادي والجمعيات ، ويقضوا بذلك على القبولات والمقاهي وكثير من آفـات المجتمـع ، ويؤلفـوا بين جهودهم ، للخدمة العامة التي نحن في أمس الحاجة اليها[١] •

وفي بلدنا هـذا افراد كثيرون ، هم اذا أخذ كل واحـد منهم على الانفراد ، تجلت مواهبه وشخصيته الممتازة ، ولكن من المؤلم حقا ان هؤلاء الأفراد الممتازين لا يعملون مجتمعين شيئا ، وتطغى عليهم الروح الفردية ، ويبقون أكثر حياتهم سلبيين لا يحسنون غير النقد والتشكي ، ولا يؤثرون الا أتفه الاثر في حياة الامة العامة • ويمـكن تشبيه حـالة هـؤلاء الافراد بالآلات الموسيقية ، فقد يكون كل منهم بمفرده كالكمان أو كالعود أو القيثارة أو البيانو ، قد يحدث نغما حلوا هادئا ، ولكن الموسيقى الخالدة لن تتأتى الا من مجموعة « اوركسترا » تتكون من الآلات الموسيقية المنوعـة

---

(١) تكونت ـ لحسن الحظ ـ بعض النوادى والجمعيات بعد الحرب العالمية الثانية وهى قائمة ببعض الخدمات المجدية •

تصدح بانسجام ، وتوافق فتحدث الانغام العلوية القويـة التي تهز السامعين وتثير المشاعر •

واذا ما تركنا الناحية الاجتماعية ونظرنا الى حالتنا السياسية الداخلية ، أمكننا ان نرجع عدم نجاح الحياة الحزبية وتأخرها في بلادنا الى العوامل السياسية الاخرى • فأكثر الساسة على الرغم من اتحاد غاياتهم ، واتفاق مبادئهم ، لا يرتبطون بمنظمات واحزاب سياسية واضحة المبادىء والغايات ، لأن ذلك سيؤدي الى ذوبان انانياتهم ونزعاتهم الشخصية ، ولأن ذلـك سيحول دون الانتهازية التي هي من أخطر مظاهر الفردية • ولا تجد اليوم في أي بلد ديمقراطي آخر يتكون أكثر نوابه من المستقلين ، كما هو مشاهد في أكثر مجالسنا النيابية ، ولا يجوز في عرف الديمقراطية الحقة ان يبقى هذا العدد الهائل من النواب والوزراء ورجال السياسة مستقلين ، بل يقضي منطق الاشـياء ان ينضموا الى أحـزاب وكتل ، وأن يعـلنوا مناهجهـم ، ومبادئهم وطرق السعي لتحقيقها ، ويتعاونوا فيما بينهم على تحقيق اهدافهم العامة التي يهدفون اليها •

ان الفردية لا تتناسب مـع الحياة العصرية ، ولا يمـكن ان تؤمـن متطلباتها ، فعلى المخلصين ان يوجهوا الاجيال القادمة الى « الجماعية » ويشيعوا « الغيرية » التي تحب التعاون ، وتأنس بتحمل التبعات ••• وكم نحن بحاجة الى ان نحي معنى بيت الشاعر الجاهلي الذي قال :

وهل أنا الا من غزية ان غـوت

غويت وان ترشـد غزية ارشـد

كم نحن بحاجة ان نجعل « غزية » هذه المجتمع بكامله ، والامـة بتمامها ، فنشعر بأن رشد الفرد برشد مجتمعه ، وصلاحه بصلاح أمته ، وسعادته من فيض سعادتها ••

وكم نحن بحاجة الى القضاء على الروح الفردية البدائية التي لا تعرف الانسجام والتنظيم ، والتضامن !! •••

الكـــذب[1]

في مجتمعنا الحديث آفات عديدة ، وعلل متنوعة ، هى اشدّ فتكا في حياة الامة ، وأعظم خطبا على كيانها من الاوبئة والامراض المتوطنة • ومع هذا فقد وجدت في بلادنا وفي اقطار العالم اجمع مؤسسات ومعاهد ومستشفيات لمكافحة هذه الاوبئة والامراض ومعالجة المصابين بها • وقد وفقنا ـ لحد ما ـ للقضاء على بعضها ، واضعاف مفعول البعض الآخر ، وتحديد نطاق بعض انواعها • ولكن مع ذلك فقد بقى كثير من الآفات والعلل الاجتماعية تنخر جسم الامة وتهد بنيانها ، وتكاد تقضي قضاء تاما على ما تبقى من معالمها ومقوماتها • بقيت تلكم الآفات والعلل من غير مكافحة او وقاية حقيقية ، فازداد مفعولها ، واستشرى شرها الى حد لا ادرى كيف اصفه •••

وفي الحق فان امراضنا الاجتماعية ، واسقامنا الروحية ، وآفاتنا الخلقية، عديدة ومتشعبة الاغـوار • ولست الآن في صدد استقصائها جميعـا او التحدث عنها ، وعن آثارها السيئة في حياة الافراد والجماعات ، ولكنى ساقصر حديثي هذا المساء على واحد منها هو ، من دون شك ، من اشدها فتكا ، ومن اعمقها خطرا ، واعنى به « الكذب » ، وقد اعود للحديث عن البعض الآخر في مناسبات اخرى ••• والكذب صفة ذميمة عرفت مذ عرف

---

(١) اذيع هذا الحديث من بغداد في ١١ـ١ـ١٩٥١ •

العالم ، ووجدت المجتمعات ، ولكنه قد شاع فينا في السنوات الاخيرة خاصة شيوعا مروعا ، وشمل مختلف نواحي حياتنا ، وتجلى في مظاهر متنوعة ، وتوغل بين شتى طبقات المجتمع وبيئاته • فقد عم الصغار والكبار ، النساء والرجال ، العمال والزراع والتجار ، المثقفين والجهال ، سكان المدن وسكان القرى والارياف على حد سواء ، حتى لا يكاد المرء يجد طبقة او بيئة بقيت بكاملها سليمة من هذا الداء الوبيل ، ولا عبرة بالآحاد والشواذ • اذ العبرة كل العبرة في المجموع والاغلبية • وانه لمن المؤسف حقا ان يتوغل هذا الوباء الى مناطق وبيئات كانت الى الامس القريب بعيدة عن هذه المباءة ، محصنة عن هذا الداء الاجتماعي الخطير بسياج منيع من العقائد والاخلاق والتقاليد • ولكن الوازع الديني قد ضعف ، وانعدمت المثل الروحية الرفيعة او كادت ، وتدهورت المقاييس الخلقية تدهورا كليا • هذه العوامل مضافة الى العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الاخرى تضافرت جميعها فأدت الى استفحال الامر الى هذا الحد المروع الذى ينذر بشر مستطير •

ولست اريد ان اغالي فأهول الامر البسيط ، واجسم الخطر التافه ؛ اذ ان هذه حقيقة قد تجلت لكل ذى بصيرة ، ولقد لج العارفون منها بأمر الشكوى • فكم من عمالنا اليوم من يصدق في عمله اذا عمل ويفي بوعده اذا وعد ؟ وكم من فلاحينا وزراعنا من يستهجن الكذب ويلتزم الصدق في قوله وفعله ؟ كم من نسائنا من تتقيد بالصدق كل التقيد وتنشىء اولادها على حب الصدق والفضيلة منذ نعومة اظفارهم ؟ بل كم من رجالنا وشباننا من اذا حدث صدق ، واذا وعد اوفى ، واذا أؤتمن لم يخن ؟ كم من تلاميذ المدارس وتلميذاتها وطلاب الكليات وطالباتها من يصدق في درسه فلا يغش في الامتحانات والاختبارات ؟ وكم من موظفى الحكومة واصحاب المهن الحرة من يصدق في معاملاته مع المراجعين ، ويصدق في الاخلاص لوظيفته او مهنته ، فلا يداجي ولا يحابي ولا يمين ؟ •

وكم من رجال السياسة واصحاب الزعامات من يعلن ما يعتقده من غير مواربة ولا مخادعة ، ويصدق في نياته واقواله وافعاله ، ويبقى محافظا

على آرائه وتصاريحه ووعوده وان تغيرت الظروف والاحوال ؟

ان الاجابة على هذه الاسئلة تدلنا دلالـة واضحة على ان الصادقين في هذه البلاد يكادون يعتبرون بحكم العدم ، وانهم الاستثناء الذى لا تبني عليه قاعدة ...

هذه هى الحقيقة المرة التى ليس من الحق ، ولا من المصلحة في شيء ، نكرانها والمماراة فيها . انها حقيقة يجب ان نعلنها ونتدبرها ونسعى - كل في دائرة اختصاصه ، وضمن امكانياته - لتلافي هذا الوضع المحزن المؤلم . وكل فرد وكل انسان قادر - ان صدقت العزائم - على ان يعمل شيئا . فالام الفاضلة قادرة على ان تحبب الصدق لابنائها وبناتها ، وتنشئهم على حب هذه الفضيلة وتغذيهم بها ، وسبيلها ، السبيل الصعب ، ان تكون هى صادقة في كل اقوالها وافعالها ، فتصبح القدوة والمثل الاعلى الـذى يحتذى . والمعلم والمعلمة قادران على نشر فضيلة الصدق بين الطلاب والطالبات ، بان يكون كل منهم انموذجا حيا لصدق القول والفعل ، فتجد هذه الفضيلة ، بطريق الوحي والتأثير المباشر وغير المباشر ، سبيلها الى نفوس الطلاب والطالبات وارواحهم . وكل رجل قادر على ان ينشر الصدق مهما كان عمله او مركزه ، فهو قادر على نشره في بيته بان يكون صادقا ، يعاقب الكاذبين من افراد اسرته بكذبهم ، ويجزي الصادقين بصدقهم ، وهو ان كان صاحب مصنع او رب مزرعة قادر على نشر الصدق بين عماله وفلاحيه واتباعه ، بان يحسن معاملتهم ولا يظلمهم حقوقهم فيضطرهم الى الكذب والى ما يجر الكذب وراءه من رياء ومخاتلة .

والساسة والزعماء قادرون على تعميم الصدق والقضاء على الكذب والتدجيل بين اتباعهم ومريديهم ، وذلك بان يحـاربوا هذه الرذائل في انفسهم ، وان لا يسرفوا في تصاريحهم وعهودهم ، وان يواجهوا الحقائق بصراحة وجرأة ، فلا يضطرون الى ان يسرفوا في التملص وايجاد المعاذير الواهية والحجج الهزيلة حين يعجزون عن تحقيق سالف عهودهم واقوالهم .

والحكومة - كل حكومة - قادرة على القضاء على اهم اسباب الكذب

ودواعيه ، وذلك بايجاد نظم حرة يستطيع كل انسان في ظلها ان يعلن رأيه بصراحة ، ويعمل على تحقيق اهدافه وغاياته بطرق سلمية من غير جبر ولا اكراه ، ومن غير ان يلجأ الى المخاتلة والكذب . والحكومة قادرة ايضا على نشر الصدق ، بأن تلتزم الصدق في اقوالها وافعالها وبياناتها ، وبتشجيع الصادقين ومعاقبة الكاذبين ، وافساح المجال للتنافس الحر من غير محاباة او تمايز ، واشاعة روح الطمأنينة بين الافراد والجماعات ، وتبديد المخاوف والاوهام التى هى من اهم عوامل الكذب .

وانى لاعلم ان بعض الكاذبين سيبقون في كل مجتمع مهما كان نوع حكومته ومهما كانت ثقافة افراده ومنازلهم الخلقية ، ولكن تلك الطبقة الصغيرة من الكاذبين ستجد عندئذ من شعور الاشمئزاز ونفرة المجتمع رادعا كافيا ، وهى لن تصبح ـ على كل حال ـ خطرا كليا على حياة الامة ذاتها . ولكن مجتمعنا اليوم يعيش فيه الكذابون ـ على اختلاف انواعهم ، وتباين مراتبهم واقدارهم ـ عيشة ليس فيها ما يشعرهم انهم منبوذون من المجتمع وغير خليقين بالتمتع بنعمه وخيراته ، بل يحظى بعضهم في مجتمعنا الهزيل المريض ، برعاية كاذبة وتكريم مصطنع ، يشجعهم احيانا على التمادى في غيهم ، والزهو في كذبهم وغطرستهم ...

علينا ان نعلم ـ ان كنا لم نزل جاهلين ـ بان اية امة من امم الارض لن يكتب لها الفوز والسعادة الحقيقية بتقدمها في النواحى المادية والاقتصادية والسياسية والعسكرية فحسب ما لم ترتفع مع ذلك ، بل وقبل ذلك ، بسويتها الخلقية . والصدق عماد الاخلاق ، ورأس كل الفضائل . وان من أهم اسرار تقدم بعض الامم والشعوب التي نعجب بها هو شيوع الصدق فيها . صدق عمالها وزراعها فاتقنوا صناعتهم وزراعتهم ، وصدقت همم علمائها فجدوا وثابروا وصبروا واوجدوا من المكتشفات والمخترعات ما ليس لغير الصديقين والصابرين سبيل لاكتشافه واختراعه ، وصدقت نساؤهم فأنجبن أولادا رضعوا الصدق مع لبن أمهاتهم ، وصدق ساستهم وقادتهم فمحضوهم النصح ، وسلكوا بهم سبل السلام ، ولم يستأثروا دونهم بالنعيم

والملذات ، ويتركوهم يقاسون آلام الفاقة والحرمان ، ويتخبطون في وهاد الجهل والتدني .

ما اعظم حاجتنا اليوم الى صدق التفكير ، وصدق القول ، وصدق المظهر ، وصدق العمل !! وما احوجنا الى ان نهوى الصدق كما هواه المتنبي شاعرنا العظيم ونردد معه :

ومن هوى الصدق في قولي وعادته

رغبت عن شعر في الرأس مكذوب

فرغب عن كل قول مكذوب ، او مظهر كاذب ، ومقت كل عاطفة مصطنعة لم تصدر عن قلب مفعم بالود الصادق .

وما اجدرنا قبل ذلك ان نتذكر ونتدبر هذا الحديث الشريف :

« ان الصدق يهدي الى البر ، وان البر يهدي الى الجنة ، وان الرجل ليصدق حتى يكون صديقا . وان الكذب يهدى الى الفجور ، وان الفجور يهدى الى النار ، وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا » .

مقالة السوء[1]

مقالة السوء هي صنو الكذب الذي تحدثت عنه في حديثي السالف واعتبرته اخطر ادوائنا الاجتماعية واشد آفاتنا الخلقية فتكا ؛ بل انه فرع من اصله ، ومظهر من مظاهره . ومقالة السوء تعمل في تحطيم الاشخاص والمؤسسات والمجتمعات اشد من فعل النار في الهشيم . فكم من رجل قضى عليه تماما نتيجة لقول السوء ، وهمز الهمازين المشائين بنميم . وكم من امرأة تحطم مستقبلها وفقدت الحياة الزوجية الهنيئة السعيدة بفعل التخرصات الباطلة وبفعل ناشرى الاراجيف وناشراته . وكم من اسرة تمزق شملها او ذهب ريحها بفعل كلمة عابرة يسيء فهمها ثم استغلتها الاغراض المبطلة وشوهتها ألسن الذين لا يملكون ذمما تتأثم ، او نفوسا تحس بوخز الضمير . بل كم هى الهيئات والجمعيات والاحزاب والشركات والمؤسسات العامة التى فقدت اعتبارها ، واضاعت مركزها وتحطم كيانها ، لا لذنب اقترفته ، ولا لسوء نيتها ، بل لاستغلال خصومها بعض تافه هفواتها وتجسيمها ، ونشر مقالة السوء فيها من اشخاص لا يرعون الا ولا ذمة ، ولا يعرفون معنى للصدق والانصاف .

هذه حقائق نعرفها جميعا ، ونبصر كثيرا من ضحاياها في كل يوم بل في كل ساعة . ولكن القليلين منا مع ذلك من يكف عن قول السوء ،

---

(١) اذيع هذا الحديث من بغداد فى النصف الاخير من الشهر الاول من عام ١٩٥١ .

ويمسك لسانه من التوغل في اعراض الناس واحوالهم الخاصة وشؤونهم الذاتية •

واقل من القليل من لا يتحدث فى امر من هذه الامور الا للضرورة القصوى ، والا بعد التثبت والعلم اليقين • هذا على الرغم من ان أكثر الاشخاص يشكون أمر الشكوى ، ويقاسون أشد المقاساة من آلام هـذا الداء الوبيل •

وقد زادت المخترعات الحديثة ووسائل النشر والاذاعة وطرق العلانية في خطر هذا الوباء زيادة هائلة • اذ من المعلوم بان حب الاستطلاع واستقصاء الاخبار والحوادث طبيعة تكاد تكون غريزة في اكثر الناس • ثم ان حب معرفة احوال الناس الخاصة وشؤونهم الذاتية عادة ملازمة لكثير من الافراد في مختلف المجتمعات والبيئات • ولكنها عادة تقوى وتضعف نسبة لانحطاط المجتمع وتقدمه • ومن الملاحظ ايضا بان اقوال السوء واخبار الفضائح وتتبع العورات اكثر شيوعا واسرع انتقالا الى آذن السامعين والسامعات • وعلى الرغم من كون معظم اقوال السوء والفضائح مبالغا فيها ـ ان لم تكن باطلة ومفتراة من حيث الاساس ـ فانها تجد هوى في نفوس اكثر الناس • ولقد زادت الجرائد والمجلات والصور والمطبوعات والسينما ومحطات الاذاعـة ووسائل النقل والمخابرة في تجسيم هذه الظاهرة وتضخيم خطرها • وانه لمن المؤلم حقا ان نستعمل تلكم المخترعات والوسائط لاغراض لا يمكن وصفها بانها اغراض رفيعة ، اذا لم يقتصر استعمالها على نشر العلم والمعرفة ، واشاعة الحقائق والفضيلة وتعميم التسلية البريئة والترفيه المباح ، بـل تعدتها في احيان كثيرة الى اشاعة الكذب الضمني او الصريح ، وتعميم اقوال السوء المفتراة او المبالغ فيها •

ولم يقتصر ذلك على الشؤون الخاصة المتعلقة بالافراد او الهيئات في مجتمع من المجتمعات ، بل تعداه الى الافق الدولي ، وصار قول السوء والدعايات المغرضة والاراجيف الكاذبة من اهم الاسلحة الحديثة التى تركن الدول اليها في حالتي السلم والحرب على حد سواء •• فكم حملت الصحافة ووسائل النشر والاذاعة كثيرا من دول العالم في القارتين الاوربية الامريكية

بصورة خاصة على تشويه الحقائق ونشر المفتريات على العرب وحكوماتهم ، وكم جسمت من اخطائهم ونقائصهم - ولكل امة اخطاؤها ونقائصها - ، وكم هولت من مصائب اليهود ، وروجت من دعايات الصهيونية ، وكم اقترفت من آثام في طمس الحقائق وتشويه الوقائع .

وقد ادركت الصهيونية اهمية هذا السلاح الخبيث الفتاك قبل غيرها ، واستغلته الى أقصى حدود الاستغلال ، ووجدت لها من نظم الدول الغربية او مطامحها واتحاد غاياتها مشجعا ومعينا . وقد توغل النفوذ اليهودى العالمى المادى والادبى والفني توغلا عميقا في مختلف نواحي النشر والعلانية وطرق الدعاية والتضليل . حتى لا تكاد تجد صحيفة كبيرة - مهما كان لونها السياسى - او مجلة منتشرة ، او دارا للطباعة والنشر ، او معهدا او شركة لاصدار الافلام او تمثيل الروايات ، او مكتبا للاخبار والانباء ، الا ورؤوس الاموال اليهودية والنفوذ اليهودى بصورة عامة ظاهر فيها كل الظهور ، وهم يسيّرون تلك المؤسسات والشركات لتحقيق اغراضهم القريبة والبعيدة وتشويه سمعة خصومهم ، والحط من اقدارهم ، والافتراء عليهم . وقد وفقوا في باطلهم هذا ايما توفيق ، ولذلك فان كثيرا من الرجال والنساء من غير اليهود يعتقدون - بحسن نية - بصدق ادعاءات الصهيونية ويعطفون عليها ، وهم لو اتيح لهم ان يطلعوا على الحقائق لنقموا عليها اشد النقمة . ولست اريد ان افيض في عرض هذه الناحية ، اذ انها حرية بحديث خاص ، ولكنني لمست اثر الدعايات الصهيونية قبل الحرب العالمية شخصيا في انكلترة وفرنسا وبلجيكا وسويسرة وغيرها من الاقطار الكبيرة والصغيرة . وهذا المثال بمفرده يرينا خطر الدعايات الباطلة ونشر مقالة السوء ، وكيف انها لا تقف عند تحطيم الافراد والهيئات في الوطن الواحد بل تتعداه الى تحطيم الامم والشعوب ايضا .

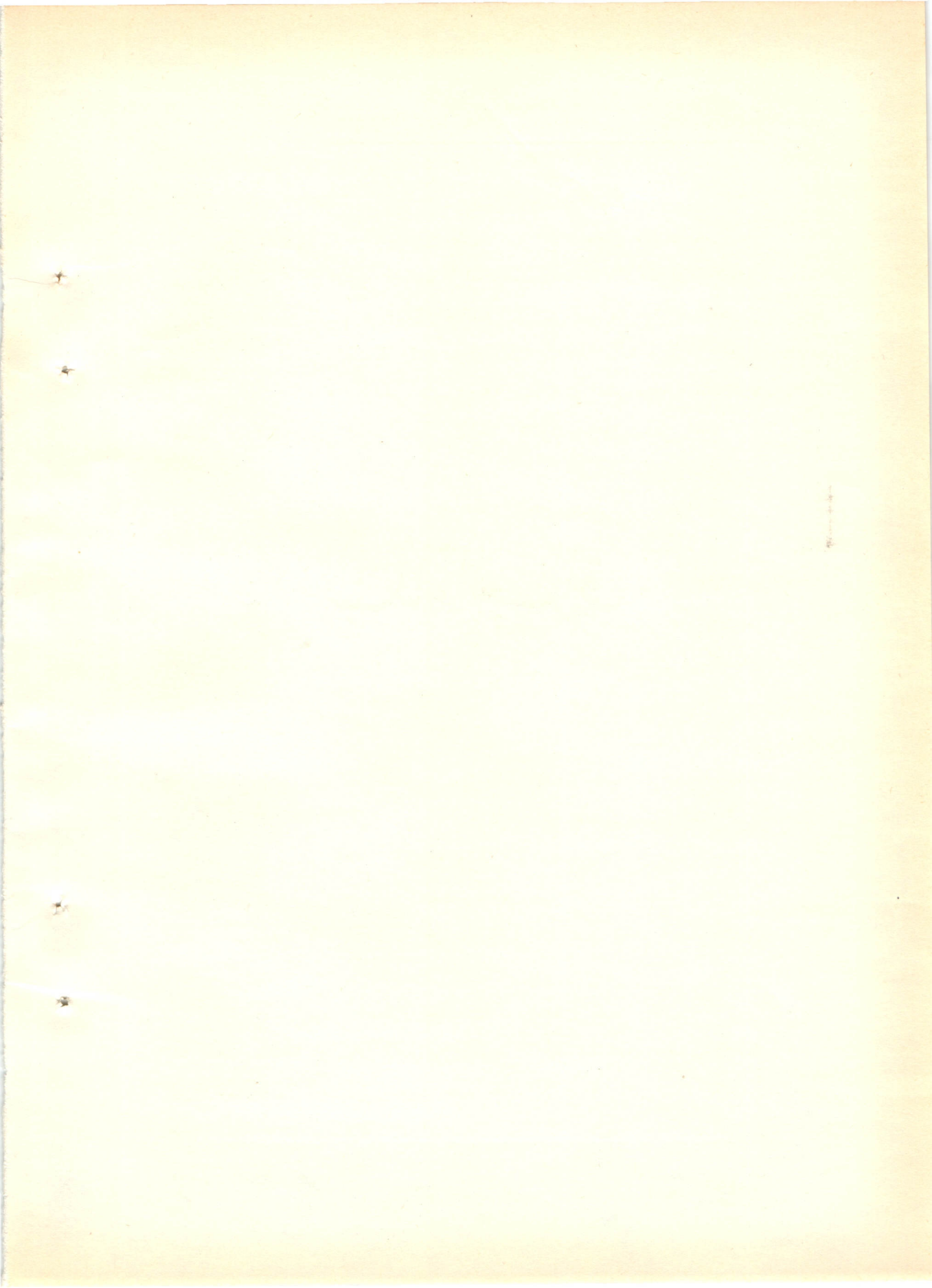
وعلام نذهب بعيدا . أفلا نبصر أثر قول السوء ونحس به في مجتمعنا - في مجتمعنا هذا الذى نعيش فيه في يومنا هذا - أفلا نسمع ونبصر كيف تنتشر اقوال السوء ، واراجيف المرجفين ، ودعايات المغرضين انتشارا مروعا ، فيزيد ذلك في اسباب الفرقة والجفاء بين ابناء الوطن الواحد ، والامة

الواحدة ، تلك الفرقة وذلك الجفاء اللذين لن ينتفع منهما هؤلاء واولئك ، ولن يفيد منه غير الاجنبي الغاصب واسرائيل المتربصة • وعجيب امرنا بعد هذا كل العجب ، ولست ادرى كيف جاز لنا ان نجهل هذا الامر البديهي ؟ ولست ادرى ايضا كيف سوغنا لانفسنا ان نتمادى في هذا الغي ، وهذا الضلال ، ونزعم بعد ذلك ان الاسلام ديننا واننا مسلمون ؟ وهذا كتاب الله ينطق بالحق ويحذرنا اعظم تحذير : « يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » • واي فاسق أحرى بالتنبه واجدر بان نتبين امره ، ممن يريد ان يوقظ الفتنة ويثير النعرات ، ويقسم الامة ، وليس له من وراء ذلك مطلب غير تحقيق مآربه الذاتية وتطمين حزازاته الشخصية •

ما اجدرنا ان نتأدب بأدب نبينا ، ونتنصح بنصحه ، فلا نقول الا خيرا ، او فلنسكت • وما احرانا ان نتذكر قوله عليه السلام « ان ابغضكم الى الله المشاؤون بالنميمة ، المفرقون بين الاخوان ، المتلمسون للبراء العثرات » •

وكم يجمل بناء ان نتدبر هذا الحديث الكريم ، بل هذا المشـهد الرائع ، من الحوار البديع بين النبي وواحد من صحابته ؟ « معاذ بن جبل » وقد اخذ يوغل في بعض حديثه ، فصاح النبي الكريم به : كف عليك هذا ••• قال معاذ : يارسول الله وانا لمآخذون بما تنطق به السنتنا ؟ فقال عليه السلام : « ثكلتك أمك يامعاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم الا حصائد السنتهم ؟ » •

نِداءُ العِراق

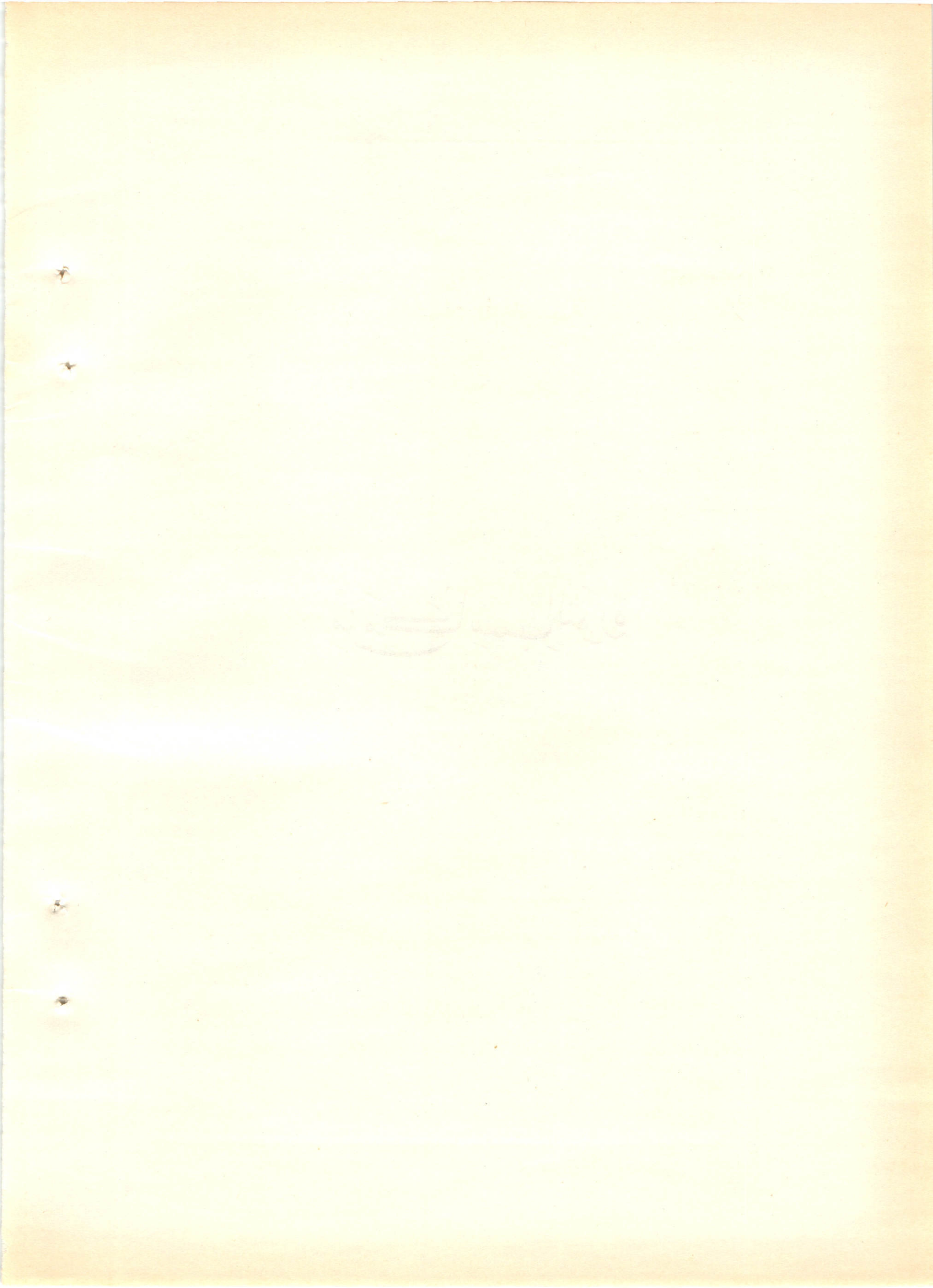


حين كنت مقيما في القاهرة كنت اسهم ، بالتعاون مع فريق من العراقيين الاحرار الآخرين ، بالمنهاج العام المعنون : « نداء العراق » الذي كانت اذاعة صوت العرب قد أعدته لمخاطبة العراقيين في أثناء حكم عبدالكريم قاسم بعد ان تأكدت ردته ، وزال أمل القوميين فيه نهائيا . ولقد القيت عددا من الاحاديث في أواخر عام ١٩٥٩ ، وخلال عام ١٩٦٠ احتفظت ببعضها ، وليس لدي اليوم البعض الآخر . ولقد وجدت من المفيد أن انشر ما لدي من هذه الاحاديث في هذا الكتاب الذى عنونته « نظرات في التربية والاجتماع والقومية » لان في تلك الاحاديث تصويرا لحياة العراق الاجتماعية يومذاك ، وعرضا لواقعه السياسي ، وتحليلا للمشكلات التي كان يلاقيها العراق من وجهة نظر القوميين . وعلى الرغم من الطابع الخطابي الذي يعنى بانتقاء اللفظ الرنان ، ويلتزم التكرار المؤثر ، والتبسيط الذى يتناسب مع ملكات كل مستمع ، مع هذا كله فقد اشرت في طيات أحاديثي الى كثير من الافكار والآراء التي قد يجد فيها القارىء اليوم فائدة ، بل لعل في بعضها في هذا الوقت بالذات لشعبنا كله عبرة أيما عبرة ...

وأني لاحس – بعض الشيء – ان طابع تلك الاحاديث لا ينسجم تماما مع الروح التى اصدر عنها اليوم خاصة ، وان في بعضها بعض الغلو الذي لا يأتلف مع طبيعتي العامة أصلا . ولكن مع ذلك يجب ان نتذكر المكان والزمان والظروف العامة التى احاطت بنا في تلك الفترة العصيبة ، ولذلك يحسن بمن يقرأ هذه الاحاديث ان يقيّمها في ظل ذلك الجو الخانق الذي كان يعيش فيه عراقنا يومذاك .

لقد حذفت بعض العبارات البسيطة ، واغفلت بعض الاسماء التى لم تعد هناك مصلحة او غاية عامة من ذكرها ، كما استبدلت بعض الالفاظ بغيرها مما اتصور انه اكثر مناسبة لطبيعة هذا الكتاب .

مِنْ مَكَاسِبِ الثَّوْرَة



اتحـــاد الطلبـــة

اريد ، ايها الاخوة ايتها الاخوات ، ان اتحدث في نداء العراق هذا بسلسلة احاديث عن مكاسب الثورة . تلك المكاسب التى طالما سمعنا الصحف الحمراء خاصة تلهج بذكرها ، وطالما سمعنا اذاعة بغداد تعددها وتكررها في مناسبة وغير مناسبة ، بل وكثيرا ما منّ (الزعيم الاوحد) على الشعب بها ، وذكّره ببعضها بين حين وآخر ، وكان لسان حاله بل لسانه أحيانـا يقول : « لولاي لما اتيح للعراقيين ان يحصلوا على كذا ، ولولاي ، لما تحقق لهم كذا وكذا ، ولولاي لما تحررت هذه الفئة او تلك » . وعلى العموم فلولاه لم يرفل العراق بالنعيم الذى يرفل فيه ، ولولاه لما تحقق للعراقيين الشعار الخالد (وطن حر وشعب سعيد ....) .

وأريد ان ابدأ حديثي عن اتحاد الطلبة بمناسبة انتخابات اتحـاد الطلبة ، ولمرور عام على انشائه .

وقبل هذا يجب ان نعترف ، خدمة للحق ، بان العهد البائد كان قد فرط بحقوق الطلاب ، وحقوق الناشئة عموما ، وأن من الحق ان نعلم أن كثيرا من وزراء المعارف[1] قد ضيقوا على الطلاب ولم يرعوا فيهم الا ولا ذمة . وانهم كانوا غير مدركين طبيعة الزمن ومتطلباته ، وأساءوا بذلك لانفسهم ، كما اساءوا الى هذا الوطن كله ، بالاساءة الى اجياله الصاعدة ، وذلك لاتباعهم سياسة الكبح والاضطهاد ...

ولذلك فقد كان طبيعيا ان يغتبط الاحرار بزوال العهد البائد ، وكان

---

(١) صار اسمه اليوم وزير التربية .

طبيعيا ان يستبشر رجال التربية والتعليم كل الاستبشار حين أخذ العهد الجديد على نفسه عهدا في العناية بشؤون الطلاب والمنظمات الطلابية . وكانت فكرة تكوين اتحاد للطلاب مجمعا عليها . ولكن التشريعات لهذا الغرض اعدت من فئة صغيرة اخذت تحتكر لنفسها دون سواها هذه الشؤون ، وصارت تصوغها منذ البداية صياغة خاصة حولت هذه المؤسسة الطلابية من أول مراحلها الى واجهة من واجهات الحزب الشيوعى العراقى العديدة . وبدأ الرفاق يجدون لتحقيق كسب حزبي ليمكنوا من شيوع نظرية معينة ، تهدف الى غايات لم تعد خافية على احد .

ولما شعروا ـ على الرغم من ضغطهم الشديد ، وخداعهم الخادع ، ونفوذ بعض الجهات الرسمية التى كانت تعمل سرا وعلانية لمصلحتهم ـ ، بتوازن القوى ، وادركوا أن طلاب البعثات العربية هم ـ في غالبيتهم العظمى ـ قوميون ، وان اصواتهم قد تؤثر في نتيجة المعركة ، استعملوا احد اسلحتهم الخفية فضغطوا على رئيس الجامعة الدكتور عبدالجبار عبدالله (وكان حينذاك رئيسا بالوكالة) وكان حريصا على كسب ودهم لتثبيت مركزه . وهو بعد ان لم يكن من الرفاق الاقحاح ، فهو من دون شك ، من رفاق الطريق ، كما يقول الغربيون . وفوق ذلك فان شعوبيته الذاحلة تجعله مؤهلا تلقائيا للاستجابة لهذا المطلب الرفاقي العظيم . فاصدر قراره بمنع الطلاب العرب من الاشتراك في الانتخابات . وحين بلغني هذا النبأ اتصلت به تلفونيا وقلت له ان هذا القرار خاطىء من الناحية القانونية ، وهو مسىء من الوجهة التربوية ، وهو على كل حال يعارض الحياة الجامعية كل المعارضة ، كما انه ليس من اختصاصه هو وحده ان ينفرد باتخاذه ، ورجوته ان يعقد مجلس الجامعة للبحث فيه على الاقل . فتعالى واستكبر ، ولكنه بعد ذلك خضع تحت ضغط الطلاب القوميين وتهديدهم بالاضراب والامتناع عن المشاركة فى الانتخابات ، خضع لعقد جلسة للنظر في هذا الامر .

وجرت مناقشة حادة في مجلس الجامعة لم تخل من عنف ، وكنت أول المتحدثين . سردت الحجج القانونية ، وتلوت النصوص التى توجب

مشاركة الطلاب جميعا في الانتخابات ، وكان ملخص ما قلته : « ان النص قد ورد مطلقا بـ (الطلاب) دون وصف او قيد ، وان المطلق يجرى على اطلاقه ما لم تقم قرينة على التقييد صراحة او ضمنا . وان العرف الجارى في الجامعات الحرة الا يميز بين طالب وطالب بسبب جنسيته . واضفت الى هذا قائلا : اذا كان لابد من منع الطلاب الاجانب من الانتخابات فيجب ان يكون ذلك مقصورا على الطلاب غير العرب كالايرانيين والاتراك والباكستانيين (وكان في العراق عدد منهم يدرس في مختلف الكليات) ولا يصح ان يشمل المصطلح (اجنبي) العربي غير العراقي . واستدللت على ذلك بمنشور لمجلس الوزراء كان قد اصدره بعد الثورة مباشرة ، يمنع اطلاق كلمة اجنبي على المواطن العربي » ...

وبعد جدال طويل اتخذ قرار اجماعي مآله السماح للطلاب جميعا بالمساهمة في انتخابات اتحاد الطلبة . وبينما كنا في انتظار طبع هذا القرار لنشره وتصحيحه دق جرس التلفون في قاعة الاجتماع ، واخذ رئيس الجامعة يجيب النداء بصوت متهدج متقطع ، وبدأت على وجهه امارات الاضطراب . وما كاد ينتهي من حديثه التلفوني (وكان الذى يكلمه فيما علمت هو وزير المعارف بالوكالة) حتى خاطب المجلس بلهجة يائسة تدعو للرثاء : « يبدو اننا تعجلنا في اتخاذ هذا القرار ... ان رأى الحكومة وسياستها الا يشترك الطلاب العرب في انتخابات اتحاد الطلبة ... » وساد المجلس على أثر سماع هذه البيانات ، صمت رهيب قطعته بصوتي الساخر وانا اخاطب رئيس الجامعة وزميله فيصل السامر[1] : « الجامعة حرم آمن » . أليس كذلك يادكتور فيصل ؟ أليس في هذا دليل استقلال الجامعة ، وعدم تدخل السياسة في شؤونها ؟ فاضطرب السامر واجاب بأجوبة لاعلاقة لها بالموضوع . وبعد ذلك تمتم (هو والدكتور عبدالجبار عبدالله) بكلمات مآلها انهما سيذهبان لاقناع الجهات الرسمية بالرجوع عن رأيها ، والتمكين

---

(١) كان يومذاك مديرا عاما في وزارة المعارف وممثلا للوزارة في مجلس الجامعة .

لقرار الجامعة من التنفيذ ، وبالنتيجة صيانة الجامعة من التدخل ... ولكنهما ذهبا ولم يعودا . وبقى قرار الحرمان قائما . وبقيت جلسة الجامعة هذه سرا لم تدخل محاضر الجلسات بصورة رسمية .

وحرم الطلاب العرب من الانتخابات ، واضرب الطلاب القوميون جميعا ، وجرت انتخابات التزكية ، وفاز الشيوعيون والشعوبيون واذنابهم بلا منافس ، وكانت نسبة المصوتين في كلية الحقوق دون الـ ٤٠٪ من مجموع الطلاب ، وكان معدل نسبة المصوتين في الكليات عموما في هذه الحدود . وفاز الرفاق وبدأ نشاطهم الطلابي ، وكان أول مطاليبهم هو منع الـ (٦٠٪) من الطلاب الآخرين من أي نشاط ، وقصر النشاطات عليهم وحدهم دون سواهم .

وكان لرفضي ادخال الطلاب الشيوعيين في كلية الحقوق بلا مراعاة لاحكام النظام ، ورفضي عقد امتحان خاص للذين كانوا قد طردوا خلال الاثنين والعشرين سنة الماضية في غير موعده المحدد في النظام من اسباب الاحتكاك الشديد بيني وبينهم .

ولكنني تسجيلا للتأريخ اقول ان اتحاد الطلبة قد نجح في تحقيق هذا المطلب الطلابي العظيم ؛ فما كدت اترك عمادة كلية الحقوق بعد منتصف العام الدراسي حتى افتى رئيس الجامعة بانه يجوز ان يعقد امتحان خاص لامثال هؤلاء الطلاب في غير موعده الذى نصت عليه قوانين الجامعة وانظمتها . وقد عقدت تلك الامتحانات فعلا ، واصبح من كان فى الصف الثانى فى الصف الثالث ، ومن كان فى الصف الثالث فى الصف الرابع ومن كان فى الرابع قد تخرج . وطبيعى ان ينجح هؤلاء فى الامتحانات .

ان بطولاتهم وكفاحهم الوطني الشريف ، من مبررات هذا النجاح ، وهكذا أنهوا سنتين في اقل من سنة دراسية واحدة . وويل لكل استاذ (سخيف) بقى يرعى حرمة النظام ، وقواعد العلم ، ويحول دون نجاح هؤلاء الابطال !

على ان من الحق علي الا ابخس دور اتحاد الطلبة فى تأديب

(الخونة والمارقين والرجعيين) وخاصة بعد حوادث الموصل الدامية ، وكيف انهم قاموا بادوارهم البطولية في السحل والضرب والتعذيب والسجن ، ناهيك عن الاهانات والشتائم الموجهة الى الطلبة والاساتذة الـذين لايشاركونهم معتقداتهم السياسية •

هذا وكان اتحاد الطلبة يكوّن عنصرا فعالا في المقاومة الشعبية ، وفى اوجه النشاطات المختلفة الاخرى •

ولم يكن اتحاد الطلبة ليرضى بهذه الانجازات العظيمة بل شعر أن من واجبه الا يكتفى بتحرير الكليات والمعاهد ومطاردة (الخونة) فيها وحسب ، بل ان واجبه ليتعدى الى المجتمع كله • ولذلك وضع مخططه المشهور لمدينة بغداد وقسمها الى قطاعات اشار اليها باشارات مختلفة والوان مختلفة ووضع علامات خاصة على كل دار مشبوهة ، وصنف هؤلاء اصنافا فبعضهم يسحلون ، وترفّق بالبعض الآخر ، فقرر ان يقتلوا قتلا • كذلك قرر ان تنسف (دور) على من فيها وبما فيها ، وترفق بدور اخـرى فاكتفى بتمكين الشعب ـ صاحب الحق ـ من الاستيلاء على ما فيها •

وبعد فهذه صورة مجملة لانجازات اتحاد الطلبة ؛ واتحاد الطلبة هذا من دون شك ، احد انجازات هذا العهد الخطيرة ، التى جعلت العراق حقا بلدا حرا ، واحالت العراقيين شعبا سعيدا !!

نقابـــة المعلمين

سأتحدث اليكم في نداء العراق الليلة ـ ايها الاخوة وايتها الاخوات ، فى عراقنا الحبيب ، وفى كل دنيا العرب ـ سأتحدث اليكم عن مكسب جديد من مكاسب الثورة ، واعنى به نقابة المعلمين • وقبل هذا ، ارى ان الحق يستدعينا بأن نعترف بان العهد البائد قد فرط في شؤون النقابات عموما ، ولم تقتصر اساءته فى ذلك الى ذوى المهن المعنيين ، بل اساء ، من دون شك ، الى الشعب كله اذ اضعف التنظيم النقابى ، واضعف الحياة الديمقراطية الصحيحة ، التى يعد التنظيم النقابى من أول اسسها ، واقوى دعائمها •••

ولم يكن عجيبا ، والحالة هذه ، ان يغتبط المفكرون ، وان يغتبط الاحرار عموما ، بانشاء النقابات ، وتمكين ذوى المهن الرفيعة من مهندسين ، واطباء ، ومحامين ، ومعلمين وغيرهم ، من ممارسة حقوقهم ، وخدمة ابناء مهنتهم ، وبالنتيجة خدمة المجتمع كله • ولكن قانون نقابة المعلمين قد أعدته زمرة صغيرة معلومة في خفاء ، وصيغ صياغة معينة تهدف الى غايات معينة ، وكأنه ، « كدستور بعض الدول » قد قدّ ليناسب جسما معينا بالذات • فحين اعلن عن اجراء الانتخابات لنقابة المعلمين احتكرت الهيئة المؤسسة وسكرتيرها الموقت سلطات واسعة ، ووزعت بطاقات الانتساب على المؤيدين ، ومنعت عن كثير ممن يشك في ولائهم • وتوسع في تفسير النصوص الواسعة حتى شمل « مصطلح المعلم » فريقا من المضمدين والممرضات والكتاب في المدارس والمعاهد وديـوان الـوزارة ، بل وحتى بعض عمـال التلفـون

والمستخدمين والفراشين • وقد سبقت الانتخابات تعبئة كلية في ديوان وزارة المعارف ، وفى مديريات معظم الالوية خارج بغداد ، كما شملت ادارة المدارس الثانوية والمتوسطة وبعض المدارس الابتدائية • ونشط فريق من المفتشين والمفتشات بالدعوة لمن تستروا وراء تعبير « القائمة المهنية الموحدة » الذين هم لم يكونوا في واقع الحال ، غير واجهة من واجهات الحزب الشيوعى العراقى ، استطاعت ان تضخم عددها ، وتلف حولها عددا من الانتهازيين والافاقين والعنصريين ، والحاقدين على العروبة والامة العربية • وقد اعقب التحضير حملة دعائية منظمة ملأت الجدران والشرفات وعربات النقل العامة والخاصة باللافتات والشعارات المعلومة ، واستعملت الابـواق ومكبرات الصوت ، وصارت بعض السيارات العسكرية ـ بتوجيه وامرة (الحارس الامين) •••••• ـ تقوم في واجبها المقدس لتثبت من جديد حياد « الزعيم الاوحد » في هذه الانتخابات ••

وحين حاول فريق من « اعضاء الجبهة القومية » القيام بشىء من الدعاية بوضع لافتة على سيارة خاصة اقتيدت السيارة وصاحبها الى وزارة الدفاع للتحقيق معه لقيامه بما يفسد « حرية الانتخابات » • اما المئات من فتيان الحزب الشيوعى وفتياته ، ممن تطوعوا لتثقيف الشعب وتمكينه من اختيار مرشحى نقابة المعلمين اللائقين ، فلم يتعرض لهم احد بسوء لانهم كانوا يقومون بواجب وطنى مقدس ، يخدمون به الديمقراطية والسلم والزعيم الاوحد •••

وعلى الرغم من كل وسائل الضغط والارهاب ، وعلى الرغم من كل طرق التزوير والتصنيع واللافتات ، فقد فازت القائمة القومية بنحو من ٤٢٪ من مجموع الاصوات • وكان من المعقول والطبيعى ان يكون لهم عدد مناسب من الممثلين ، كما تقضى بذلك طريقة الانتخاب بالقائمة ، ولكن الرفاق ابوا • وحاولت وزارة المعارف اول الامر ان تستفتي جهة قانونية تستنير برأيها فى هذا الشأن ولكن المديرين العامين ومديري الاقسام فى ديوان وزارة المعارف (وغالبيتهم العظمى من الرفاق ، او من رفاق الطريق)

حالوا دون يتم شيء من ذلك واصبحت النقابة ممثلة بعدد كامل ١٠٠٪ من الجبهة الوطنيـة الموحـدة او على الادق « الجبهة الشيوعية العراقية المفرقة » ••••

وما جرى فى بغداد ، جرى في خارجها ، بل جرى ما هو ابشع من ذلك ، كما حدث في مدينتي « الرمادي وكركوك » وفي كثير من الالويـة الاخرى فقد فزع القوميون من نفـوذ الشيوعيين وطغيانهم ، فآثروا ان يتغيبوا • وكان عدد المصوتين فى الديوانية وكربلاء مثلا دون ال ٥٠٪ ممن لهم حق التصويت ، وكان عدد المصوتين في الناصرية والعمارة نحوا من ٣٥٪ فقط ممن لهم حق التصويت •

وعلى الرغم من هذا كله بقيت نقابة المعلمين تزعم انها الممثلة الشرعية الوحيدة لالوف من المعلمين في العراق كله ، وبقيت خلال عام تقوم بقسطها الوافر في المسيرات ، والمظاهرات الشعبية وارسال برقيات التأييد والمطـالبة باشراك الحزب الشيوعى في الحكم ، وتوجيه اللوم للاحزاب التى آثرت الاستجابة لمطلب الحكومة في تعطيل النشاط الحزبى في اثناء فترة الانتقال •• وقام فريق من البارزين من اعضاء النقابة بدورهم الفعال في التثقيف الحزبي القائم على لزوم اشتراك الحزب الشيوعى العراقى فى الحكم • كما كان لبعضهم الآخر شأنه فى حملات التأديب التى عمت مدارس العراق بعد ثورة الموصل فى ٨ آذار (مارس) كما هو معلوم •

ومهما يكن من أمر فسيبقى الحفل الذى اقامته نقابة المعلمين بعد الفوز ابتهاجا بهذا النصر المبين ، وترفيها لسيادة الزعيم العظيم ، اجل اعمالها ••• وتجمع الرفاق والرفيقات ، وفريق صغير آخر من غيرهم ، في بهو امانة العاصمة • وجاءت البشرى : ان الزعيم سيصل عما قريب ، وتدافع الرفاق والرفيقات بالاكتـاف ، واشرأبت الاعنـاق ، وسـرعان ما علت الحناجر بالهتافات المدوية بحياة السلم ، والديمقراطية ، والحرية ، والتنظيم النقابي ، وحياة الزعيم العبقري الفذ المنقذ ، وتجمع في وسط القاعة عدد كبير من الفتيات من المعلمات والطالبات ، بأزيائهن المتبرجة الاخاذة ، وروائحهن

العطرة المثيرة ، ووجوههن الملونة المصنعة ، تجمعن كانهن في عرس حول (معشوق الملايين) • وفجأة اخذن ، بصوت واحد ، يطالبن ، ويلحفن بهذا المطلب الانسانى السامى الذى يتناسب ، ولاشك ورقة الانوثة ، ولين الفتاة •• اعدم اعدم اعدم اعدم •••• اعدم اعدم اعدم يا زعيم •••••

ورافقت الاصوات العذبة ابتسامات وحركات واستعطافات وغنج ودلال ••• مما هو حري بأن يثير المشاعر والخواطر ••• فما كان من الشاعر العظيم ؟ الشاعر الانساني الكبير ، الشاعر الحر الكريم ، الذى لم يتكسب قط بشعره ، الشاعر الذى لم يقف قط على اعتاب الملوك والامراء والوزراء بل والاقطاعيين ، الشاعر الذى يصح فيه القول المشهور « تموت الحرة ولا تأكل بثدييها » ، الشاعر الذى لم يغدق عليه العهد البائدالمخصصات السرية ولم يمنحه الاقطاعات الخصيبة فأخذ هذا الرفيق يستعطف الزعيم العظيم الرقيق وهو يقول : رق يا سيادة الزعيم الكريم الاوحد لحالهن ، واستجب لمطلبهن ، وانت انت ذو القلب الانسانى الرقيق الذى لا يرد رجاء لمرتج ••••••••

وابتسم سيادة الزعيم العبقرى ابتسامته الصفراء التى كانت ، والحق أقول ، تخفى وراءها معان عظام •••••

وكان لسان حاله يقول : مسكينات انتن ، مسكينات انتن ، لو انني اعدمت بعد هذه الهتافات المؤثرة فسيقول قائل انه استجاب لما طلب منه غيره • وانا المبدع ، وانا العبقرى ، انا الذى لا يأتى بغير الحادث البكر • انا •• انا ••• انا فكيف يتناسب ذلك معي ، واين اين ستكون « المباغتة » مباغتة الاعداء ، بتكتيكى الناجح ، وسلاحى الرهيب ••••

ثم قال فى نفسه : اننى سأعدم ، ولكن لابد اول الامر من ترك هذا النداء ، وعدم الهتاف به ، والمطالبة به من احد ••••

وادرك الرفاق ، وادركت الرفيقات ، هذا السر الرهيب ، وتركوا هذا المطلب الجماهيرى العظيم ، ولم يعودوا ليهتفوا به ، ليحققوا للزعيم «الاوحد» نصرا جديدا ، ومباغتة من مباغتاته العديدة ، من هذا الطراز ••••• !

وحان الموعد المرتقب ، واوحى للزعيم شيطانه أن قد آن الاوان ..
لقد تصدع نفوذك ، وهتك المتهمون الشجعان حرمتك ، واصبح هذا القرد الذي يمثل ، باسمك ، دور « رئيس محكمة الشعب » اضحوكة الناس اجمعين . فلابد لك من عمل كبير حاسم تفرض فيه على الناس سلطانك المنهار ، وتعيد به بعض هيبتك المضاعة .....

ولم يحتج الزعيم العبقرى الملهم الى وقت طويل فقد قر قراره ، وصمم على « الاعدام » وآثر ان يكون ذلك بطريقة خاصة تتحدث عنها الركبان ...

وعلى حين غفلة اعلن راديو بغداد ان حكم الاعدام سينفذ غدا بفريق ممن حكمتهم محكمة الشعب ، وشاع الرعب في العراق من اقصاه الى اقصاه ، وباتت ألوف الاسر في اضطراب وقلق وفزع ، ما بعده اضطراب وقلق وفزع ...

واصبح الصبح الاسود فعرف الناس ان ناظما الضابط العربى المثالى الحبيب الى كل قلب ، وان رفعت ، وان الشيخ رفعت ، الضابط التقي الورع الكتوم الصبور ، قد سالت دماءهما الطاهرة الزكية مع دماء عدد كبير من اندادهم من الضباط الاحرار لتروي تربة ام الطبول ، وتنقع غلة الزعيم الحاقد اللئيم السادية ...

فتذكر الناس من جديد هولاكو ، ونيرون ، وكل الظالمين من حكام البربرية الاولى ، وعصور الجهالة الجهلاء . وظهر لهم من جديد المصير الذي سيصير اليه هذا « الحي الميت » الذى تلاحقه اليوم اشباح جرائمه النكراء وسيحل به غدا ، غدا القريب ، سوء المنقلب الذى يصير اليه كل الطغاة الظالمين ، مع الخزى السرمدى ولعنة الاجيال الابدية[1] ......

---

(١) لست بحاجة الى القول انه قد حل هذا الغد وانتقم الشعب من قاتل الاحرار ...

الجامعـــة

يطيب للواء عبدالكريم قاسم ، حين يعدد مكاسب الثورة ، في اثناء خطبه واحاديثه ، وفي اثناء مؤتمراته الصحفية ، ان يعد انشاء جامعة بغداد بعض هذه المكاسب التي يضيفها الى عهده الزاهر • فدعونا ـ ايها الاخوة ، وايتها الاخوات ، في عراقنا الحبيب ، وفي دنيا العرب كلها ـ دعونا نتساءل : كيف ولماذا اعتبرت الجامعة من بعض مكاسب هذا العهد السعيد ؟

من المعلوم ان جامعة بغداد كانت قد انشئت قانونا قبل ثورة الرابع عشر من تموز سنة ١٩٥٨ بأكثر من عامين اثنين • وكان قد اختير لها رئيس ، وعين لها مجلس جامعي • وكانت الحكومة البائدة قد خصصت لها مبالغ طائلة لاستملاك الارض اللازمة ، وخطت في ذلك المضمار خطوات • كما كانت قد وضعت خطة اخذت تسير بمقتضاها لضم الكليات القائمة في العراق الى الجامعة تباعا ••• ومع ذلك فلست من الذين يقولون ان الجامعة ، أية جامعة ، تعد قد أسست فعلا لصدور قانون ينظم احكامها ، وتعيين رئيس يدير شؤونها ، حتى ولو تم انشاء واعداد مباني كلياتها وقاعات اجتماعاتها وغرف مكتباتها ، وصالات مختبراتها ومعاملها ، وساحات العابها ، وكل ماهو ضروري لها من آلات وأدوات ومعدات ومواد ووسائل البحث والتجربة والاستقصاء • لن تعتبر الجامعة قائمة فعلا بالمعنى التربوي الدقيق الا اذا تحقق ـ بالاضافة الى كل الوسائل المادية هذه ـ امران أساسيان هما عماد الحياة الجامعية التي لا حياة لها بدونهما ••

أولهما : خلق الظروف المناسبة لفريق من النابهين المختصين في شتى

أفانين المعارف الانسانية والعلوم والآداب ، والفنون ، للبحث والاستقصاء في جو من الحرية والاستقلال الفكري في اطار عام من فلسفة تهدف الى خدمة المجتمع كله والسير به قدما الى الامام •

وثانيهما : ايجاد بيئة خاصة يشعر في ظلها كل منتسبي الجامعة من اساتذة وطلاب ، بجو لطيف يفيض بمشاعر الابوة الروحية المفعمة بالحنان والتقدير • مع شيوع روح المزاملة الكريمة بين الاساتذة من جهة ، والاخوة الصادقة بين الطلاب من جهة اخرى •••

ودعونا نفكر في المدى الذى بلغناه فى عراقنا فى هذا المضمار ، فى هذا العهد على وجه التخصيص •

ولست الوم الحاكمين اليوم فى العراق لانهم لم يوفقوا لانشاء ابنية للكليات واقامة المختبرات واعداد المكتبات ، والقيام بالضروريات المادية التى تتطلبها الحياة الجامعية ، اذ لابد لذلك من بعض الوقت فسنة او سنتان من حياة الثورة لا تكفي ، من دون شك ، لانجاز واتمام كل هذه المطاليب المادية العديدة على الوجه الاكمل •

ولكننى اسأل ، اسأل مخلصا ، كم بلغنا فى اشاعة جو الحريه فى حياتنا الجامعية ؟ وهل تقدمنا بالقياس الى العهد البائد ، أم رجعنا خطوات الى الوراء ؟؟

كم هم الذين فصلوا من اساتذة الكليات ؟ كم هم الذين أبعدوا عن التدريس لاسباب عقائدية ؟؟ بل كم هم الذين اعتقلوا واضطهدوا بسبب افكارهم الخاصة ؟ كم هم الطلاب الذين طوردوا فاضطروا الى ترك الدراسة لفترات مختلفة ؟

كم هم الذين آثروا ان يتركوا الدراسة نهائيا خشية التعذيب والضرب والسحل والتقتيل ؟؟ وحرية الرأي ، هل هي مصونة في العراق اليوم ؟ ماذا حدث لقرار مجلس الجامعة الذي اتخذ في العام الماضي بالاجماع ، والذي كان ينص على حق مشاركة الطلاب العرب ، بل والطلاب من كل الجنسيات ، في انتخابات اتحاد الطلبة ؟

وكيف امرت حكومة عبدالكريم قاسم باهمال هذا القرار ، حتى لم يجرؤ رئيس الجامعة على تلاوته في الجلسة التالية ، ليثبت العهد الحاضر مدى احترامه للقانون ، ومدى رعايته للنص الوارد في قانون الجامعة والذي يقول « الجامعة حرم آمن » .

ما الذي اتخذته مجالس الكليات ازاء بعض اساتذتها ؟ بل ما الذي اتخذه مجلس الجامعة نفسه حين احتجزت حريات بعض اعضائه فترات طويلة من الزمن ؟؟

ما الذي اتخذته تلك المجالس جميعا ازاء الاعمال الوحشية التي قام بها فريق من الطلاب بتحريض وتوجيه جهات معلومة تجاه فريق آخر ، والتي بلغت حدا من القسوة والوحشية لم يسبق لها في تاريخ العراق ، وتاريخ الجامعات في الدنيا كلها مثيل ؟

واليوم ، اليوم على وجه التخصيص ، وبعد نحو عام ونصف عام على ثورة الرابع عشر من تموز ، مالذي عملته الجامعة بشأن الاساتذة الذين اعتقلتهم السلطات العراقية ، وامتهنت كرامتهم الشخصية وامتهنت بذلك كرامة الكليات ، وكرامة الجامعة ، وكرامة العلم ذاته ؟؟

ودعونا نتساءل من جديد . ترى مالذي اقترفه الدكتور محمد ناصر حين اقصي في العام الماضي عن عمادة دار المعلمين العالية ، وحين اجاز عبدالكريم قاسم لنفسه احتجازه اليوم ، وهو المربي الكفء الكريم الذي يعتز بكرامته ، وكرامة امته ، وكرامة الانسانية كلها ؟

مالذي فعله الدكتور سليم النعيمي الاستاذ بدار المعلمين العالية مما يبرر اعتقاله امدا طويلا في العام الماضي ، ويجيز اعتقاله اليوم من جديد ، غير استمساكه بقوميته ، وغير صراحته وصدوعه بالحق أمام محكمة المهداوي في العام الماضي ؟

مالذي جناه الدكتور شاكر مصطفى سليم الاستاذ بكلية الآداب ، الاستاذ الدءوب القوي المثابر الذي اعتقل واهين في العام الماضي وتجدد اعتقاله اليوم ، بسبب نشره لجزء من مذكراته التي فضح بها بعض الجرائم

الوحشية التي ارتكبها الرفاق ضده وضد العشرات من الاساتذة والمدرسين الذين اعتقلوا في الربيع الماضي ؟ •

وبينما كان الناس ينتظرون اجراء التحقيق العادل ، وفرض العقاب اللازم على المجرمين المستهترين بكرامة الناس وكرامة العلم ، وبينما كانوا ينتظرون شيئا يهدىء من روعهم ، ويعيد اليهم شيئا من طمأنينتهم ، اذا هم يفاجأون باعتقالات الاحرار من جديد ليثبت الزعيم عبدالكريم قاسم مرة اخرى حياده ، وعدالته ، وايمانه العميق بالحرية والديمقراطية والسلام • وليثبت انه حقا قد انشأ الجامعة انشاءً جديدا ، واظل اساتذتها بظل عدالته الوارف ، ومكن منتسبيها من الاستمتاع بنعيم الحرية والامن والاستقلال •••

وهناك آخرون كثيرون غير هذه النخبة ، يقاسون اليوم في العراق سوء العذاب ، ماذا جنوا ليلقوا ما يلقون مما لا يتناسب مع اي مخلوق مهما كانت صفته ، فكيف يليق أن يلقاه استاذ جامعي ؟؟!

ولن اطيل الحديث عن الجو الذي يسود كليات العراق اليوم ، لن اطيل الحديث عن انباء التعذيب والضرب والسحل والتجسس الفظيع ، لن أتحدث عن انصراف الطلاب عن الدراسة وعن اكتفاء غالبيتهم العظمى بالمهرجانات والحفلات والمسيرات وتنظيم عرائض التأييد والولاء • ولن أتحدث عن مهزلة الامتحانات التي اصبحت في كثير من المعاهد بمثابة الزحف المقنع الذي سنه الزعيم العبقري في مطلع عهده الزاهر •

ولن اتحدث عن المستوى الخلقي ، وعن الانهيار العجيب في صفوف الاساتذة والطلاب ، ولكني ارى لزاما عليَّ للدلالة على مدى التحلل الخلقي في جامعة عبدالكريم قاسم أن أسرد الواقعة التالية :

« وقف أحد الاساتذة في احدى الكليات مزهوا وهو يشرح موضوع التخصص الذي قد تحبو به الطبيعة بعض البلاد لسبب او لآخر ، وتجعل منها ، وكأنها في حالة احتكار طبيعي لا يمكن منافستها والتفوق عليها من جهات اخرى •• وقف ذلك الاستاذ الفاضل ليقول لطلابه ! ، ان العراق مثلا قد اصبح مختصا « بالسحل » الذي يعتبر من مبتكرات ثورتنا المجيدة التي

تفخر ونعتز بها ، ولن يرقى شعب آخر لمنافستنا في هذا الاختصاص العظيم » ....؟

وعجت ايدي الرفاق بالتصفيق الحاد ، وتعالت حناجرهم بالهتاف المدوي بحياة الديمقراطية ، والعدالة والسلام ، والزعيم الاوحد ، وابتسم الاستاذ الرفيق ابتسامة الرضا والاعجاب والاطمئنان ...

ترى أي جيل يربى اليوم في العراق على ايدي امثال هؤلاء . واي مستقبل ينتظر شعبنا وامتنا نتيجة هذه التربية ؟!

ومع ذلك فمن الحق علينا أن نعترف بان الدكتور عبدالجبار عبدالله رئيس الجامعة قد وفق في تعديل قانون الجامعة الذي كانت حكومة الثورة ذاتها قد وضعته قبل انحرافها عن اهداف ثورة الرابع عشر من تموز وقد صيغ القانون صياغة جديدة زادت في سلطات رئيس الجامعة ، ومكنته من جمع كل تافه وانتهازي من حوله .

على أن اهم تعديل وابلغه في الدلالة على الروح الجامعية ، وروح العهد الجديد ، حذف ما كانت المادة الثالثة من قانون الجامعة قد نصت عليه من جعل « بعث التراث العربي الاسلامي » من بعض اهداف الجامعة ....

فكيف يجوز في دولة ديمقراطية شعبية اشتراكية تقدمية تجددية ان يبقى مثل هذا النص الموغل في رجعيته وانحطاطه أحد أهداف جامعته ؟ .

كيف يجوز ان تعنى الجامعة بالتراث العربي والاسلامي في العراق الحديث الزاهر المبدع ؟! ... أليس في ذلك نزوع الى الماضي ، واهتمام بالروحانيات ؟

وكيف يستقيم هذا مع المادية التأريخية والفلسفة الديلكتيكية ؟

وكيف يوفق بين هذا ، والمطلب الجماهيري « الشعوبي » الذي يريد طمس معالم العروبة والاسلام ؟ ...

لقد استجاب عبدالكريم قاسم لهذا المطلب فحذف تلك الفقرة ليصبح اكثر انسجاما مع واقع الحال ، وليثبت أنه الزعيم المنقذ ، محرر الشعوب ، وقاهر الاستعمار ، ومتحدي الموت ..

انه الزعيم العربي القواريري الذي تؤذيه « العروبة » والمجاهد في سبيل الله « الذي يكيد للاسلام والمسلمين في كل ميدان[1] ...

(١) ان مما يحز في النفس ان نعترف بانه على الرغم من القضاء على عبدالكريم قاسم وعهده ، وعلى الرغم من العهود المختلفة التى تلته ، وعلى الرغم من التغيرات العديدة والمرتجلة لقوانين الجامعة وانظمتها ، فاننا لانزال بعيدين ، كل البعد ، عن الحياة الجامعية ، غير جادين في تمكين الجامعة من اداء رسالتها ٠ ان بعض المحاولات الاولية قبرت بسبب جهالة بعض الساسة ، ومطامح نفر من الانتهازيين الذين يريدون الجامعة حرما آمنا يستترون وراءه لاخفاء مآربهم ومصالحهم ومصالح فئه صغيرة تتخذ من الجامعة مغنما ٠

ان عدد الطلاب قد تضاعف اضعافا مضاعفة ، وعدد الاساتذة قد ازداد ، وازدادت سلطات رئيس الجامعة ومخصصاته ، كما ازدادت الاموال التى تنفق من خزينة الدولة على الجامعة زيادة هائلة ، ولكن ذلك كله لا يسهم بشيء جدي في خلق الروح الجامعية ، ولا يفيد في انشاء المعنى الاسمى « للجامعة » في بلاد ناشئة كالعراق ٠

وعندي ان هذا الموضوع من الاهمية والتشعب والتداخل بحيث يحتاج الى دراسة موضوعية مستفيضة والا زاد الامر تعقيدا بحيث يزمن الداء ، ويعسر العلاج ، وقد يعز الشفاء او يستحيل ...

على هامش الاحزاب في العراق

بدأت في بغداد منذ اسابيع الحياة الحزبية من جديد ، وحقق عبدالكريم قاسم بذلك كسبا جديدا من مكاسب الثورة ، على حد ما يزعمون ...

فلننظر مليا – ايها الاخوة وايتها الاخوات – في هذا المكسب الجديد في ضوء الواقع الملموس ، وفي ضوء ما تعلنه الصحافة المؤيدة له ذاتها . لقد كتبت جريدة صوت الاحرار ، مقالا افتتاحيا بتاريخ ١١–٢–٦٠ جاء فيه : « ولكن انتهاء فترة الانتقال ، وفسح المجال امام التنظيم السياسي واجازة بعض الاحزاب ، لا يكفي وحده لبلوغ الاهداف التي ينشدها الشعب من وراء انتظامه في احزاب ذات مناهج بينة صريحة ، كما لا يكفي هذا وحده ايضا للدلالة على ان الشعب يستطيع ان يمارس هذا الحق ممارسة فعلية . فالدلالة ليست في اجازة الاحزاب ، وانما في تهيئة الاجواء الصالحة التي تستطيع فيها هذه الاحزاب ان تمارس نشاطها من دون عرقلة او تقييد » .

وختمت الجريدة مقالها بالعبارة التالية : « ان الجو الحالي لا يساعد اطلاقا على ممارسة النشاط الحزبي ، وبصفة خاصة خارج العاصمة » ..

ان الذي تقوله صوت الاحرار حق وان اريد به باطلا . ان العبرة ليست في اجازة الاحزاب ، وانما في تهيئة الاجواء الصالحة لها . وان الجو الحالي في عراقنا الحبيب لا يساعد اطلاقا على ممارسة النشاط الحزبي ، ذلك حق لا ريب فيه . واما الباطل الذي تريده تلك الجريدة الحمراء فهو ان يؤذن للحزب الشيوعي الآخر الذي لم يسمح له رسميا بممارسة نشاطه ،

وان تتخذ الحكومة القائمة ، حكومة قاسم العراق ، وسائل اخرى في الارهاب والاضطهاد ، والتجاوز عن القائمين بالمجازر والمذابح بحيث تتم السيطرة التامة (للمناضلين الاحرار الشرفاء) سيطرة تامة على كل مرافق الحياة السياسية ، والاجتماعية والاقتصادية والثقافية وغيرها ، ليمهدوا بذلك كاملا لتحقيق المبادىء « الماركسية اللينية » التي اعلنوها في منهاج حزبهم ، وتنادوا بها بصراحة ما بعدها صراحة .

ان الاحزاب التي اذن لها حتى الآن هي الحزب الوطني الديمقراطي ، والحزب الديمقراطي الكردي « البارتي » ، وحزب شيوعي هو احد الحزبين الشيوعيين اللذين تقدما بطلب تأسيس حزب شيوعي في العراق . وهناك حزب آخر باسم الحزب الجمهوري قدم طلب تأسيسه لفيف من الانتهازيين والشيوعيين غير الرسميين ، ان صح هذا التعبير ، ومن الموظفين الذين استطاعوا ان يثروا ويستغلوا مناصبهم في كل العهود ، ومن فريق من الشعوبيين الدجالين ، ومن بعض اخوان الحرية من مدرسة فريا ستارك ، ومن فريق آخر من التافهين المغررين ، او الاغرار المخدوعين .. واغلب الظن ان هذا الحزب سيصبح حزبه المفضل الذي يحبوه بكل عطف ..

لقد حاول عبدالكريم قاسم بشدة ان يوجد فريقا من القوميين ممن يرددون الشعارات القومية ويهتفون بهتافاتها ، ولكنهم في الوقت ذاته ، يخضعون لمشيئته ويأتمرون بسياسته ، فاخفق كل الاخفاق . ذلك لان القومية العربية تقوم ، اول ما تقوم ، على مثل معينة ثابتة ليس تقديس الافراد والايمان الاعمى بهم منها في قليل او كثير . وهي ترتكز ، اول ما ترتكز ، على فضائل انسانية ثابتة ، ومقاييس خلقية مستقرة ، ليس للانتهازية والتدجيل سبيل اليها ...

ولقد حاول عبدالكريم قاسم ان يوجد هيئة اسلامية ، تدعي الاسلام ادعاءاً وتتزيا بزيه ظاهرا ، ولكنها تؤمن ـ قبل الايمان بالله ـ به ، وتدعو لا بدعوة الحق التي جاء الاسلام مبشرا بها ، بل بدعوات ضالة مضللة لتلهي المسلمين عن خروج عبدالكريم قاسم على الاسلام ، كما فعل في تشريع

قانون الاحوال الشخصية الذي جاء بأحكام ميراث مخالفة لنصوص القرآن الكريم الصريحة القاطعة ، وجاء بمبادىء تعارض قواعد الفقه الاسلامي في اصوله وفروعه ، من سنية وشيعية ، على حد سواء كل المعارضة .

لقد فشل عبدالكريم قاسم في ايجاد هيئة أو حزب من هذا الطراز العجيب اللهم الا اذا اعتبرنا من يسمون بالعلماء الاحرار ، وكثير منهم من رجال الاستخبارات الاجنبية ، او علماء الحفيز[1] كما يسميهم اخواننا النجفيون وليسوا من علماء الاسلام في شيء . واليوم يحاول عبدالكريم قاسم ان يقسم الشيوعيين .

وقد يوفق عبدالكريم قاسم هنا ، حين اخفق هناك .

على ان هناك عدة احتمالات يمكن تصورها لتحديد علاقة عبدالكريم قاسم بالحزب الشيوعي الذي لم يؤذن له رسميا . فقد يبقى عبدالكريم قاسم ساكتا فترة أخرى . حتى اذا بدا له ان الشيوعيين من القوة (في الداخل أو الخارج) بحيث لا يستطيع مقاومة مطلبهم هذا ، تدخل هو بالذات ، وأعلن اجازة حزبهم ، وحمل وزير داخليته وحده وزر هذا المنع ، وظهر هو من جديد بمظهر المنقذ للحزب الشيوعي في العراق الذي لا غنى للحزب عنه ، فيكسب بذلك ـ او هكذا يخيل اليه ـ انصارا جددا في الحزب الشيوعي ذاته . وقد يمتنع نهائيا عن الاذن له ، ويدعي انه قد بر فعلا بوعده للشيوعيين ، واذن بقيام حزب شيوعي برئاسة داود الصايغ ويطلب من الشيوعين الانتساب اليه .

ومع ذلك فقد يتجاهل قادة الشيوعيين الذين يعتبرون انفسهم انهم هم طليعة الحزب وقادته قرار الحكومة ويستمرون في ممارسة نشاطهم الحزبي ، كما فعلوا من قبل في فترة الانتقال المزعومة . وحين انصاع الحزب الوطني الديمقراطي وحده لهذا الطلب ، بقى الحزب الشيوعي ، على الرغم من سمع عبدالكريم قاسم وبصره ، يمارس أعماله علانية

---

(١) تعريب محرف لكلمة Office اي دائرة او مركز ، ويراد به دوائر الحكومة او مراكز الشرطة .

وبكل جرأة ، بل وبكل تحد أحيانا • وقد قبل عبدالكريم قاسم هذا التحدي فيما مضى ، ولم يفعل شيئا جديا غير سبه لبعض قادة الحزب في مجالسه الخاصة ، وتهديده لهم تهديدا ذهب مع الريح •

ومع ذلك فقد يسلك مع الشيوعيين طريق الاغراء والاماني فيتوسل اليهم بترك نشاطهم العلني – ولو لفترة قصيرة – مع تعهده بمدهم بالعون المادي والادبي الذي يجعل منهم قوة ضاربة يركن اليها عند حلول الوقت المناسب • واذا رفض قادة الشيوعين هذا الرجاء ، فقد يهددهم باعلان ما قد توصل اليه التحقيق في مشاركتهم مشاركة فعلية في المجازر التي وقعت في الموصل وكركوك واسهامهم في بعض حوادث السحل الرهيبة التي وقعت في انحاء مختلفة من العراق •

وقد يستعين عبدالكريم قاسم ببعض الجهات الشيوعية الاجنبية لتحقيق مطلبه هذا ، ويؤكد لهم من جديد حرصه على فوز الشيوعية في العراق وانتشارها – وفي الحق لقد فعل في هذا المضمار الشيء الكثير – ويؤكد ان الخلاف بينه وبين بعض قادة الشيوعية في العراق هو في الوسيلة فحسب ، وانه سيحقق أغراض الشيوعية العالمية بالتعقل والتدريج ، ومن يدري فقد ينجح في مسعاه هذا •••

ومع ذلك وخشية من تصلب الشيوعيين ، وفشل جميع خططه ، فقد حشد فريقا من انصاره جمعهم من هنا وهناك ، وطلب اليهم ان يتقدموا بتكوين حزب بأسم الحزب الجمهوري الذي لا ينقصه غير المهداوي ليصبح واسطة العقد ، او عين القلادة « ولتتم السبحة » كما نقول في أمثالنا الدارجة في العراق •

وقد يسأل متساءل ، ولم يسلك عبدالكريم قاسم كل هذه المسالك ، ولم يطرق كل هذه الدروب ؟

ذلك لانه يريد ان يبقى – كما يزعم – فوق الميول والاحزاب ويستمر في السير في سياسة التفتيت والتجزئة والتفريق ، وتوازن القوى التي سنها المستعمرون ، وعرفها عبدالكريم قاسم ، وصار يطبقها في حكمه للعراق اليوم •

ان الطابع الاساسي الذي يطبع « حاكم العراق الاوحد » هو هذا المسعى الخبيث الذي يسعى اليه لتقسيم الشعب ، والقضاء على وحدته ، وهو يسعى لان يحصل على نصر جديد في هذا الميدان ليتقدم الى الاستعماريين بدليل جديد على صلاحه وقدرته في حكم العراق .

الخلاصة ان عبدالكريم قاسم قد يستمر في التحدث عن وحدة الشعب، وجمع الصفوف ، ولم الشمل ، وقد يستمر في طرح الشعارات الجديدة ليقيم الدليل على شعبيته وايمانه بالديمقراطية والقيادة الجماعية ، وقد يمن على الشعب في كونه قد اعاد الحياة الحزبية بل اوجدها وحقق مكسبا جديدا من مكاسب الثورة .. ولكن الحقيقة الثابتة هي انه لن يسمح مطلقا بقيام حياة حزبية جديدة من أي طراز . فهولن يحارب القوميين والاسلاميين فحسب بل سيعارض كل حزب يمكن ان يكون قوة قد تنازعه بعض سلطانه ، وقد تنتقص بعض نفوذه .

وقد يتسامح عبدالكريم قاسم مع كل فرد او هيئة أفراد . يتسامح مع رجال العهد البائد وزعماء الاقطاع ، يتسامح مع الذين سرقوا أموال الشعب وهدروا كرامته ، يتسامح مع الساسة والقادة الذين تسببوا في نكبة فلسطين ، يتسامح مع الفوضويين والهدامين الذين قتلوا المئات من الابرياء ودفنوا الاحياء حتى الاطفال والنساء ، يتسامح مع الذين قاموا بما لم يقم به الصهاينة في دير ياسين وهولاكو في بغداد - كما قال هو نفسه - يتسامح مع كل المسيئين وكل المجرمين بشرط ان يعلنوا ولاءهم لشخصه الفذ ، ويؤمنوا بعبقريته الخلاقة ، ويسلموا بوحدانيته وبأنه لا شريك له .

وعبدالكريم قاسم يشعر في ذات نفسه - وقد غذى بعض الشيوعيين والانتهازيين هذا الشعور - هو انه كالاله ، يغفر ما شاء لمن يشاء الا ان يشرك به . « ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

اقــوى جيش

يطيب كثيرا للواء عبدالكريم قاسـم استعمال الفاظ اعظم ، وأكبر ، وأقوى ، وما شاكلها من افعل التفضيل ، وصيع المبالغة ، بكثرة كاثرة في احاديثه ، ومؤتمراته ، وخطبه • وقد حظى الجيش العراقي بقسط وافر من تلك الالفاظ والصيغ • فقال : فيما قال ان الجيش العراقي هو أقوى جيش واعظمه حينا ، ثم تواضع فقال : انه أقوى جيش في الشرق الأوسط• وكرر هذا القول مرارا عديدة •

فدعونا نفكر مليا ، دعونا - ايها الاخوة وايتها الاخوات - نفكر بهدوء واخلاص في مدى الحق في هذه الاقوال ، وذلك بمناسبة يوم الجيش الذي احتفل به بالعراق منذ ايام قلائل •

وقبل هذا ، أقول لا شك في ، أن كل عربي مخلص ، في العراق وخارجه ، يود من الصميم ان يكون للعراق جيش قوي حقا ، جيش قادر تماما على تحقيق ما يتطلب اليوم من الجيش الحديث في دولة كالعراق •

والحق يدعونا ان نعترف بأن الجيش العراقي يملك اليوم من الاسلحة الخفيفة والثقيلة ، ومن العتاد ، مالم يتح له من قبل ان يملـكه • وهو بهذا الاعتبار قد تقدم خطوات الى الامام • هذا مع التسليم بأن السلاح الذي حصل عليه لم يكن اجود سلاح ولا احدثه • كما ان الأثمان التي دفعها فيه عالية ومرهقة ، وان كثيرا من الدول الاخرى قد استطاعت الحصول على سلاح ثقيل بشروط أفضل ، واثمان أكثر اعتدالا •••

هذه حقيقة لا شك فيها ، وثمة حقيقة اخـرى هي ان مقياس قـوة

الجيش ، أي جيش ، بالاضافة الى عدده وعُدده ، بل وقبل عدده وعُدده هو قدرة قيادته ، وكفاية ضباطه اولا ، وطاعة جنوده ، وقوة تدريبهم ثانيا ، والروح المعنوية العالية التي تسود ضباطه وجنوده ، على حد سواء ثالثا .

والآن دعونا ننظر الى هـذه المقاييس الثلاثة ، لنرى مدى انطباقها على جيش العراق اليوم ، ولنرى مدى الصدق في الدعوة العريضة التي يدعيهـا حاكم العراق الفرد ....

اما القيادة فقـد اصابها وهن ، أي وهن ، منـذ قيام الثورة . اذ أحيل على التقاعد كل كبار الضباط الذين كانوا اعلى مرتبة او قدما من عبدالـكريم قاسم نفسه ، ليبقى هو بمفرده الزعيم الاوحـد في الجيش العراقي . ولقد احيل على التقاعد بعد ذلك نحو من ثلاثمائة ضابط ، وكان فيهم عدد لا يستهان به من الضباط الأركان ، والضباط الفنيين . كما قتل اثناء ثورة الموصل عشرات من الضباط ، واعدم عشرات أخرى ، وزج في غياهب السجون عدد كبير ، واعتقل عدد أكبر . وعلى العموم فقد حرم الجيش العراقي من عدد كبير جدا من قادته وضباطه ، وكان من نتيجة ذلك ان أشغلت بعض الوحدات المهمة من قبل الضباط ذوي الرتب الصغيرة ممن يفتقرون الى الخبرة والتدرج الذي لا يمكن تخطيه دون اخلال بالمهارة الفنية ، ودون تخريب صميمي في الأسس العسكرية السليمة .

أما طاعة الجنود وقوة تدريبهم فللمـرء أن يتحـدث عنها ويطيل الحديث ...

وأية طاعة ترتجى لجيش فتكت فيه الشعارات ، وحطمته الحزبية ، وساده التجسس بحيث يستطيع كل جندي أن يصل الى « الزعيم الاوحد » رأسا وباسرع وقت مستطاع ليقص عليه قصة يلفقها ، ويوغر صدر القائـد الاعلى على بعض الضباط ممن يريد ذلك الجندي لسبب أو لآخر أن يحطمهم ...

وكيف ننتظر الطاعة من جنود سحلوا في أكثر من وحدة عسكريـة رؤساءهم وأهانوا الكثيرين من قادتهم اهانات يندى لها الجبين ؟!

بل كيف يفترض وجود الضبط في جنود يجتمعون مساء كل يوم

ليلقنوا تعليمات يتلقونها من خارج الجيش وقيادته ، ويحفظون شعارات تفرض عليهم فرضا ، وقد يرددونها كالببغاوات وهم لا يفقهون لها معنى ؟!

ان الذين عاشوا في المعتقلات ، وفي معتقل الدبابات الرهيب خاصة ، يدركون جيدا الحال المروع الذي بلغه أفراد الجيش العراقي ومراتبه ، وهم يرون بأم أعينهم صباح مساء كيف صارت « الاوبئة الوافدة » تمحق الجيش وتحيله الى آلة تحطيم وتدمير ، لاوسيلة دفاع عن أمن البلاد وسلامة أبنائها .

أما التدريب فقد انعدم أو كاد ، اذ صارت العناية بالتلقين الحزبي ، والتوجيه السياسي ، هما غاية الغايات ، ولم يعد التدريب الا مطلبا ثانويا قلما يهتم به الا في الحدود التي تخدم الاهداف السياسية الداخلية والمقاصد الحزبية ، والاشتراك في المظاهرات والمسيرات ، وملء الحناجر بالهتافات . لقد حل هذا كله - وا حسرتاه - في الجيش العراقي محل التدريب والتمرين وما الى ذلك من اعداد لازم لكل جيش ليكون قادرا على اداء واجبه في محاربة الأعداء .

اننا سنحتاج الى وقت طويل بعد زوال عهد عبدالكريم قاسم حتى نستطيع أن نعيد الجيش بافراده ومراتبه ، الى حيث يجب أن يقف الجيش بالمعنى الصحيح ...

أما الروح المعنوية فقد تسبب العهد الحاضر في تحطيمها ايما تحطيم ، فقد هدر كرامة الجيش بقتل قادته وضباطه ، وباشاعة التجسس فيما بينهم ، وبالاهانات التي وجهت اليهم ، وحتى الذين برئوا ، وحتى الذين لم يحاكموا ، او حوكموا ولم يدانوا ، لم يسلموا من التعذيب والاهانات .

ان التعذيب الذي لقيه فريق من كبار ضباط الجيش العراقي لا يتصور له مثيل في الدنيا كلها . وان انس لا انس منظر الزعيم الركن الحاج محمود شيت خطاب يوم أخذ من المعتقل ، وكنا معا بعد الافطار بدقائق في يوم من أوائل أيام رمضان الماضي ، ولم يعد الا بعد بزوغ شمس اليوم التالي . وقد عادوا به الينا جثة هامدة ، لا يكاد يتنفس ، وليس في جسمه شبر واحد لم يتحول الى مادة سوداء كالكبد . وكانت بعض عظامه قد

تكسرت ، كما تحطمت بعض اضلاعه . وبقي الضابط الشهم الورع صابرا شهورا عديدة في المستشفى يداوي جروحه وكسوره التي احسب ان بعضها لم يلتئم بعد .

والحق ان الشيوعيين يريدون تحطيم الجيش العراقي ، وهم في ذلك يسيرون وراء فلسفة ماركس المعلومة حين قال في رسالته التي وضعها بعد فشل تجربة كوميون باريس سنة ١٨٧١ :

« يجب ان يصبح الجيش وسيلة بيد الشغيلة ، ولا يجب ان يبقى آلة طيعة بيد السلطة الحاكمة ايا كانت . ان الجيش سيبقى عنصر خطر مالم يطعم بالروح الثورية » .

ولقد سعى الشيوعيون حثيثا الى بلوغ هذه الغاية ، ولئن اخفقوا في ادراكها تماما ، لقد نجحوا في تحطيم معنويات الجيش ، واحالوه حلية يتزين بها في الاستعراضات والمسيرات ، وحرسا خاصا يحمى « حبيب الملايين » من شعبه الساخط الناقم ..

وليس هنالك فرية اوغل في الباطل من قول الزعيم بأن الجيش العراقي هو فوق الميول والاهواء ..

ان سياسة الحكومة ، وسياسة عبدالكريم قاسم بالذات ، قائمة على الميول والاهواء والتصحب والتخريب ، وطبيعي ان يعكس الجيش ، وهو جزء من الحكومة ، واداتها الضاربة ، هذا الوضع المضطرب القلق .

والخلاصة ، ان العراق كله يعاني اليوم مما يعانيه جيشه ، وهو ينتظر ساعة الخلاص ليعود الى الناس جميعا الامس الذي افتقدوه . ولتعود الى الجيش « الروح العالية التي لا يصبح الجيش ـ عند فقدانها ـ جيشا ، ولا تصبح الحياة حياة .

ان الجيش والشعب جميعا ، يرقبان تلك الساعة التي طال انتظارها ، كما ترقب الارملة عودة وحيدها الذي طالت غيبته ، ولقيت في غيابه الذل والفقر والشقاء ، وهي ترجو ان تلقى بلقياه ، العز والغنى والسعادة الابدية ...

المبدآن الاساسيان في حكم قاسم

مهما قال عبدالكريم قاسم ، ومهما صرح واعلن ، ومهما عمل وصمم ، وبأي صورة ، او بأي لبوس ، ظهر على مسرح العراق الذي كتب عليه ان يمثل على ارضه الطيبة هذا الممثل الدجال ، فسيبقى مبدآن اساسيان لا ثالث لهما ، هما دستوره الثابت ، وعقيدته الراسخة ، ووسيلته الفعالة في حكم العراق ، وابقاؤه في الفوضى التي يقاسى اليوم منها •

وهذان المبدآن هما : (فرق تسد) أولا و (اكذب اكذب ، ثم اكذب ، حتى تخادع نفسك ، وتخدع بعد ذلك الجماهير البلهاء) ثانيا •

لقد تعلم المبدأ الاول من القليل الذي عرفه عن تاريخ بريطانيا الاستعماري ، وربما زادت ، معرفته به بازدياد صلته بالبريطانيين ، من مثل جاره في « العلوية » ضابط الاستخبارات البريطاني ، الذي اشار اليه المهداوي في احدى نوبات تيقظ ضميره النادرة ، في اثناء محاكمات العام الماضي • وتعلم المبدأ الثاني ، أو تركز المبدأ الثاني في ذهنه من بعض ما عرفه عن زعماء النازية التي كان زعيم « العراق الاوحد » يعجب الاعجاب كله بهم •

ان مبدأ (فرق تسد) ، هو سلاح عبدالكريم قاسم الفعال ، ووسيلته المجدية • استعمله للتفريق بين الضباط الاحرار ، وعزل به ، بكيد ماكر ، وتخطيط خبيث ، عبدالسلام عارف عن بقية زملائه • ثم استعمله للايقاع بوزرائه واحدا بعد آخر ، وفريقا بعد فريق ، ثم استعان به لتفريق القوميين الى كتل ، وعزل بعضهم عن بعض ، ولو لفترة قصيرة من الزمن • ثم استعمله بشدة وضراوة

لتقسيم العراق عموديا وافقيا على اعتبارات شتى ، واستغل النعرات الدينية والمذهبية والعنصرية ابشع استغلال ، واستثار الطبقات العاملة والفلاحين على بقية الشعب ، وضرب به فريقا من الفلاحين بفريق آخر ، وفريقا من العمال بفريق ثان ، وحزبا بحزب • وهو يحاول بعد ذلك ان يفرق الحزب الواحد الى كتل وشيع متنافرة • ان مبدأ (فرق تسد) اهم ما يتمسك به عبدالكريم قاسم في علاقته بالافراد والجماعات والدول • فهو يتحدث الى كل فريق بما يهواه ذلك الفريق ، دون اكتراث بالحقيقة او الفضيلة • فاذا خلا برجال الدين مثلا تحدث اليهم عن عمق ايمانه بالاسلام وحرصه على شعائره ، وكال لهم المديح والثناء بوصفهم روحاني الامة • ولكن حين تواتيه الفرصة لا يتردد في ضرب الاسلام في الصميم ، كما فعل في تشريع احكام الميراث التي جاءت مخالفة لنص القرآن الكريم • ثم هو لا يألو جهدا في ضرب رجال الدين المعارضين لسياسته اللا اسلامية وتشنيعه عليهم وتحريض الغوغاء علانية عليهم • ثم هو اذا خلا بالشيوعيين أكد لهم ايمانه العميق بمبادىء الشيوعية ، وحرصه التام على تسويد طبقة العمال والكادحين على طبقات المجتمع كلها • وكرر لهم أنه المعدم الفقير ابن العامل الفقير • ولكنه مع ذلك لا ينسى ان يمكن بعض منتسبيه من جمع الثروات الطائلة التي يحصلون عليها عمولة لتهريب اموال بعض الاغنياء الى بيروت وغيرها •

أما كذب عبدالكريم قاسم وتدجيله فلا حدود لهما ولا قيود • وأحسب ان العالم في العصر الحديث لم يعرف زعيما موغلا في الكذب والتدجيل مثل هذا الزعيم العبقري • انه يحاول ان يستغل كل شيء لمصلحته ، ولو بصورة فجة مفضوحة • بقي الاشهر الاولى من الثورة يكرر جملة ، احسب انه لقنها من بعض الرفاق من اصحابه القدامى ، وهي قوله : « لنا في كل شهر ثورة ، بل ثورتان » • ويمر الشهر ويتمخض الجبل فيلد فأراً •••

قال مرة في مؤتمر صحفي حضره العشرات « انني ساعلن غدا او بعد غد نبأ هاما جدا يثبت كيان العراق ، ويكون له أعظم الاثر في توطيد جمهوريتنا الخالدة » •• واعلن لكم الآن نبأ مهما ولكنه صغير ، وهو نجاح انتاج السكر

في العراق من التمر •• وعرض عليهم بعض النماذج ، واضاف ان هذا سيوفر للعراق عشرين مليونا من الدنانير سنويا • وكان الناس كلهم يعرفون ان التجارب في هذا السبيل كانت قد بدأت من العهد البائد ، وان الثورة لم تقدم شيئا في هذا الصدد • ثم ان هذا المشروع قد صرف النظر عنه فعلا لثبوت فشله • ولو نجح ذلك المشروع ، أو أي مشروع آخر من هذا القبيل وتحقق الاكتفاء الذاتي بالسكر في العراق فلن يكون الوفر أكثر من بضعة ملايين من الدنانير • وهو ما يصرفه العراق في استيراد السكر سنويا • فمن أين جاءت الملايين العشرون اذن ؟؟ •

ومرت أيام وعقد مؤتمرا صحفيا آخر ، وشعر ان الصحفيين يريدون ان يعرفوا النبأ العظيم الذي وعدهم به فقال لهم : ان ذلك قد تأخر الى أيام قليلة ، وسيعلنه هو عما قريب • ومرت الايام والاسابيع والشهور ، ومر العام وبعض العام ، ولم يعلن الزعيم « الصادق الامين » ذلك النبأ العظيم •••

وحين ضرب عبدالكريم قاسم برصاص الشعب ، ظهرت بعض الصحف بتوجيه من سلطات رسمية ، بالاشارة الى بطولته ، وكتبت أن الزعيم الشجاع قد اطلق النار على المعتدين ، وانه صرع برصاصه أحدهم • ثم تكرر النبأ بصيغة أخرى ، فوجد الزعيم الانتهازي فرصته فتحدث لأحد الصحفيين عن بطولته ونشرت الصحف العراقية بعناوين عريضة أخبار تلك البطولات الوهمية • ثم جاء التحقيق الرسمي وجاءت محاكمات المهداوي واذا بالحقيقة تنكشف سافرة ، وان كانت محكمة المهداوي قلما تعني بالحقائق ، واذا بالزعيم الدعي قد نجا من الموت المحقق بعد اصابته ، وبعد تظاهره بالموت ، واختفائه في بطن سيارته • لقد نجا من الموت باعجوبة ليزداد اثما ••• ولسنا في معرض تعداد اكاذيبه كلها وانما نذكر مثالا أو مثالين صارخين آخرين :

لقد أعلن في احد خطبه انه سيصرف اربعمائة مليون من الدنانير في العام القادم لانشاء دور السكنى للموظفين واصحاب الدخل المحدود • ثم نبه بأن هذا الرقم لا يمكن ان يملكه العراق في سنة أو سنوات ، وانه لو

حصل عليه فعلا لما استطاع ان ينفقه • فعاد وكرر انه سينفق اربعمائة مليون دينار خلال خمس سنوات لانشاء مساكن للشعب • ثم عاد بعد ذلك فاعلن أن مشروع السنوات الخمس سينفق فيه اربعمائة مليون دينار بما في ذلك انشاء المساكن •••

على ان احدث وابلغ كذبة ، ان كان في الكذب بلاغة ، ما قاله قبل أيام قلائل في الخطاب الذي القاه عند افتتاح المعرض الصناعي الروسي أمام ميكويان نائب رئيس وزراء السوفييت • قال انه سيضاعف الدخل القومي خلال سبع سنوات • ولم يكتف بذلك بل اضاف انه سيجعل مستوى المعيشة في العراق أرقى مستوى في العالم كله • وكأنه يريد ان يقول للعراقيين مكنوني من رقابكم سبع سنوات أخرى أحقق لكم الجنة التي وعد بها المتقون في هذه الارض •••

أما كيف ، وبأي وسيلة وما هي امكانياته العلمية والفنية والمالية وماهي طاقات شعب العراق وامكانياته الحقيقية ، فتلك اسرار لا يعرفها غير (المهدي المنتظر الذي بعث للعراق) ، كما كان يصفه تكرارا المهداوي ، في نوبات هذيانية لا تحصى •••

ترى لم هذا كله لم هذا الاسفاف ولم كل هذا التدجيل ••• ؟

الجواب هو ان الزعيم عبدالكريم قاسم أناني لا يثق بغيره ، وانه طموح لا تتناسب ملكاته مع عظم مطامحه ، وان مطمحه الأساسي هو ان يحكم العراق • ولا يعنيه بعد ذلك كيف يحكمه • ولأي غاية من الغايات ؟• ثم أنه مغرور خدعته الصيحات المنافقة ، واستعذب مديح الشيوعيين والانتهازيين ، واخذه بهرج التصفيق والهتافات •••

قلت له مرة في الاشهر الاولى من الثورة ، ونحن نتبادل الحديث ، وكنت أعلق على قوله : « ان الشعب معي ، وان جموع الشعب كلها تؤيدني » • قلت له بالحرف الواحد : ولكنك حري بان لا تكتفي بهذا ، حري بك ان تحسب الحساب للأمة العربية كلها خارج العراق ، وحري بك ان تحسب ادق الحساب للرأي العام العالمي ، بل وفوق ذلك حري بك ان

تحسب للأجيال القادمة ، أي للتاريخ حسابه ، فأولئك أقدر على الحكم ، واولى بأن يحسب لهم الحساب » • واضفت قائلا ما معناه « ان كثيرا من الزعماء من قبلك قد حصلوا على التأييد الموقت من شعوبهم ، ونالوا الهتافات والتصفيق ، ولكنهم لم يخلدوا • فان كنت راغبا حقا بأن يسجلك التاريخ في عداد الخالدين ، فاحسب لهذا كله كل حساب • فاطرق ولم يحر جوابا[1] •••

ولله در أبي حامد الغزالي حين يقول : « ليست العبرة في ان تنصح ، ولكن العبرة في ان تنتصح » •

ثم لله در شاعرنا الرصافي حين يقول :

والمرء ان عدمت سجيته العلى   لم يبتعثه الى العلى تحريض

---

(١) كثيرون من الحكام في العالم العربى احرياء بان يتبصروا فى مغزى هذه النصيحة وينتفعوا بها •

العراق وقضية فلسطين[1]

اهتمام شعب العراق بفلسطين ، واستعداده للتضحية والفداء في سبيلها ، حقيقة ناصعة يعرفها الفلسطينيون ، كما يعرفها العرب أجمعون ، وتدركها دول الغرب ، كما تدركها اسرائيل ذاتها .

ولكن شعب العراق قد ابتلى ـ منذ أن اصبحت للعرب قضية في فلسطين ـ بحكام لا يتجاوبون مع مشاعره ، واذا استثنينا عام ١٩٣٦ ، حين قامت ثورة فلسطين الكبرى التى أعقبت الاضراب الشامل الطويل ، وحين كان المرحوم ياسين الهاشمي رئيسا للوزارة في العراق ، واستثنينا بعض الفترات القصيرة الاخرى ، فقد بقى حكام العراق يدجلون باسم فلسطين ، ويتاجرون بقضيتها ، كما كان يفعل بعض ساسة بعض البلاد العربية الاخرى .

وليس موقف الامير السابق عبدالاله منذ معركة فلسطين ، وخلال الكارثة سنة ١٩٤٨ وما بعدها ، وتظاهره بالاهتمام بها ، وتعدد زيارته لجبهة القتال ، عنا ببعيد ، فقد قام هو وعمه (ملك الاردن السابق) بدوريهما البطولى ، من هذا الطراز ، في خدمة الصهاينة ، والسير حسب المخطط الاستعماري بدقة تامة ، مما استحقا من أجله رضا الغرب ، وتقدير الصهاينة ـ كما تكشف عن ذلك كتب المسؤولين في اسرائيل ، بما في ذلك مذكرات « وايزمن » .

---

(١) أذيع من اذاعة صوت العرب في ١٦ـ٣ـ١٩٦٠ .

واستحقا ، في الوقت ذاته ، غضب الله ، وعقابه العادل ، ولعنة الاجيال الابدية .

وكلنا يعرف مصيريهما ، وكلنا يتذكر أن رصاص الشعب أردى عبدالله جثة هامدة في الحرم الشريف ، وأن رصاص الجيش العراقي ، وأيدي فريق من شعب العراق ، أحالت عبدالاله رمادا تذروه الرياح .

ويرجع ما لقي عبدالاله من مصير تعس فيما يرجع ، الى تآمره على فلسطين ، وتسببه في احلال الذل ، والفاقة ، والتشرد ، بمليون عربي أو يزيد . بالاضافة الى بطشه واستبداده بالعراقيين .

واليوم اليوم يعود حاكم العراق « الاوحد » الى اتباع اسلوب الخيانة والتدجيل ذاته ، ويطرق الطريق الذى سلكه المتآمرون من قبله ، حذو القذوة بالقذوة ، كما تقول العرب في امثالها .

والغريب بعد هذا أن يحسب انه قادر على مخادعة الشعب ، وايهامه بكونه مخلصا ، وهو يعلم ، او جدير به ان يعلم ، بأن شعب العراق ذكي فطن ، لا يمكن ان تنطلي عليه الحقائق ، ولا يقدر مخادع ، مهما اوتي من مكر ، ان يضلله او يموه عليه ...

واليوم ، وبعد أن أغرق عبدالكريم قاسم بغداد بحمامات الدم ، وبعد أن أرهب شعب العراق بالمجازر في الموصل وكركوك وغيرهما ، وبعد أن حطم سمعة العراق بحوادث السحل الوحشي ، والتقتيل الجماعي الذى اصاب كثيرا من مدن العراق واقضيته ونواحيه ، اليوم ، وبعد ان ملأ السجون والمعتقلات بالاحرار من الضباط والساسة والاساتذة والطلاب والعمال والزراع وغيرهم . اليوم ، وبعد ان حطم اقتصاديات العراق وتسبب في اجاعة شعبه بسياسته الرعناء ، اليوم وبعد أن انكشف كذبه وتدجيله لكل الجهات ، وظهر زيف دعوته للديمقراطية ، والحياة الحزبية ، اليوم ، وبعد أن انتهت زوبعته المصطنعة ، وجعجعته التي لم يعقبها طحن ، حول الخلافات مع ايران ، تلفت الزعيم « العبقري » يمنة ويسرة فلم يجد وسيلة لالهاء الشعب عن آلامه من جهة ، ومحاولة استثارته لنصرته من جهة أخرى ؟

خيرا من فلسطين ، والقضية الفلسطينية ليدجل بها حينا من الدهر ، عله يستبقى شيئا من ثقة الجماهير التى اخذت تنفض من حوله ، يوما بعد يوم ، ويبقيه في « وحدانيته » الرهيبة •••

أأنت جاد يا سيادة الزعيم المنقذ في دعوتك لانقاذ الوطن السليب ، واقامة جمهورية فلسطين ؟••••

أأنت مخلص في مسعاك لتحرير الارض المقدسة ، واعادة المليون من اللاجئين العرب الى اوطانهم وديارهم ؟

أأنت صادق في استعدادك للبذل المادي والادبي ، لتمكين الفلسطينيين من استعادة فردوسهم المفقود ؟؟

فتعال أذن أدلك الطريق •• وأنت لست بحاجة الى من يدلك عليه ، لو كنت جادا ، مخلصا ، صادقا ، لانه طريق واضح جلي مستقيم ••••

انه ليس باعلان قيام الجمهورية الفلسطينية من بغداد كما فعلت ، وليس بترديد أسمها في مناسبة وغير مناسبة ، كما تفعل ، وليس في اسباغ صفةالخلود عليها حتى قبلان تقومشكلا الا في خيالكالمضطرب ، وأنها ليست بجمع بضع ألوف ، او عشرات الالوف ، أو حتى مئات الالوف من الدنانير تجمد في بغداد ، او تصرف سرا لاغراض شبيهة بالاغراض التى كان ينفق فيها رجال العهد البائد آلاف الدنانير التى كانت ترصد لانقاذ الجزائر •••

انه ليس بوضع المخططات الهوائيـة الخياليـة التي تتصورها انت ، انت وحدك ـ لانك لا تؤمن الا بوحدانيتك ـ يا سيادة الزعيم العبقرى الاوحد ••• ان طريق الاخلاص هو في ان تسمح لجيش العراق بأن يقف جنبا الى جنب مع جيش الجمهورية العربية المتحدة ، وان تسمح لجيش العراق في أن يعبر عن ذات نفسه ، لا أن تفسد عليه ، كما افسد رجال العهد البائد من قبل الانتصار الذى كان خليقا به أن يحققه •

ان طريق الاخلاص هو في ان تمد يدك وتضعها بيد الرجل الـذى اقض مضاجع الاستعمار ، وارهب « بن جوريون » ودفعه لان يدعو ثبورا ، ويستنصر حميما ، ويستجدي العون من اعداء الامة العربية ، وحمله الى

ان يطالب يائسا ببعث تصريحات عقيمة قبرت في بور سعيد قبل ثلاثة اعوام ....

ان امارة الاخلاص ، يا سيادة الزعيم الفذ هو ان تنسجم سياسة العراق مع سياسة القومية العربية المخلصة المتحررة التى اثبتت وجودها على الزمن ، واعترف بها حتى الاعداء ، وان تسعى لان تظهر ان هناك امة عربية واحدة ، لها مصالح أساسية واحدة ، وأن انقاذ فلسطين امر لا يختلف فيه عربيان وان اختلفا في اشياء اخرى ....

انك تعلم اننا فقدنا فلسطين في جولتنا الاولى عام ١٩٤٨ لاننا كنا سبع دول بسبع جيوش وبسياسات مختلفة ، واننا لن نستعيد فلسطين الا حين يكون لنا جيش واحد ، وقيادة واحدة ، وسياسة قومية واحدة[١] .

هذه بديهية ، لا احسبك تجهلها ، وانت عسكري قبل ان تصبح زعيما سياسيا ....

لن تنقذ فلسطين التصريحات ولا الادعاءات العريضة ولا التهريج ، ولا المخططات الوهمية التى يوحى بها خيال مأفون ، وعقل مريض ...

استجب الى هذا يا سيادة الزعيم ، استجب له اذا كنت مخلصا ، استجب له اذا كنت عاقلا ، استجب له اذا كنت مؤمنا ..

---

(١) ما اشبه الليلة بالبارحة . لقد خسرنا الجولة الثانية ، وحلت النكبة او النكسة من جديد ، لاننا حاربنا اسرائيل بوصفنا دولا . وان القيادة العسكرية الموحدة لم تنشأ الا قبل ايام معدودات من بدء العدوان . يجب ان نتأكد من ان اول خطوة للنصر ، بل يجب ان نعتقد اعتقادا جازما بأن طريق الخلاص لن يتأتى لنا الا حين نجابه اسرائيل بجيش واحد ، وقيادة واحدة ، وخطة واحدة مدروسة من قبل . وبعبارة اوضح واصرح فاننا سنغلب من جديد اذا ما واجهنا اسرائيل دولا عربية ، بسياسات مختلفة ، وجيوش متعددة لا تجمعها قيادة واحدة ، ولا تخضع لتخطيط وتعبئة واحدة مدروسة ومعدة على اساس من حرب « كلية » بين العرب واسرائيل .

هذه هي العبرة الاولى التي حاولت ان اجليها في مقدمة هذا الكتاب . وسيبقى جهدنا خارج هذا الاطار اشتغالا بالعبث ، او ملهاة نخادع بها شعوبنا .

ترى هل نحن واعون متعظون ؟!

واعلن من هنا انك لو استجبت لهذا لتسامح الشعب معك ، على الرغم من كل جرائمك الرهيبة ، وعلى الرغم من كل المآسي والآلام التى كنت المسؤول الاول عنها • انك لو فعلت هذا لقال القائل فيك انك قد خلطت عملا صالحا وآخر سيئا ، فعسى الله ان يتوب عليك •••

ولكنني اعلم يقينا انك لن تستجيب لهذا ، ولن تعمل غير ما انت عامل من سخف ، وهراء ، وتدجيل ، وتزمير ، وادعاء عريض •• لا شيء غير هـذا ••

انك لن تفعل هذا الذي كان عليك ان تفعله ، لانك غير مخلص فيما تقوله ، انك تتاجر اليوم باقدس قضية تهم العالم العربى والاسلامى ، وتدجل فيها تدجيلا رخيصا مفضوحا ، وبشكل يزري بكل انسان •

ذلك انك في حقيقة ذاتك ــ ودعك من الصفات الضخمة ، والالقاب العديدة العريضة التى اسبغها عليك ، لسانك الناطق ، المهداوي ، وزبانيته من العملاء ، والشعوبيين والانتهازيين ــ اقول انك في حقيقتك ، كما سيحكم عليك التاريخ حكمه العادل ، لن تعدو واحدا من ثلاثة : فأما انك رجل تافه مأفون العقل ، مصاب بجنون العظمة ، او انك مهرج انتهازي أناني دجال ، او انك عميل مجرم جئت لخدمة الاستعمار والصهيونية ، وتأييد نفوذهما في هذه الديار • ستكون الاول ، حين يرفق بك التاريخ ، وستكون الثالث حين يحاسبك الحساب الصارم الدقيق •••

ولست ادرى هل تعـلم سبب عـدم اهتمـام اسرائيل بتصريحاتك ، وتهديداتك ، وهل تعلم سبب حرصها على بقائك ، ودوام حكمك ؟؟؟ انها تعلم يقينا ان ما تقوله يذهب مع الريح ، وانك بسياستك الشعوبية الانتهازية تخدم اسرائيل اجل خدمة ، وأنك تقوم اليوم بالدور الذى كان يمثله من قبلك نوري السعيد •

فحينما وقع العدوان الثلاثي الآثم على مصر ، واقلق العرب وهاجوا ، واشفقت الدول المحايدة من هذا العدوان السافر ، رحين كان العراق في هلع من سياسة حكامه الانعزالية ، خرج نورى السعيد على العالم بتصريحه

العنتري ! « ان سياسة العراق هى القضاء على اسرائيل لانها سبب الاضطراب في الشرق الاوسط » ...

وهزأت اسرائيل من هذا التصريح ، وقال قائلها ، انه للاستهلاك المحلي ، وانه لا يعني شيئا بالنسبة لاسرائيل ، وكان قصد نوري السعيد حقا هو صرف الاذهان عن مصر ، ومحاولة الهاء الشعب بشيء ما ...

انك يا سيادة الزعيم الفذ تمثل اليوم الدور نفسه ، على المسرح نفسه ، للغاية نفسها .

وانى أؤكد لك انك ستلقى المصير الذى آل اليه سلفك فى تمثيل هذه الرواية البشعة ، نفسه .

ولا تحسب ان سيارتك المصفحة ، ولا حصنك الحصين في وزارة الدفاع ، ولا استخبارات الدول الاجنبية التى صرت تركن يوما بعد يوم اليها ، تنجيك من غضب الشعب ونقمته ...

فقد حسبوا ، كما حسبت انهم مانعتهم حصونهم من الله شيئا فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ....

ومع ذلك فتأكدوا ـ ايها الاخوة الاحرار في عراقنا الحبيب ، وفي دنيا العرب كلها ، ـ تأكدوا أن فلسطين ستحرر ، كما ستحرر كل اجزاء الوطن العربي ، ستتحرر من الصهاينة والاستعماريين والعملاء ، وسيعود عرب فلسطين الى ديارهم ، وارضهم « وبياراتهم » واوطانهم . سينقذها العرب الاحرار ، ستنقذها الجيوش العربية المظفرة ، ستنقذها القومية العربية المكافحة النامية ، ستنقذها الجمهورية العربية المتحدة[1] ....

---

(١) ان مما يحز في النفس اليوم الا نرى تحقق هـذا المطلب القومي الحيوي ، بل ان نرى الامر وقد ازداد سوءاً فاصبحت فلسطين كلها تحت سيطرة الصهاينة ، كما اصبحت سيناء وجزءا من سورية كذلك .

ولقد حاولت في مقدمة هذا الكتاب ان اعالج اسباب هذه النكسة المروعة ، واشير الى العبر التي يجب ان نستخلصها منها . ولكنني هنا اريد ان اشير الى ان الوقت العابث ، والجهد المضاع ، الذى صرفته كثير من الدول العربية ، ومنها العراق ، بسبب التغيرات الشديدة في حكوماتها وسياساتها ، قد اسهما ولا شك فى النكسة التى نقاسي اليوم منها اشد المقاساة .

وسينبلج الصبح ، وستقر عيون المخلصين ، وستثلج صدور المؤمنين بنصر الله ، وسيبوء الدجالون الادعياء المهرجون الكذابون بالخزي والعار والهوان ، وسيعلم العالم كله لمن المجد ، والخلود ، وسيعلم العالم كله على من تحل لعنة التاريخ الابدية ونقمة الاجيال كلها • وسلام بعد ذلك على الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه •

حول الدعوة الى التضامن العربى[1]

بدأنا في الايام الاخيرة نسمع من جديد اصواتا تنادى بالتضامن العربى ، وتدعو الى جمع شمل العرب ، وتوحيد صفوفهم . بدأنا نستمع الى هذه الاصوات من جهات ما عهدناها من قبل تنطق بغير هجر القول ، ومنكر الدعوات ، ومرذول الفكر .

سمعنا هذه الاصوات وقد اضاع ما فى الفاظها من جرس جميل ما خالط اصوات المنادين بها من استعلاء منكر ، وتبجح مفضوح ، وادعاءات عريضة تكذبها كل يوم ، بل وكل ساعة ، الفعال الشائنة .

سمعنا هذه الاصوات وكم كنا نتمنى من اعماق اعماقنا لو انها كانت

---

(١) كنت قد أعددت هذا الحديث لالقائه من اذاعة صوت العرب في نداء العراق . ولكن « السياسة » حينذاك قد رأت ان تهادن عبدالكريم قاسم ولذلك طلب الي المشرفون على اذاعة صوت العرب ان اخفف من حدة الحديث ، وان احذف بعض الفقرات فأبيت وكان ذلك آخر عهدي بأذاعة صوت العرب ... لقد كنت مؤمنا بأن المهادنة مع عبدالكريم قاسم غير مجدية ، وان الذين اشاروا على الجمهورية العربية وهم من القوميين (قوميين من طراز خاص) بأن تركن الى ملاينة عبدالكريم قاسم لم يكونوا مخلصين في ابداء مشورتهم ، ولكنهم كانوا يتاجرون بالابقاء على صلات بعبدالكريم قاسم من جهة ، وبالابقاء على علاقة طيبة بالجمهورية العربية المتحدة من جهة اخرى . ولقد اثبتت الاحداث صدق فراستي ، وصواب رأيي في عبدالكريم وعهده ، وفي ذلك الطراز من القوميين الذين يستطيعون تغيير حللهم بسرعة عجيبة !! ...

صادرة عن قلوب صادقة مخلصة ، لا تريد بها غير صالح هذه الامة ، ولا تهدف منها الى غير مصلحة العرب الحقيقية ....

كم كنا نود من الصميم ان تكون هذه الدعوات منبثقة عن ادراك صحيح لواقع امتنا ، ورغبة خالصة للسير بها قدما في الطريق السوي الذى يأمن معه سالكه العثار ، ويصل بالسارى الى محجة الامن والسلام ، ويحقق لهذه الامة الكريمة ما تصبو اليه من كيان قويم تتفيأ في ظله الوارف وتتلمس حقيقة وجودها ، وتحقق ، تحت لوائه الخفاق ، كامل شخصيتها ، وتؤمن بسببه العدل الشامل ، والمساواة التامة ، والامن الحقيقى ، والرفاه الموفور ، **لكل فرد من افرادها .**

الحق ان الاتحاد ، أو جمع الشمل ، أو التكتل العربي ، ـ التكتل على أي شكل من اشكاله ـ كان مطلبا اساسيا للقومية العربية فيما مضى ، وهو اليوم ، اليوم على وجه التخصيص ، اليوم بعد فشل مؤتمر الذروة واشتجار نار الحرب الباردة واشتداد الخصومات الدولية بين الدول الكبرى ، اليوم وبعد ان عادت اسرائيل المجرمة ، والصهيونية العالمية المتنمرة تشتد فى حبك مؤامراتها ، وتدبير دسائسها ، وصوغ خطط كيدها الماكر ، لا بعرب فلسطين وحدهم ، بل بالعرب حيثما يكونون ، اليوم بعد ان اخذت دول الغرب من جديد تضاعف مساعداتها سرا وجهرا لاسرائيل ، وتجد بالعون الادبي ، المادى ، الاقتصادى ، والعسكرى ، جدا ، اليوم وبعد ان اخذ مجرم الحرب « بن جوريون » يلقى من دول الغرب العريقة في الاستعمار كل ترحاب ، ويعامل وكأنه بطل حقيقى من ابطال الانسانية ، وهم لا يفعلون ذلك ، في الدرجة الاولى ، حبا له ، وتقديرا لبطولته المزعومة ، بل بغضا للعرب ، ورغبة في الكيد لهم ، والتعريض بهم .... اقول اليوم على وجه الدقة والتخصيص ، صار التضامن العربي ، أو توحيد الصف العربى ، مطلبا حياتيا لا محيص عنه ....

ولكننا حين نعيد النظر ثانية ، ونفكر مليا في سلوك هؤلاء الادعياء القوالين ، ممن نكبت بعض البلاد العربية بزعامتهم ، يحز في نفوسنا ان

يرجع الطرف منا خاسئا وهو حسير ، ويتملك الالم الممض قلوبنا حين نسمع هؤلاء الافاقين الدجالين ، الذين يتاجرون في كل شيء ، حتى في اعصب الاوقات واخطر الساعات ، وهم لا يريـدون فيما يقـولون غير المتاجـرة والتدجيل ....

احقا ان التضامن هو ما يريدون ، وانهم الى جمع شمل العـــرب يهدفون ؟

اذا فعلام هذا السلوك الملتوي ، وعلام هذه الافعال التى حطمت ما كان قائما فعلا من وحدة الصف العربي ؟

ثم أنى للفرد العربى - الفرد العربى حيثما يكون - ان يصدق هذه الدعوات من اناس تلطخت ايديهم بدماء الابرياء ، وشحنت صحائفهم السود بكل ما يزري ويشين .

فلم يكتفوا بتفريق الامة الواحدة خدمة لمصالح الاستعمار والصهيونية بل عملوا جاهدين ، وبكل وسيلة تيسرت لديهم ، لتفتيت وحدة الشعب ، وتجزئته الى احزاب وشيع وعناصر ومذاهب متنافرة متناحرة الى الحد الذى لم يسبق ان مر الشعب بمثل هذه المرحلة قط في تاريخه الطويل كله . وهدفهم من هذا ان يحققوا مبدأ استعماريا عرفوه ، مع القليل الذى عرفوه : « فرق تسد » ، فرق الشعب الواحد تذهب بريحـه ، وتفـرض سيادتك وسلطانك بالقوة والنار والحديد عليه .

واكثر من ذلك فقد تفنن هذا « الماكر » في تطبيق هذا المذهب ايما تفنن ، فلم يكتف بتفتيت الامة الواحدة ، والشعب الواحد ، بل عمل جاهدا على تفريق الحزب الواحد ، والنقابة الواحدة ، والمؤسسة الواحدة ، حتى صار « التفتيت » الطابع العام الذي يطبع الحياة ، في ظل حكمه الرهيب ، في شتى نواحيها ....

ولم تقف سياسة التفتيت هذه عند مظاهر الحياة العامة للشعب بل تعدت ذلك الى الحياة الخاصة ، فسرى مذهب التفتيت بين افراد الاسرة الواحدة ، ففرق بين الاخ واخيه ، والمرء وزوجه ، والطالب واستاذه ، وبث جواسيسه

بين افراد العائلة الواحدة والمدرسة الواحدة ، ناهيك عما روج من مبادىء هدامة عملت على تحطيم العائلة ايما تحطيم •

فكم من الغفلة ، وكم من الجهل والبلادة اذن سيحتاج الفرد العربى ليصدق دعوات هؤلاء الافاكين المدجلين الداعين لجمع الشمل ، ووحدة الصف ؟؟؟

والى جانب دعوات التضامن ، وتوحيد الصف ، عدنا نسمع من جديد دعوات للتآخي والتسامح • وما احلى التآخى ، واعذب التسامح ، حين يصدران عن نفس طيبة تؤمن حقا بالتآخي والتسامح ، وتجعلهما نبراس حياتها •

كم كنا نود ان تصدق الافعال التصاريح ، لا ان تذهب هذه الاقوال مع الريح ••• فاين هو التسامح ؟ ومن احرى بالتسامح من اخوان السلاح الذين تقاسموا في جوف الليل على التناصر والتعاضد في كل ظرف ، وعلى كل حال من الاحوال ؟ وعلام غيب الحقد اللئيم العشرات منهم في التراب ، وان بقيت ذكراهم عاطرة الى الابد ؟ وعلام ما يزال العشرات الى اليوم في ظلام السجون الرهيبة ؟ وهل كانت جريمتهم الكبرى غير ايمانهم بعروبتهم ، وحرصهم على وحدة الصف العربى ، وسعيهم لتوحيد كلمة امة العرب ؟

الحق ان التسامح قد عمل به هذا « الدعى » حينا وشمل به فريقا صغيرا واحدا من ابناء الشعب ، شمل هذا الفريق الذى آمن بالسحل ودعا له وطبقه فعلا ، شمل الفريق الذى ارتكب من الجرائم ما لم يرتكبه هولاكو ولا الصهاينة في دير ياسين ، على حد ما يقول هو • فالاغضاء عن جرائمهم سماحة ، واذا اشتد مطلب الجماهير ، وتهتكت الحجب ، ولم يعد في الامكان التستر عليهم فليحاكموا •••• ولكن لا في محكمة التهريج والتدجيل (محكمة السب) بل في محاكمة اعتيادية يضمن لهم فيها حق الدفاع الكامل ، وتصان فيها كرامتهم الانسانية كاملة • ولا انتقاد لنا على هذا مطلقا فنحن نؤمن ان من حق كل انسان ان يحاكم محاكمة عادلة حيادية يتاح له فيها حق الدفاع الكامل عن النفس ، حتى وان كان هذا الشخص من اعضاء

المحكمة القصابية ، او من عصابة الفتك الجماعي في مجازر كركوك . ولكن السؤال هو لم يحاكم هؤلاء بهذه الطريقة بينما يحاكم الضباط الاحرار ، اخوان السلاح ، وابطال الثورة الحقيقيون تلك المحاكمات الماجنة التى ستبقى الى الابد وصمة عار في تاريخ هذا العهد .

ثم حين اخذ الرأى العام يطلع على ما ارتكبته تلك الفئة المجرمة ، ويتحسس عمق خطرها ، ويدرك فظاعة اجرامها ، هنا تحركت الانسانية في هذا « الدعى » فشملهم بعطفه ووسعتهم رحمته ، فليحرم الجماهير الصاخبة حتى من الاطلاع على سير المحاكمات ...

وفوق ذلك اذا ما اصدرت المحاكم احكام الاعدام على هؤلاء المجرمين (العدميين) الخطرين فهم مطمئنون الى تسامحه وعفوه ، فلن ينفذ حكم من هذه الاحكام . واذا ما صدرت الاحكام بالسجن فليكن الرفاق مطمئنين على ان الاحكام ستخفف ، وان فريقا سيجدون طريقهم من السجن الى بيوتهم في جنح الظلام ، وان الذين لا يزالون في السجن لن يكون السجن لهم غير ملجأ يجدون فيه الامن من الشعب الغاضب الذى يريد ان ينتقم من هؤلاء الوحوش الضارية .

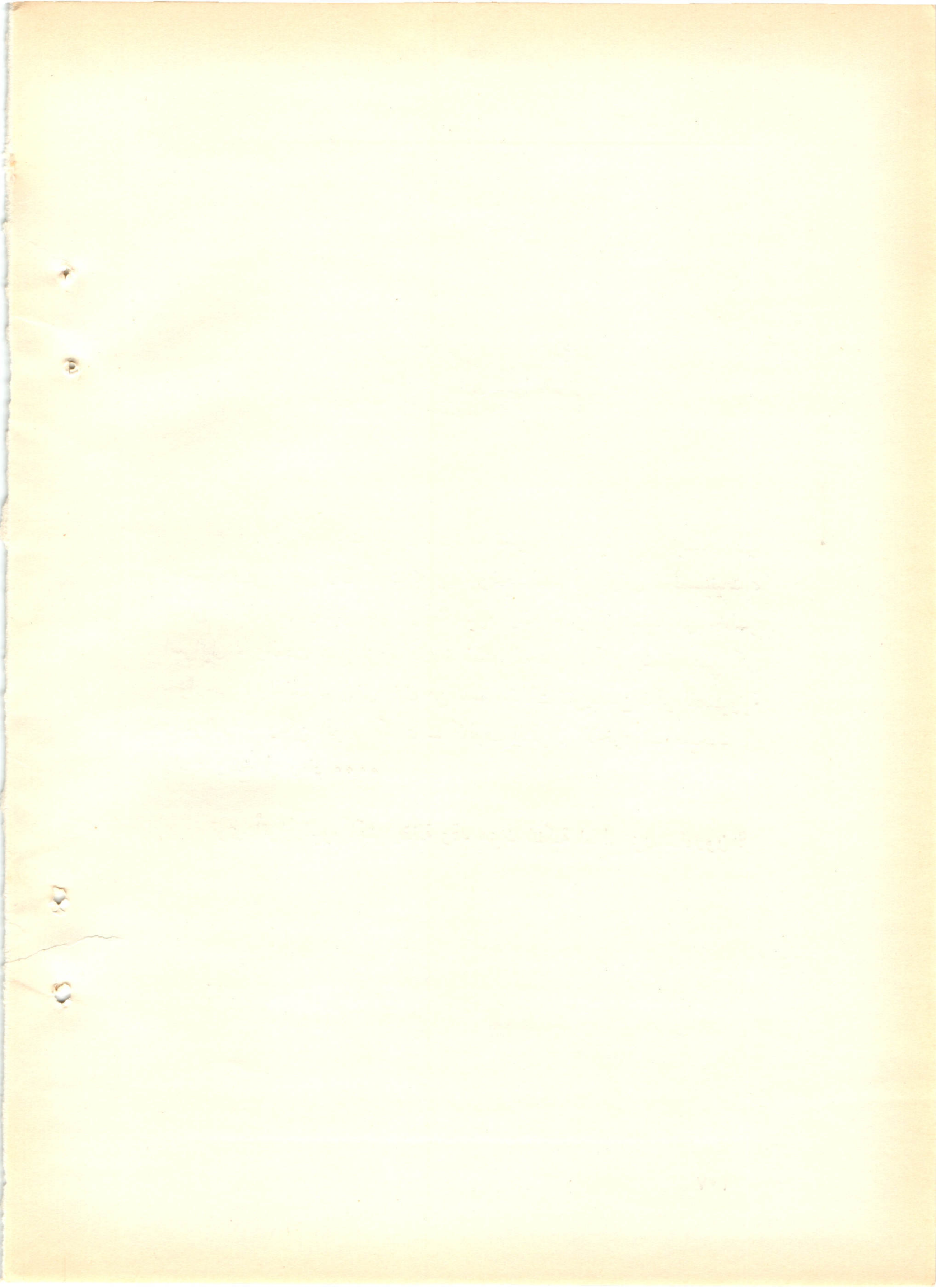
افيطمح هذا الدعى الدجال ، بعد هذا ان يصدق اى انسان سوي هذا الطراز من التدجيل المفضوح ، ويركن الى هذه لاقوال المكررة التى فقدت معانيها ، ويطمئن الى هذا السفاك الافاك الذي حرم الشعب أمنه ، وحطم اقتصادياته ، وهدر كرامته ، وسلب حريته ، وفتت وحدته .

يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون . ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص .

مِنْ وَحْيِ البَعْثِ العَرَبِي

هذه بعض المقالات التى كنت قد نشرتها في حينه في مجلة نادى البعث العربي ، هى وان كانت تصور الوضع القائم في اوائل الخمسينيات ، ولكن الكثير منها ينطبق على واقعنا اليوم ايضا . وكان التنبيه الى خطر اسرائيل ، والحث على لزوم ملاقاة ذلك التحدي ، كان يشغل علي كل جوارحى ، ولذلك لم يخل مقال من تلك المقالات تقريبا من ذكر للصهيونية واسرائيل . ولكن اقوالي كانت – كألوف الاقوال الاخرى – صيحات في واد ، ونفخ في رماد ....

ترى أترانا اليوم اكثر يقظة وقد هزتنا النكبة ام لم نزل سادرون ؟



« تعريق » شركات النفط[1]

دعوة التأميم للنفط ، والثروات الطبيعية والمعدنية الاخرى ، قد تجاوزت حدود الجدل العلمي ، وتعدت مجالات البحوث النظرية ، وبلغت مرحلة التطبيق الفعلي ، في اكثر من قطر واحد من اقطار العالم في الشرق والغرب .

وهذا المبدأ الاقتصادى الاشتراكى لم يبق بضاعة محصورة ومحتكرة تنتجها اوربا للاستهلاك الداخلي ، بل اصبح منتوجا حرا ، وصار نظاما عالميا تطبقه الحكومات الاشتراكية ، وتركن اليه الشعوب المضطهدة لتحقيق اهدافها الوطنية في المحيط الاقتصادى .

وقد خطت ايران ، في هذا المضمار ، خطوة جريئة لن يقلل من قيمتها كثيرا ما يعتور مستقبل العلاقات الايرانية الانكليزية من غموض ، ولا يبخس من قدرها ما تعانى ايران بسببها من قلق سياسى ، وتأزم اقتصادى ؛ ذلك القلق والتأزم الذي يجب ان يعتبر طبيعيا بعد مثل تلك الخطوة الجريئة الجبارة .

وقد تعالت في العراق صيحات للتأميم ، هى وان لم تبلغ بعد بشدتها وغاياتها ما بلغته في ايران ، لكنها صيحات قد تتعالى وتشتد كلما ازدادت الشركات صاحبات الامتياز - ومن ورائها الدول الغربية ذات المصالح

---

(١) نشرت في مجلة البعث العربى في عددها الثانى الصادر ببغداد بتاريخ ١-١-١٩٥٢ بعنوان « تعريق شركات النفط خطوة عملية للتأميم » .

الخاصة ـ في عنتها ، وتمادت في تجاهلها لشعور الناس الحقيقي ، وتطورهم الفكري ، وحاجاتهم المادية ، والغبن الفاحش الذى اصابهم في الماضى في اعز واجل مواردهم الاقتصادية • وقد تستطيع الشركات المختصة ان تتفادى كثيرا من شدة تلك الصيحات ـ ولو الى حين ـ كلما سارعت واعترفت بالظلم الصارخ الذى الحقته بالعراقيين ، وسعت جاهدة لتدارك تلك الهوة العميقة التى احدثتها سياستها في الماضي ، وعملت مخلصة على تعويض اهل البلاد عن الخسائر الفادحة التى اصيبوا بها في الماضي بسبب حرمانهم من التمتع بالقسط الاوفى من خيرات بلادهم •

وجدير بذوي الشأن ان يشعروا الطرف الثانى ـ من شركات او حكومات ذات علاقة ـ بقيمة دعوة التأميم هذه ، ومداها الحقيقى • وان من التفريط ـ كل التفريط ـ في حقوق البلاد ، والاساءة المنكرة للمصلحة الوطنية العامة ، التقليل من شأن تلك الدعوة ، وبخس قيمة الداعين اليها •

على انه قد يدعي فريق من السياسيين ـ من اصحاب النظرة الواقعية ـ بأن العراق ، بظروفه السياسية والفنية والمادية الراهنة ، قد لا يكون مهيئا ، كل التهيئة ، لتحقيق مبدأ التأميم على وجهه الصحيح ، والاستفادة من كنوزه الطبيعية على هذا الاساس ، ولذلك لا نراهم يتحمسون كثيرا للتأميم في سياستهم التطبيقية في هذه المرحلة من مراحل تطورنا الاجتماعي والاقتصادى • على انه اذا سلمنا جدلا بصعوبة التأميم بظروفنا القاهرة فمن الواجب ان يعمل المسؤولون بجد لتعبيد الطريق لتحقيق تلك الغاية النهائية التى يعسر جدا تصور امكان ايجاد وسيلة اخرى غيرها لتحقيق استقلال البلاد التام في الناحيتين السياسية والاقتصادية •

ومهما يكن من امر فان « تعريق » الشركات المنتجة للنفط صاحبات الامتياز ، لاشك انه من اهم الوسائل العملية لتحقيق تلك الغاية • ومما لا شك فيه ايضا ، أن الظروف الدولية مواتية له ، ومبدأ السيادة يقره ، كما تفرضه العزة القومية فرضا •

ولعل من المفيد ان اوضح سلفا ما يقصد بالتأميم ، بالمعنى العلمي ،

لرفع سوء الفهم الذي يسعى بعض الناس لاشاعته حول هذا المصطلح اولا ، ولتيسير ادراك معنى « التعريق » بطريق القياس على التأميم ثانيا .

فالمقصود بالتأميم - وهو ترجمة حرفية للمصطلح الاجنبي Nationalisation - جعل النفط ، وجميع مشتقاته ومنتجاته وكل ما يتصل بصناعته واستخراجه وتجارته وتوزيعه ، عائدا للدولة تقوم به لحسابها ؛ اي انها تنفق من مالها في سبيل استخراجه وتحضيره وتكريره وبيعه ، واليها يعود ما يحصل من كل ذلك من مغانم وارباح . وبعبارة اخرى فان التأميم يعني قيام الحكومة فعلا ومباشرة بمهام شركات النفط صاحبات الامتياز ، وفي هذه الحالة يصبح العمال والمهندسون والموظفون والفنيون وكل المشتغلين في النفط مستخدمين لدى الحكومة مباشرة . ومن هذا يتضح جليا ان معنى التأميم اللفظي لا يؤدي الى هذا المعنى الشامل تماما ؛ لان معناه الحرفي صيرورة الشيء ملكا للامة ، بينما المقصود منه فعلا هو تحويل النفط ووسائل انتاجه وتوزيعه ملكا للحكومة ، او اذا اردنا ان نتساهل في التعبير ، صيرورته ملكا للدولة . ولعل من اسباب هذا المصطلح الغربي هو كون الثروات المعدنية ، كالنفط والفحم والحديد ، لم تكن ، من حيث الاساس ، ملكا عاما للمجموع ، بل - تطبيقا لمبدأ الاقتصاد الحر وسيرا وراء مبدأ ملكية الارض المطلقة - لافراد معينين كانوا يتصرفون بتلك الثروات الطبيعية الهائلة بمحض مشيئتهم ، وتكون المغانم لهم ، والمغارم عليهم ؛ وهذا هو الحال الى الآن في امريكا ، وكان كذلك في انكلترة الى ان وفقت حكومة العمال في تأميم بعض تلك المرافق وخاصة الفحم والصلب .

وعلى هذا نستطيع ان نقول بأن نظريتنا القانونية في هذا الشأن - من حيث هي - اقرب الى مبدأ اشتراكية الدولة في بعض تلك الدول الغربية ، لانها تعد تلك الموارد الطبيعية ملكا للدولة ؛ اى انها تعتبرها من الاملاك العامة ، لا الاملاك الخاصة . وعلى هذا فيجوز ان يقال بأن الزيت في العراق مؤمم من حيث الاصل بهذا المعنى الضيق . ولكن ، كما اسلفنا القول ، ان المقصود بالتأميم ، بالمعنى العلمي الشامل ، هو صيرورة كل ما

يتصل بالنفط من صناعة وتجارة وادارة عائدة للحكومة وخاضعا لها خضوعا تاما ، وهذا يعارض بطبيعة الحال بقاء الشركة او الشركات صاحبات الامتياز •

ومن الحق علينا ان نعترف بان طريق التأميم ، بالمعنى الشامل الدقيق هذا ، ليس هو الطريق الوحيد لاستغلال الثروات الطبيعية والمعدنية في اي بلد من البلاد ، بل يوجد من علماء الاقتصاد من يعارض فيه ، ويعتبره وسيلة غير مجدية ، لانها تزيد في كلفة الانتاج ، وتضعف فيها المنافسة الحرة اللازمة للاتقان والجودة والابداع • ولكن من الحق علينا ايضا ان نعترف بأن دعاة التأميم في البلاد المضطهدة خاصة لا يدعون اليه باعتباره احسن الوسائل الاقتصادية واكثرها نفعا من الناحية المادية الصرفة ، بل انهم يعتبرونه الوسيلة الحيوية للقضاء على النفوذ الاجنبي المتوغل ، والذي يسير - في العادة - جنبا الى جنب مع الشركات المتنفذة التي اثبتت الوقائع التاريخية، بما لا يقبل الجدل ، عظيم تأثيرها على سياسة كثير من تلك الاقطار ، ودلت الاحداث ، دلالة واضحة ، على مقدار توغلها حتى في الشؤون الداخلية الصرفة لتلك البلاد •

نعود الآن الى توضيح المقصود من « تعريق النفط » • ونستطيع ان نقول بايجاز ان المقصود به هو جعل النفط وصناعته وتجارته عراقيا بالمعنى القانوني الشامل • وهذا يعني اشياء عديدة نوضحها على الوجه التالي :

اولا : وأول ما يتطلب في هذا الشأن ان تسجل الشركات ، صاحبات الامتياز ، في العراق ، كما تسجل الشخصيات المعنوية الاخرى ، وبهذا يقضى على صفة الشركة الاجنبية ، ويزول النص الذى تجده في اكثر اتفاقيات النفط من كون الشركة بريطانية ، وتبقى مسجلة في بريطانيا العظمى ، ومقر اشتغالها في داخل ممتلكات صاحب الجلالة البريطانية •

ثانيا : وكنتيجة اساسية من نتائج تسجيل الشركات في العراق ، وصيرورتها شركات عراقية ، خضوعها التام للقانون العراقى ، وسريان جميع التشريعات العراقية المالية والادارية عليها سريانا تاما • وتتجلى قيمة هذه القضية في لزوم اخضاع شركات النفط كافة الى الضرائب العراقية ،

كما تخضع جميع الشركات الاخرى عادة ، ولزوم رفع تلك الاستثناءات التى تعفي تلك الشركات من جميع الضرائب وخاصة من ضريبة الدخل . ولاشك في أن فائدة العراق المادية تكون اعظم لو اننا اخضعنا تلك الشركات الى ضريبة الدخل بدل محاولة زيادة نسبة العوائد .

وعلى الرغم من خسارتنا المالية في هذه الناحية ، فان من اول مظاهر السيادة في اي بلد مستقل ، خضوع المكلفين كافة الى الضرائب العمومية . ولاشك ان بعض المسؤولين يعلمون جيدا بان مايحصل عليه العراق من نفع ، لو كانت شركات النفط خاضعة الى ضريبة الدخل عن جميع الارباح الحقيقية التى تحصل للشركة بسبب انتاج النفط وتجارته ، هو اعظم من اى زيادة يمكن ان يحصل عليها بسبب زيادة نسبة عوائده او حصته . وبالاضافة الى ضريبة الدخل ، فان شركات النفط تتمتع باعفاءات واسعة في استيراداتها التى لا تدفع عنها الرسوم الكمركية ، مما يجعلها وكأنها دولة ضمن دولة .

ثالثا : وتعريق الشركة يتطلب خضوعها التام لسلطان القضاء العراقي ، وصيرورة المحاكم العراقية مختصة ، لا بالنظر في القضايا الجزئية التى تحدث بين الشركات والافراد ، بل وفي كل ما يشجر بينها وبين الحكومة ـ المالك الاصلي للنفط ـ من خلافات ، وبذلك تزول الحاجة الى مراجعة المحاكم الاجنبية ، كما يزول مبدأ الرجوع الى التحكيم في تفسير النصوص المختلف على تفسيرها ، وذلك لان التحكيم لا يكون عادة الا بين الدول ذوات السيادة . وفي قبول التحكيم مع الشركة رفع لها الى مصاف الدولة ذات السيادة او انزال لمنزلة الدولة الى مصاف الشركات التجارية ، وفي هذا انتقاص من سيادة البلاد . فالشركات يجب ان تخضع للقضاء المحلي ، كما تخضع جميع الاشخاص الحقيقية والحكمية . على ان النصوص الراهنة وان لم تسلب حق القضاء العراقى صراحة ، ولكن بقاء الشركات اجنبية يجعل امر مقاضاتها امام المحاكم العراقية ـ بالاضافة الى عدم جدواه فعليا ـ امرا مشكوكا فيه على اقل تقدير .

رابعا : وتعريق الشركة يتطلب تسجيل الاتفاق معها بنص اللغة الرسمية للعراق • وليست هذه مسألة ادبية محضة اذ دلت التجارب على ان اعتبار النص الانكليزي هو النص الرسمي ، بالاضافة الى هدره للكرامة الوطنية ، فان فيه مجالا واسعا لتضييع كثير من الحقوق المادية والاقتصادية •

وقد آن الاوان لكي تعلم الشركات الاجنبية بان النفط هو نفط العراق ، وانها هى المستفيدة الاولى من تلك الثروة العظيمة ، وان عليها ان تقبل بلغة البلاد الرسمية • وغريب جدا ان يزعم بعضهم بان اللغة العربية لا تصلح لوضع الصياغات القانونية الفنية لاتفاقات دقيقة كاتفاقيات النفط ، وتفاهة هذا الرأى وبطلانه لا تحتاج الى تدليل •

وحري بنا ـ على اقل تقدير ـ الا نقبل اقل مما قبلته المملكة العربية السعودية باتفاقها مع شركات النفط الامريكية اذا اعتبرت اللغتان العربية والانكليزية بقوة قانونية واحدة ، ولا فضل للنص الانكليزي على النص العربى مطلقا •

خامسا : ويتطلب التعريق جعل الرقابة الفعلية على الشركة للعراقيين ، يفسح المجال لهم في الادارة والعمل الفني بصورة جدية • اما النصوص الغامضة المطاطة التي احتوت عليها اكثر اتفاقيات النفط السابقة فليس فيها كبير غناء • فقد دلت التجارب على انها لم يرد بها اشتراك العراقيين فعلا في هذه الصناعة العظيمة • ولاشك في ان الشركات تحاذر من انشاء جيل مثقف من العراقيين ملم بشؤون النفط من النواحى العلمية والهندسية والميكانيكية والفنية والاقتصادية ، لان ذلك سيبطل اقوى اسلحتها في معارضة التأميم •

وكم يحز في قلوب المخلصين ان لا نجد الى اليوم في العراق ـ على الرغم من مرور قرابة ثلث قرن ـ الا افرادا قلائل ممن لهم خبرة علمية باستخراج النفط وهندسته ، وان هذا العدد ، على قلته ، لم يتح له ان يمارس فعلا مهام النفط في الآبار والحقول ، وبقى محصورا بين جدران الدواوين الرسمية ، ومغمورا بالاضبارات والاعمال الرتيبة التى كان باستطاعة

من هم اقل منهم استعدادا فنيا للقيام بها •

سادسا : وتعريق النفط يتطلب اخيرا ان يفسح المجال الجدي لمساهمة العراقيين فعلا باسهم شركات النفط • وفى الحقيقة فقد نص على هذا المبدأ في بعض الاتفاقيات وذكرت نسبة مايجوز للعراقيين ان يساهموا به ، ولكن الشركات لم تعمـــل بذلك مطلقا ، وهكذا بقي ريع النفط ـ في غالبيته ـ موزعا بين خزانة الحكومة البريطانية ، التى تستوفي ضريبة الدخل عن ارباح الشركة باعتبارها شركة بريطانية وبين حاملي الاسهم والحصص في تلك الشركات وكلهم من الاجانب[١] •

هذه بعض اوجه « تعريق » النفط وجعل الشركات المنتجة عراقية وهى حرية ان يتنبه اليها كل من يعالج شؤون هذا المرفق الخطير •

---

(١) تنتفع الحكومة البريطانية من شـــركات النفط من ناحيتين أساسيتين ، فهي شريكة في الشركة الام اى B.P. التي تملك جزءاً مهما من شركات النفط العاملة في العراق ، وتنتفع ثانيا من صافي ربح الشركات باعتبارها شركات بريطانية خاضعة الى ضريبة الدخل •

ان حق العراق في تملك عشرين بالمائة من اسهم الشركة قد اصبح عمليا امرا مستحيلا بعد ان عملت الشركات الى تحويل اسهمها الى اشخاص معينين • وقد بقيت هذه احدى نقاط الخلاف المهمة بين الحكومة العراقية وشركات النفط في المفاوضات التى اجريت معها كافة •

ومن الجدير بالذكر هنا ان مشاكل النفط من العمق والتعقيد بحيث يبدو لي اليوم بان الآراء التي كنت قد بينتها قبل نحو من خمس عشرة سنة ليست الا نظرة ظاهرة ينقصها الكثير من العمق والادراك الصحيح لهذه المعضلة • وعندى اننا بحاجة ماسة الى هيئة فنية مدركة تتخصص في دراسة مشكلات النفط من جميع وجوهها ، وتضع التوصيات النهائية التى يجب على الحكومات جميعا الاخذ بها للانتفاع بهذا المورد الحيوي على احسن وجه واكمله •

مصر وافريقية العربية في ثورة[1]

في مصر ، وفي المغرب الاقصى ، وفي افريقيا العربية عموما ، صراع عنيف من أجل الحرية والاستقلال ، وكفاح مرير في سبيل الكرامة والحياة ؛ وهو اذ يشتد ويقوى في وادي النيل خاصة ، فيأخذ طابع الثورة الدامية التي تسيل فيها الدماء النقية غزيرة ، وتتساقط بسببها جثث الشهداء في كل يوم ، بل وفي كل ساعة ، ويصطدم الشعب الاعزل ـ الآمن ايمانه الراسخ بحق أمته ـ مع القوات البريطانية العاتية المسلحة باحدث أنواع السلاح ، والجاثية على جنبات القناة ، فمرد ذلك ان المصريين ، وقد عيل صبرهم من سياسة التسويف وضاقت صدورهم بغدر الحليف ، قد ايقنوا ـ ولو بعد حين ـ بان لا سبيل للحرية الحمراء ، والكرامة الحقة ، غير اليد المضرجة ، والدم المهراق .

وليس حركة مصر حركة جانبية ولا هي بالحركة الفردية الغريبة عن تقاليد العرب الاصيلة في التمرد والثورة والعصيان على المستعمرين الغاصبين ، بل انها ، في واقع الحال ، حلقة جديدة في سلسلة كفاح الامة العربية في سبيل الحرية والانعتاق من اسار الاجنبي . واذا ما انتفض اخواننا

---

(١) نشر هذا المقال في العدد الثالث من مجلة البعث العربي الصادر ببغداد في ١٥ـ١ـ١٩٥٢ .

من ابناء النيل فان هذه الانتفاضة ليست الاّ هدفا من اهدافنا القومية العديدة ، ووسيلة من وسائل بعث الامة العربية بمجموعها . وان المصائب والآلام التي يلاقيها اخواننا المناضلون ستزيدنا ايمانا بقضيتنا ، وثقة بانفسنا ، وان تلك المصائب والآلام ستكون ، من دون شك ، من عوامل ازدياد مقاومتنا وكفاحنا للعدو الغاصب في كل بقعة من بقاع العروبة ، ولسنا نبالي بعد ذلك أقصر أمد الكفاح ام طال ، ولكننا نعلم يقينا اننا محقون في ما ندعو له ، ونكافح من أجله ، واننا في النهاية منتصرون .

وأهمية كفاح المصريين ، وما يترتب على هذا الكفاح المشرف من نتائج فعلية ، ليست بقاصرة على شعب الوادي ، شماله وجنوبه ، كما قد يتخيل بعض قصيري النظر ، بل لها ، من دون ريب ، أكبر الاثر في دنيا العرب في المشرق والمغرب ؛ وذلك لان مصر بموقعها الجغرافي ، ومركزها الثقافي ، ومنزلتها الاقتصادية ، وعدد سكانها ، هي بمنزلة القلب من جسم الوطن العربي الأكبر ، واذا ما صلح القلب صلح الجسد كله ، واذا ما وفقت مصر في تحقيق أمانيها ـ وهذا ما نرجوه ونعتقد انه ما سيكون ـ تمكنت بقيت اجزاء الوطن العربي الأخرى من نيل استقلالها الصحيح وحريتها الكاملة ، ومهد ذلك لتكوين اتحاد عربي شامل ، وقيام كتلة هائلة من البشر تعمل في سبيل سعادتها ، وسعادة الانسانية جمعاء . والعالم اليوم احوج ما يكون لقيام مثل تلك الكتلة التي ستقف وسطا بين الاطراف المتعارضة . ولكن المصالح المادية الضيقة ، والنزعة الاستعمارية الجشعة ، والروح الصليبية المقيتة الكامنة في العقل الباطن لمعظم ساسة الغرب الى اليوم ، والدعايات الصهيونية الماكرة الخبيثة المتوغلة ، هي من أهم العوامل الخارجية في اعاقة قيام مثل تلك الكتلة الفعالة .

وحري بالعرب جميعا ان يعلموا بأن اخفاق مصر في نيل أمانيها ـ اذا ما اخفقت لا سمح الله ـ هو النكبة الكبرى الثانية التي ستحل بهم بعد نكبتهم في ضياع فلسطين ، وان مما لاشك فيه بان أقوم السبل واقربها الى تحقيق الجولة الثانية ـ أمنية كل عربي مخلص ـ هو ان توفق مصر في

تحقيق مطاليبها باتحادها وجلاء قوات العدو الغاصب عن تربتها ومائهـا وسمائها ، وزوال النفوذ الاجنبي المصاحب لقوى الاحتلال زوالا تاما عنها ، وعند ذلك تصبح مصر قادرة على تهيئة جيش كفيل بان يغسل عار الهزيمة المدبرة المبيتة في النقب ، واحكام اقتصاديات مصر والبلاد العربية احكاماً يجعل بقاء اسرائيل مستحيلا او في حكم المستحيل •

وفي غرب مصر وعلى مقربة منها ولد في مطلع هذا العام مملكة عربية جديدة ، هي مملكة ليبيا ، ذلك القطر العربي الذي بقي يعـاني ويلات استعمار الطليان الفتاك ، ويقاسي من طغيان الفاشست الماحق ، ثلث قـرن أو يزيد • ولكن الليبين (في طرابلس وبرقة وفزان) كانوا كالاسـود الضواري يدافعون عن عرينهم المنتهك ، وحريتهم المفقودة ، وكرامتهم المهانة ، الى ان قيض الله لهم النصر بهزيمة ايطاليا في الحرب العالمية الثانية ، وافتضاح مؤامرات الدول الغربية الكبرى في الامم المتحدة •

ونحن – في هذا الجزء من الشرق العـربي – اذ نغتبط بالمولود الجديد ، ونحيي على صفحات هذه المجلة – لسان العرب الناطق حيثما يكون العرب – الشعب الشقيق المجاهد ، ونرجـو له خير ما يرجو الاخ المخلص لاخيه – ونتمنى من أعماق قلوبنا ان يوفق ذلك القطر الذي سلم من « تيفو الفاشست » بان لا يصاب « بسل الانكليز » ، ونأمل مخلصين ان لا يكون الداء العنيف السالف قد هد من بنيانـه واضعف من كيانه ، وافقده المناعة اللازمة للقضاء على هذا المرض الخبيث • ونود مشفقين ان نذكر القطر العربي الابي ، وعلى رأسه جلالة السنوسي المجاهد العربي القديم ، وزعماءه المخلصين ، وشبابه الطامحين بأن يكونوا جميعا يقظين حذيرين من أحابيل الغرب ودسائسه والا يكونوا له عونا على اخوانهم وجيرانهم الذين تربطهم بهم اوثق الروابط ، وتجمعهم اوشاج القربى ، وتؤلف بينهم وحدة المعتقد وقمين بالليبين ، وبالعرب جميعا ، ان لا تنسيهم نشوة هـذا النصر العربي الجزئي عن التفكير الجدي في خيبة آمال العرب الكثيرة ، في كثير من ارجاء الوطن العربي •

وعلى الغرب من ليبيا نجد في « تونس الخضراء » قلق وتحفز واضطرام يوشك ان يؤدي الى انتفاضة كبرى على حكم الفرنسيين الذين يريدون ـ فيما يريدون ـ أن يقسروا ذلك القطر العربي الجميل للخضوع لمصالحهم ، والاستجابة لمطالبهم ، والاعتراف بشرذمة من الفرنسيين النازحين ـ وكثير منهم من اليهود ـ والذين سعت فرنسا خلال السنوات العديدة الماضية في توطينهم واقتطاعهم اخصب البقاع ، وتحكمهم في أهم الخيرات والثروات وجعلهم شركاء في حكم البلاد ، وهم غرباء لا تربطهم مع أهل البلاد الاصليين رابطة وثيقة من جنس او لغة او دين او ولاء أو مصلحة .

وما يقال عن تونس يقال عن الجزائر وان كانت المصيبة هناك ادهى، والخطر أعظم واجل ، والداء أكثر زمانة ، ولكن تباشير انبلاج الصبح ظاهرة ، والشعور القومي متقد ظاهرا حينا ، وتحت الرماد في حين آخر ، والروح الاسلامية قوية فعالة ، ولابد ان تنجاب سحائب الاستعمار من أفق دنيا العرب ، مادامت يقظة العرب والمسلمين متحققة في كل مكان .

وهناك في أقصى الطرف الغربي من الوطن العربي تقف مراكش ـ عرين الليوث ـ من جديد على قدميها لتصارح الحامي اللئيم وجها لوجه، تجد في دفعه عنها دفعا ، لترفع بذلك ذل الحماية التي بددت وحدتها ، وانتقصت من استغلالها ، واودت بحريتها ، وحالت دون تقدمها . وهي تريد ـ وخليق بها ان تحقق ما تريد ـ ان تتوحد وتستقل بكل ما في الوحدة والاستقلال من معان ، وترغب في ان تصبح عضوا حيويا فعالا في العالم العربي .

اننا لنشعر بأن الداء الذي استشري ، والظلم الصارخ الذي لحق بنا ، والهوان الذى اصابنا في الماضي ، والذى لم نزل نعاني منه ، كان منشوه الاساسي فرقتنا وتخاذلنا وانانياتنا ؟ فمتى ما حاربنا الفرقة بالاتحاد ، والتخاذل بالتناصر ، والأنانيات بالتضحيات ، فلن تعود اساطيل انكلترة ، ولا جيوش فرنسا ؟ ولا مكر اسرائيل ، ـ ومن ورائهم جميعا أمريكا

تمدهم بالمال والسلاح ـ قادرة على كبحنا ، وتحطيم استقلالنا والحيلولـة دون اتحادنا ، والاستئثار بخيراتنا[1] .

(١) لقد استقلت كل الاقطار العربية في افريقية الشمالية ، ولكن فرقتنا ، وفرقة تلك الاقطار باقية ، بل حدثت ـ كما هو معلوم ـ اصطدامات في فترات زمنية مختلفة بين الجزائر والمغرب . ان الحل لمشكلتنا الكبرى يكمن فى تكتلنا واقامة كيان شامل . وكنت اتمنى لو تحققت وحدة افريقية العربية لان ذلك سيدفعنا الى تحقيق وحدتنا الشاملة . ان الشىء الذى يسر هو الروح العربية الثورية المخلصة التى تبديها الجزائر اليوم بعد النكسة او النكبة الثانية ، كما ان السودان يقوم اليوم بدور مهم فى المجال القومى العربى . وعسى ان تكون من عبر هذه النكسة المؤلمة وآثارها اقامة نوع من الكيان العربي المشترك ولو في الحدود الضيقة التي اشرت اليها في مقدمة هذا الكتاب .

الأنهزامية[1]

« الانهزامية » خلق يشيع عادة في المجتمعات المنحلة التي تضعف فيها القيم الروحية السامية ، وتتداعى المقومات الاساسية الرفيعة ، وتتغلب النزعات الفردية الجامحة • ويزداد هذا الخلق ظهورا حينما تطغى الانانية المستأثرة على « الغيرية » المؤثرة ، وتنتصر الواقعية المستسلمة على المثالية المكافحة • ونستطيع القول ، على العموم ، بان « الانهزامية » تواكب روح المدنية المترفة ، بينما تتجلى روح « الكفاح » في الحضارة المبدعة • وفي تأريخ أمتنا العربية ، والامم الاخرى ، شواهد عديدة ، وأمثلة لا تحصى ، تدل دلالة واضحة على ان النهضات المنشئة ، والثورات الكبرى الفاصلة لا تتحقق في أي مجتمع من المجتمعات ، الا حينما تقوى روح « الكفاح » وتشتد في الفرد والجماعة على حد سواء ، وان أول امارات الانحطاط والتأخر انتشار الروح الانهزامية والخنوع •

ومن المؤسف حقا ان نسمع ، بين حين وآخر ، صيحات الانهزاميين تعلو ، هنا او هناك ، وخاصة بعد الحوادث الجسام ، والنكبات المريرة ، التى تتعرض لها الامة – وليس ذلك بدعا – في قطر من أقطارها ، وتلك الصيحات وان امتزجت ، في احيان كثيرة ، بدعوات « التعقل » و « الايجابية » و « الواقعية » فانها في جوهرها الأصلي تنم عن شيء واحد ، وهي ليست الا

---

(١) نشر هذا المقال في العدد الخامس من مجلة البعث العربى الصادر ببغداد في ١٥-٢-١٩٥٢ •

مظهرا من مظاهر اليأس وايثار السلامة ، والنفع الذاتي ، على الرغم مما يصطنع لها دعاتها من مبررات ، واسباب ، وما يسبغونه عليها من اقنعة لا يمكن ان يتوهم بها غير البسطاء والاغرار .

وليست الانهزامية ـ بمعناها الواسع ـ بقاصرة على الذين يتنادون بالصلح مع اسرائيل ـ العدو الجاثم على الصدور ـ ، ولا الذين يريدوننا ان نستسلم للغرب المسيء لكرامة الامة ، والمستأثرة بخير البلاد ، ولا الذين يشجبون كل حركة حرة في أي قطر عربي ، سواء أكانت تلك الحركة سياسية أم اقتصادية أم اجتماعيــة أم دينية ، بل للانهزامية في واقع الحال صورا عديدة واشكالا متنوعة .

ثم ان الروح الانهزامية كما تظهر في الافراد والاشخاص الحقيقيين ، فانها قد ، تتجلى في الوقت ذاته ، في المؤسسات العامة والاشخاص الحكمية أيضـا .

فالشاب الذي لا يعني الا بذاته وملذاته ، ويؤثر الفردية على الزواج، ـ من دون سبب معقول ـ ، ولا يعنيه مصير أمته ، واخلاق مجتمعه ، انهزامي . والطالب الذي لا يهمه الا نجاحه في دراسته ونيله الشـهادة ـ بأي طريقة كانت ـ ولا يساهم في خدمة وطنه ، انهزامي . والام التي لا تفكر الا بزينتها وجمالها ، ولا تعمل على تكوين بيتها ، وانشاء امتها انشاءا قويا ، انهزامية . ورب الاسرة الذي لا يراقب ابناءه وبناته ، ولا يوجههم التوجيه السليم ، ويترك لهم الحبل على الغارب ، ولا تعنيه الا مصالحه الذاتية ومنافعه الشخصية ، وليكن من بعده الطوفان ، انهزامي . والموظف الذي لا يهمه غير المحافظـة على مركزه ، وحصوله على ترفيعــه عند حلول وقتــه ، والاستمتاع بمغانم الوظيفة الى اقصى حدود الاستمتاع ، ولكنه مع ذلـك لا يجرأ على ان يحول كاتبا مسيئا في معيته خوفا من غضب من لا يريد اغضابه ، انهزامي . والأديب الذي يؤلف عن أدب العهد الفلاني للامــة الفلانية ، ويكتب عن خصائص الشاعر الفـلاني ، ويوغل في ترفه العقلي ، ثم لا يعالج مشكلة من مشكلات الحياة ، ولا يبدي رأيا في موضوع من

الموضوعات التي يتعلق بها مصير الامة بكاملها ، انهزامي • والشاعر الذى ينشد القصائد الطوال في المناسبات الرتيبة ، والحفلات التقليدية ، ثم لا تهزه نكبة فلسطين ، ولا يستثيره كفاح مصر ، ولا تحركه ثورة تونس ، انهزامي• ورجل الدين الذى يستدر الدموع ، ويستثير شجون الجماهير على ظلم أصاب شهيدا قبل قرون ، ثم لا تاخذه بعد ذلك هزة لمئات والوف من اخوانه في الدين والجنس يستشهدون كل يوم ، بل وكل ساعة برصاص المستعمرين ويتساقطون في خيم مهلهلة في هذا الشتاء القارص ، انهزامي • والواعظ الذي يلعن ظلم فرعون ، ويبحث بالتفصيل عن « احكام التيمم » ثم لا يشجب ظلم « فراعنة هذا العصر » الذين يذلون الجماعات والافراد ، ويجرعونهم كؤوس الشقاء مترعة ، ولا ينذر المسؤولين الذين يهملون سداد دجلة الذي يكاد تياره العارم ان يحطم كل السدود ، ولا يندد بالموظفين الذين يختلسون ما يخصص للوقاية من خطر الفيضان ، انهزامي • والغالب في رجال السياسة الذين يسمونهم بالمستقلين الذين لا يرتبطون بحزب ، ولا يتقيدون برأي ، ولا يلتزمون بمبدأ ، ويجلسون على التل ، ويميلون حيثما يميل التيار ، انهزاميون انتهازيون •••

والجمعيات والنوادي التي لا تعمل الا للمناسبات ، وهي في تلك المناسبات لا تعمل الا في مجالات ضيقة تافهة ، وأساليب تقليدية متكررة ، ولا تساهم في الشؤون العامة مساهمة جدية ، وتعيش على هامش الحياة ، ولا تخاطر في التوغل في صميمها ، انهزامية • والبلديات ـ وأمانة العاصمة ليست الا بلدية ـ التي لا تعنى الا باصلاح الطرق والمحلات التي يمر بها ويرتادها ذوو الشأن والمتنفذون ، ولا تعنى بالاحياء الفقيرة التي تسكنها أكثرية السكان ، والتي تهتم في المظاهر الكاذبة أكثر من اهتمامها في الانشاء المجدي ، انهزامية بمعنى من المعاني • ومحطات الاذاعة التي تكتفي باشغال الجماهير بتافه الحديث ، ومرذول اللحن ، وتذيع الاخبار كما ترويها الشركات الاستعارية وهي مليئة بالدس السافر حينا ، والمقنع في احيان اخرى ، والتي لا تعمل على جعل الاذاعة مدرسة شعبية كبرى لرفع مستوى

الجماعات الثقافي والعلمي والخلقي والروحي انهزامية • والحكومات ــ كل الحكومات ــ التي لا تعمل على رفع مقام شعوبها ، وتدعيم كيان دولها ، واستقلاص حقوق امتها كاملة ، وتواجه المشكلات الاساسية وجها لوجه ، انهزامية بهذا المعنى الشامل للانهزامية •••

ان روح الانهزامية التي تشيع في وقتنا الحاضر بين الافراد والجماعات ، وتنتشر بسرعة كما ينتشر الوباء الخبيث لمن أهم ما يجب ان يكافح ؛ لان هذه الروح اخطر معاول التهديم من دون شك • وكان من الواجب ان تكون هذه الروح بعيدة عنا لو كنا مسلمين حقا ، وقوميين صدقا ، ذلك لان ديننا الاسلام ايجابي ، ويحارب الروح الانهزامية محاربة لاهوادة فيها • ولا اريد ان اورد الشواهد العديدة على ذلك واكتفي بالآية الكريمة (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون) وبهذين الحديثين الشريفين التاليين (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) و (من رأى منكم منكرا فليقومه) •

والقومية الحقة ايجابية تضامنية ، وهي لذلك تعارض الروح الانهزامية كل المعارضة ، واخلاقنا القومية قائمة على هذا الاساس أيضا ، « فالغيرة » و « العصبية المهذبة » و « الاهتمام بحسن السمعة وطيب الاحدوثة » ، والكرم ، والنجدة والمروءة صفات وتقاليد عربية أساسية ، وكلها قاطعة الدلالة على بعد اخلاقنا القومية عن الروح الانهزامية •

ان امتنا العربية لتمر اليوم في مرحلة انتقال عظيمة ، فهي اما ان تثبت وجودها فتنمو وتزكو ، ــ ولا سبيل الى ذلك الا « بالكفاح » و « الاقدام » و « التضحية » ــ واما ان تضمر وتتلاشى ، وعندئذ يكون « الاستسلام » و « الانهزام » و « الاستئثار » اهم معاول ذلك التلاشي [1] •

---

(١) ما احرانا اليوم الى محاربة الانهزامية التى يشيعها البعض بعد النكسة الاخيرة •

آراء واحاديث في القومية العربية[1]

« ما أسعد الامم التى حققت وحدتها القومية ، واستكملت شخصيتها السياسية ، فاستطاعت ان تجعل حدودها الدولية منطبقة على حدودها القومية !

ذلك لان مفهوم الوطن عند امثال هذه الامم يكون واضح المعالم ومستقر الشكل .. الامة تكون دولة مستقلة موحدة ؛ تنطبق حدود الوطن عندها بحدود الدولة القائمة التى تجمع شمل الامة باجمعها تحت راية واحدة . ولذلك لا تكون الوطنية عند هؤلاء الامم موضوع خلاف ومثار جدل ؛ وجميع افراد الامة يفهمون الوطن على طراز واحد ، ولا يختلفون في تقدير واجباتهم الاساسية نحو هذا الوطن المشترك العام » .

بهذه العبارات المشرقة ، وهذا الاسلوب الاخاذ المفعم بالعاطفة القومية الصادقة ، يصدر المربي العربي الكبير الاستاذ ساطع الحصري كتابه الجديد « آراء واحاديث في القومية العربية » . والكتاب على صغر حجمه ـ وهو في الحقيقة اقرب الى الرسائل منه الى الكتب ـ جليل الفائدة ، كبير النفع ؛ وهو بمثابة الحلقة المتصلة بسلسلة المؤلفات القيمة التى دأب الاستاذ الفاضل على نشرها وتأليفها في بضع السنوات الاخيرة خاصة ، والتى تحمل العنوان المشترك الكبير « آراء واحاديث » .

---

(١) نشر هذا المقال في العدد السادس من مجلة البعث العربى الصادر ببغداد في ١ـ٣ـ١٩٥٢ وهو نقد لكتاب لاستاذ ساطع الحصري بهذا العنوان .

وبالاضافة الى الاسلوب البياني الرائع الذي يكاد يوصل الاستاذ أبا خلدون الى مصاف الادباء المشهورين اصحاب « السهل الممتنع » فانه يمتاز بعمق التفكير ، والاحاطة الشاملة التى تلم في البحث من جميع اطرافه ، والطريقة المنطقية التى لا يدانى فيها استاذنا الحصري من كتاب العصر مدان فيما اعلم • وتأخذك في مؤلفه هذا ، وجميع مؤلفاته الاخرى ، حجته البالغة ، ومنطقه السليم ، وامثلته وشواهده العديدة الصادقة • وهذا الكتاب واضرابه ، حري بالقراءة ، وباعادة القراءة ، خاصة من قبل الشباب المثقف ، وبالقوميين منهم بصورة أخص •

والاستاذ الحصري فيما يكتب ويؤلف كالمحامي النشيط البارع الحكيم المؤمن بما يدافع عنه ؛ فنشاطه يدفعه للتحري الدقيق ، وجمع المواد الوفيرة ، وبراعته تعينه في عرض قضيته عرضا ناصعا ، وحكمته تسعفه في معالجتها باسلوب علمي منطقى يسوق المتتبع للتسليم بما يعرضه تسليما ، ويسد عليه اوجه النقد واسباب الاعتراض ، وايمانه يجعلك ــ وانت تلتهم صفحات كتبه ــ تستشعر حرارة الروح المتدفقة من بين سطور كتاباته •

وبالاضافة الى ما تقدم كله فيمتاز الاستاذ الكبير بروح عالية ، وتفاؤل لا حد له ، وكأن اليأس لا يجد الى قلبه العظيم سبيلا • هذه الروح المتفائلة تحملك ، وانت تقرأ اراءه ، على الاعتقاد بأنه لاشك ناجح في قضيته ، وبالغ ما يريده ، وكأن السنين العديدة ــ على ما فيها من مرارة بالنسبة لحياته الخاصة ، وحياة امته العامة ــ لم تزده الا ايمانا بقضية امته ومستقبلها ، وكأن الاحداث لم تهد من قوته ونشاطه ، وكأن الكلال لا سلطان له على عقله المتوقد الجبار •

وفي هذا الكتاب ــ بالاضافة الى توضيحه المقصود من القومية العربية والردود على المعترضين عليها ــ مناقشة دقيقة هادئة ورد على كثير من الآراء الخاطئة الشائعة بين عدد غير قليل من كبار الساسة والادباء والمفكرين في مصر ، من امثال معالي لطفى السيد باشا وحفني محمود باشا والدكتور احمد زكي بك والاستاذ احسان عبدالقدوس وغيرهم •

ولا شك بان مؤلفات الاستاذ الحصري واحاديثه ، ومحاضراته ، سيكون لها اكبر الاثر في شرح الفكرة القومية ، وتبديد كثير من الاوهام التى تحوم حولها ، وتقريب وجهات النظر بين الاقطار العربية ، وعلى الاخص ، تقريب افكار كثير من اخواننا المصريين الذين صرفتهم « قسوة بعض الحوادث » عن التفكير القومى الشامل بعض الانصراف .

ولا شك عندي انه حينما تتحقق الوحدة العربية ــ الامل السعيد الذى لابد ان يتحقق يوما ــ سيعتبر اثر الاستاذ الحصري في الامة العربية كآثر الفيلسوف والمربي المشهور (فخته) بالنسبة للامـــة الالمانية ، وستعتبر « اراؤه وأحاديثه » هذه اشبه ما تكون برسائل ذلك الفيلسوف العظيم الى أمتـه .

ضعف الوازع الذاتي [1]

« الوازع الذاتي » سواء انبثق من عقيدة دينية ، او تفجر من مثل خلقية ، او نبع من مبادىء فلسفية ، ضرب لا زب لحياة اي مجتمع حياة سليمة ، وضرورة قصوى لصيانة ذلك المجتمع ومسكه من التفسخ والانهيار، وطغيان الشهوات البهيمية ، والغرائز الفطرية غير المهذبة •

وانه لمما يسوء المخلصين ، وايم الحق ، ان نرى مجتمعنا الحديث يعاني من هذه الناحية ـ لعوامل شتى ـ أشد المعاناة • وقد ضعف الوازع الذاتي حتى بلغ حد الهزال ، ومرحلة الاضمحلال ، بل انه يكاد ينعدم بالكلية بين كثير من بيئات مجتمعنا وفي قطرنا هذا على وجه التخصيص •

وانها لظاهرة مروعة ومشكلة كبرى تدعونا للتفكير العميق ، والقلق الشديد • اذ لن يستطيع اعظم مشرع ، مهما سن من قوانين ، ورتب من انظمة ، وحدد من عقوبات ؟ ولن تقوى اشد الحكومات حزما ، وامهر هيئة تنفيذية مهما افتنت في نيات رؤسائها ؟ ولن يوفق هؤلاء جميعا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا على رفع سوية امة من الامم ، مالم يوقظوا فيها ـ اولا وبالذات ، وقبل كل شيء ـ ضميرها ، ويغذوا الوازع الذاتي في افرادها ، حتى يستحيل جلهم الى اناس خيرين ذوي فطر سليمة ، تتسامى على الرذائل، واخلاق قويمة تفر من الجرائم ، وضمائر كريمـة تبتعد عن المساوىء ؟ وهم يصدرون عن ارادتهم لا خوفا من صرامة القانون ، ولا خشية من

---

(١) نشر هذا المقال في العدد العاشر من مجلة البعث العربى الصادر ببغداد في ١ـ٤ـ١٩٥٢ •

بطش الشرطي ، ولا جزعا من قسوة الحاكم • بل يفعلون ذلك برادع ذاتي ، ووازع نفسي ، مبعثه الضمائر الحية اليقظة ، والذمم الطاهرة التي تتأثم • وقد اثبت علماء الاجتماع وفلاسفة الاخلاق ـ وايدت وقائع التاريخ بشكل لا يبقي مجالا للشك ـ بأن امة من الامم ، وشعبا من الشعوب ، لا يمكنه ان ينهض ويرقى الرقي الصحيح بالوسـائل المادية المجـردة والاصلاحات الاقتصادية حسب ، ما لم يواكب ذلك او يسبقه نهضة فكرية ، ويقظة روحية شاملة ؛ فتنبعث الامة بمجموعها انبعاثا ، وتسمو في ملكاتهـا ومواهبها سموا • لهذه الحقائق الثابتة ـ التي لا يماري فيها الا من آمنوا بالمادة ايمانا اعمى ، وانكروا ما سواها ـ صار من اللازم المحتم على المعنيين بالشؤون العامة ان لا يغفلوا هذه الناحية الاساسية ، وصار من المحتم على رجال التعليم والتربية بصورة خاصة ، والمسؤولين عن الاجيال القادمة ، من امهات وآباء واولياء ومصلحين ومفكرين بصورة عامة ، ان يعملوا على انشاء الاطفال نشأة سليمة اخرى ، ليجعلوهم مبرأين من كثير من العيوب والهنات التي يقاسي منها كثير من افراد الاجيال الحاضرة اشد المقاساة •

ولا سبيل الى بلوغ هذه الغاية فيما أرى الا ان يلقنوا الاطفال مبادىء الدين الصحيح ، وينشئوا الاولاد على تلك المبادىء القويمة التي تجعل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وحب الخير وفعله ، والسعي فيه ، ومقت الشر وتجنبه ودفعه ، وعدم ايذاء الناس في اعراضهم وانفسهم واموالهم « أساس التقوى » • وتجعل تلك « التقوى » ـ ولا شـىء غيرها ـ معيارا للتفاضل وأساسا للتاخي • الدين الذى يعلمهم بانهم اجزاء متضامنة من كيان واحد متماسك ، هم فيه احرار كما ولدتهم امهاتهم ، سواسية كاسنان المشط • الدين الذي يكره الله فيه العبد البطال ، ويجعل الكسب الحلال عبادة وجهادا اكبر ، ويعتبر أماطة الاذى عن الطريق شعبة من شعب الايمان • ثم انـه الدين الذى يجعلهم مأجورين لاطعام البهائم العجم وارووائها ، بله اطعام اخوانهم من البشر وارووائهم • هذا هو الدين الذى يربي الضمائر ، ويسمو بالنفوس ، ويجعل الاعمال بالنيات ، ويخلق في كل انسان رقيبا ذاتيا ورادعا خلقيا ، هو ابلغ مفعولا ، واعظم تأثيرا في صلاح الفرد وصيانته ،

من عشرات الحراس اليقظين الذين يراقبون الحركات والسكنات .

هذا هو الدين الذى نود ان يشب عليه ابناؤنا وبناتنا ، وهو الذى نطلب من مدارسنا ومعاهدنا التثقيفية عامة ان تعنى به العناية كلها . اما تلك الطقوس الشكلية ، والمراسيم الظاهرية ، فليست من دين الله الفطري في شيء . وليس من الدين في شيء ذلك التعصب المقيت الذى يفرق الامة شيعا ، ولا ذلك التزمت المصطنع البغيض الذى يدعو اليه فريق من الذين يتهافتون على المادة ، ويتكالبون على الحياة ، ويتمرغون أمام كل ذى سلطان ...

ويلي الدين شأنا في تنمية الوازع الذاتى ، وتحقيق الفضيلة النفسية ، قواعد الاخلاق ؛ تلك القواعد الرفيعة التى لا تتعارض مع اكثر احكام الديانات السماوية الرفيعة ، بل تسير معها - الى حد بعيد - جنبا الى جنب . وعلى هذا صار من المحتم على كل امة مدركة وعارفة قدر نفسها ، ومعنية بمصيرها ومستقبلها ، ان تعتز بكريم اخلاقها ، وصالح سجاياها ، وان تعمل ما وسعها الجهد على المحافظة عليها واشاعتها بين الافراد والجماعات ؛ واذا ما فقدت امة من الامم تلك الاخلاق والسجايا تعرضت للزوال والمسخ . فالعربي في باديته مثلا لا يبخل ولا يكذب ولا يذل ، لان الكرم والصدق والعزة من صفات أمته القومية الاصيلة التي خالطت دمه ، وامتزجت بروحه ، ونمت مع ذاته ، حتى استحالت الى جزء لا يتجزأ من كيانه .

لابد لنا ، اذا اردنا ان نعد الفرد الصالح ، ونهيء المجتمع الفاضل ، ان ننمي « الوازع الذاتى » في الفرد والجماعة ، ولا سبل فعالة وأكيدة غير اشاعة الروح الدينية الصحيحة ، والمبادىء الاخلاقية القويمة الكريمة التى تجعل من كل فرد على نفسه حافظا رقيبا .

خواطر وملاحظات
حـول مؤتمر ابن سينا[1]

شهدت بغداد في الاسبوع الماضي مهرجان ابن سينا ، وأمها من اجل هذه الذكرى الالفية « للشيخ الرئيس » عدد من كبار المفكرين والباحثين والمعنيين بالشؤون الفلسفية والثقافية العامة والدراسات العربية والاسلامية في الشرق والغرب • وقد القيت بعض الكلمات القيمة في حفلتي الافتتاح والختام ، مثلت وجهات نظر مختلف الامم والشعوب والهيئات التى ساهمت في هذه الذكرى الطيبة ، كما القيت خلال الاسبوع طائفة من المحاضرات والدراسات ، وجرت عدة مناقشات ومباحثات كانت تدور في غالبها حـول فلسفة ابن سينا وآرائه ، ونظرياته في الطب والفلسفة والتصرف والادب والفن وسائر نواحي المعرفة الانسانية • وحاول كثـير من الباحثين ان يكشف عن النواحى العديدة لعبقريات ذلك الشخص الخالد ، وسينتظم تلك المحاضرات والدراسات والمناقشات كتاب ستنشره ـ ونرجو ان يكون ذلك قريبا ـ اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية •

ولسنا الآن في صدد دراسة ما ألقي او قيل في هذا المهرجان بصورة مستفيضة ، ولكننا نرى علينا خدمة للحقيقة والعلم ، ورعاية للمصلحة القومية العامة ، ان نبدي ـ ولو على عجل ـ بعض الملاحظات ونسجل بعض

---

(١) نشـر هـــذا المقـال في العـدد الثامن من مجلة البعث العربى الصادر ببغداد في ١ـ٤ـ١٩٥٢ •

الخواطر ، مما نرجو مخلصين ان يتبدبرها الذين اشرفوا على هذا المهرجان ، وقاموا بشؤونه الادارية ، والثقافية .

ولعل من المفيد ان نعلن هنا بأن الشيء الرئيسي الذى افاده العراق من هذا المهرجان هو زيارة تلك النخبة الممتازة من رجال الفكر بغداد ، وكثير منهم لم يرها من قبل ، وربما لم يفكر في زيارتها لولا هذه المناسبة العظيمة . ولاشك ان الكثيرين منهم قد ادركوا الحالة الثقافية والاجتماعية ومدى ما بلغه العراق من تقدم ، وانهم بذلك قد صححوا ما قد يكون عالقا من قبل في اذهانهم عن العراق واهله ، وبهذا الاعتبار فقد كان اختيار « دار السلام » محلا يقام فيه هذا المهرجان توفيقا تهنأ عليه اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية .

ولكن ، وعلى الرغم مما تقدم ، يؤسفنا ان نسجل هنا بأن اخطاء عديدة وارتباكات شتى قد صاحبت هذا المهرجان مما كان في الامكان تداركها ، ولعل في حداثـــة العراق بالقيام بمثل هـذه المهام ، وفي قصر مدة التهيؤ « نسبيا » بعض العذر . ولسنا نريد ان نسجل تفصيلا كل الهفوات الشكلية التي وقعت ، كعدم ارسال المستقبلين لبعض الضيوف ، وعدم اراءتهم كل ما كان يجب ان يرونه من المعالم الحديثة والآثار القديمة كالقصر العباسي ، وعدم دعوة عدد كبير من اساتذة الكليات والشباب المثقف ورجال الفكر الى حفلتي الافتتاح والختام مع وجود مقاعد خالية عديدة ، كما لسنا نريد هنا ان نسهب في الحديث بشأن الدعوات والولائم التى اقامتها بعض « الجهات الرسمية » وجعلتها ـ كالعادة الجارية في كثير من اعمالها ـ قاصرة ، الى حد بعيد ، على اصحاب الحظوة من المقربين والمجدودين ، وعدم نظر الهيئة « الثقافية » الى هذا الامر نظرة موضوعية خاضعة لمقياس عقلي مقبول ، مجرد عن الهوى ....

واذا ماتركنا الناحية الشكلية جانبا ، ونظرنا الى جوهر الموضـوع طالعتنا ظاهرتان بارزتان تدعوان للاسف من جهة ، يقابلها من الجهة الاخرى ظاهرتان تدعوان للغبطة .

فاولى الظاهرتين المؤسفتين فيما نرى ـ هذه النزعة العالمية ، والتأكيد

المفرط للانسانية الشاملة ، والروحانية المجردة ، وذلك في معرض المدح والثناء على الشيخ الرئيس ، وكان هذا المنحى واضحا في الخطاب الذى اعده رئيس اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية ، وفي كلمات رئيس المهرجان العراقى ، ونائبه المصري ، بل بلغ الغلو في بعضهم الى شجب الشعور القومى ، والتنديد به ، وقد انتزع ابن سينا من زمانه ومكانه وبيئته وثقافته انتزاعا ، واحيل الى مجرد تصور وهمي او شخص خيالي • ولعل من الغريب ان نشاهد بأن المتحدث الايراني او التركى اكثر تقديرا لاثر الامة العربية والثقافة العربية الاسلامية في الشيخ الرئيس • الحق ان ابن سينا عظيم في مواهبه ، ولكن تلك المواهب قد دونت في غالبيتها العظمى في اللغة العربية ، وكانت نتاجا للحضارة العربية الاسلامية التى كانت بغداد معينها الثر ، وان من الحق ايضا بأن الاوربيين والعالم اجمع لم يعرف ابن سينا ويقدره حق قدره لولا اللغة العربية والثقافة العربية التى انتقلت من العرب الى اوربا منذ القرون الوسطى • فمن حقنا اذن ، بل ومن واجبنا ، ان نعتز به على هذا الاساس على وجه التخصيص ، وكفانا هذا المنحى الرمزي « الميتافيزيكي » الخيالي العالمي ••••••••

وثانيهما ضحالة بحوث معظم الباحثين من العراقيين ، وندرة الابداع او النظر العميق ، بل نستطيع ان نقول جازمين بأن بعض ما ألقي لا يستحق ان يعد درسا ناجحا حتى بالنسبة لطلاب المتوسطات • وبالاضافة الى هذا فقد كان في سلوك بعض العراقيين اثناء المناقشات والمجادلات ما يعتبر مسيئا حتى لو صدر من طلاب الابتدائيات • وكان حري بالمشرفين على هذا المهرجان – وعلى وزارة المعارف بصورة خاصة – ان تحشد اساتذتها ومثقفيها للقيام بهذه المهمة ، والا تكتفي بالناحية الشكلية فحسب ، ودع عنك عبارات الثناء وتبادل المديح فتلك سنة شكلية لا يمكن ان تغير من حقيقة الاشياء ، او ان تغطى على هذا النقص الواضح المفضوح •••

واول ما يدعو الى الغبطة هو ظهور « العربية » لغة الثقافة لجميع شعوب الشرق الاسلامي ، فقد تكلم بها ممثلو ايران وتركية واندونوسيا – ناهيك عن المستشرقين – بطلاقة وأقاموا دليلا جديدا على ان لغة القرآن

ـ على الرغم مما اصاب الامة العربية من نكبات وما خيم عليها من ظلام ـ لم تزل اللغة الصالحة لان تكون أداة ثقافية مشتركة لهذا الجزء من المعمورة. ومن حقنا ان نعتز بهذه الظاهرة ونغتبط بها ، ومن واجبنا ان نزيد عنايتنا بهذه الناحية ، ونساعد كل الامم الاسلامية ، الراغبة في نشر اللغة العربية ـ وخاصة باكستان ـ في بلادها ، وحري بجامعة الدول العربية ان تضع لهذا الامر الخطير منهاجا دائما تعمل بجد لتحقيقه .

وثاني ما يدعو الى الغبطة اعتراف المستشرقين بأهمية الثقافة الاسلامية على الحضارة العالمية ، والتأكيد على الدور الخطير الذى لعبته في تنمية الثقافة العامة ، وقد كان الاستاذ اميليو غرسيه غومز المستشرق الاسباني قويا في هذه النزعة . وجميل ان تعترف اسبانيا بفضل العرب عليها خاصة . ولكننا نود ان يقوم اولئك المستشرقين الفضلاء بدورهم الفعال في حمل حكوماتهم على انصاف العرب المعاصرين الذين هم ابناء اولئك الذين يقدسونهم ويشيدون بفضلهم ، واول علائم الانصاف ترك التدخل في شؤونهم ، وتمكينهم من التمتع بحرياتهم كما يجب ان تتمتع شعوب العالم اجمع .

أزمـــة[1]

انها لأزمة حادة خانقة ، ليست ازمة الاقتصاد القاسية التي تخيم عـلى الاسواق ، وتثير الرعب في البيئات التجارية ، وتكاد تؤدي بكثير من التجار وأصحاب الاعمال الى الافلاس ، بالنسبة اليها شيئا • انها أزمة عنيفة مروعة ليست ازمات السياسة الداخلية والخارجية العديدة في البلاد العربية – تلك الازمات التي كان من بعض نتائجها ضياع اجزاء من الوطن ، وتهديد اجزاء أخرى بالفناء وفقدان الحريات العامة لشعوب عربية ، وصيرورة مصـائر شعوب أخرى بأيدي مستهترة باطشـة طائشة – بالمقارنة اليها امرا يذكر • انها ازمة الروح ، انها أزمة الفضيلة ، انها ازمة الاخلاق • انها أزمة الروح التي تتوارى يوما بعد يوم ، في كل ميدان ، أمام تيار المادة الجارف •

انها أزمة الاخلاق التي لا يمكن قبل تقويمها ان نوفـق في تفريج أزمتنا الاقتصادية ، أو حل مشكلاتنا السياسية ، او القضاء على الأخطـار الداخلـية العديدة التي تحيق بأمتنا من كـل جانب ، وتهددها بالفناء والاضمحلال •

وليست الازمة الاخلاقية التي نعاني منها اشد المعاناة بقاصرة على قطر من اقطار العروبة دون غيره ، او بيئة دون أخرى ، او محيط دون آخر ؛ انها عامة تغمر ميادين السياسة ، والثقافة ، والاجتماع ، باوسع ما في الاجتماع من معان • فلولا تلك الأزمة الاخلاقية لاستحى كثير من هؤلاء الزعماء

---

(١) نشر هذا المقال في العددين الثاني عشر والثالث عشر من مجلة البعث العربي الصادر ببغداد في ١٥–٦–١٩٥٢ •

والرؤساء والاقطاب من تلك التصاريح المكذوبة ، والوعود المخلفة ، والتدجيل المفضوح ، والاستهانة المنكرة بكل القيم الروحية • ولولا الأنهيار الخلقي لترددوا في الاقدام على كثير من تلك الاعمال المشينة التي لا يمكن ان تصدر عن اشخاص يقيمون للقيم الاخلاقية ولو ادنى اعتبار • وكيف يمكن تفسير هذا الموقف المزري الذي طالما وقفته كثير من الاقطار العربية من القضايا القومية الاساسية العامة في عدم التميز بين مصلحة الامة العربية الحقيقية الخالدة ـ والتي يجب ان تكون رائد الجميع دائما وابدا ـ وبين المصالح الآنية لا لتلك الاقطار ـ كما يزعم الناطقون الرسميون ـ وانما للفئات الحاكمة ذات المصالح المركزة ، والنفع الذاتي •

وهل يتصور صدور تلك الاقوال والافعال عن اناس يقيمون للاخلاق التي أول متطلباتها الايثار والتضحية في سبيل الصالح العام ، أي اعتبار[1] ••

ولولا الازمة الأخلاقية لما انحط المستوى الثقافي والروحي الى هذا الحد الذي يشعر به بجلاء كل بصير بشؤوننا الثقافية ، ولما وصل التسيب بين بيئات الطلاب هذا الحد المروع ، ولما اصبح أكثر رجال التعليم من اساتذة ومدرسين ومعلمين لا يجرأون على ان يجهروا بما يعتقدون به ، وانهم بذلك صاروا يسوقون الطلاب والطالبات ولا يعرفون قيمة حقيقية للصدق في أعمالهم وأقوالهم ، ولا يتجنبون الغش في الامتحانات حينما يتجنبونه الا مقسرين مرغمين من عشرات الرقباء والحراس اليقظين • وكيف نرجو من الطلاب والطالبات ايمانا صادقا بالفضيلة ، وحرصا تاما على على الصدق ، وتحاشيا من الغش ، بكل صوره ، وهم يبصرون كل يوم ، وكل ساعة ، مربيهم والمسؤولين على تقويمهم ، من أمهات ، وآباء ، ومعلمين ، ومعلمات ، يسوقونهم الى تلك النتائج الحتمية سوقا ، ويمهدون لهم السبيل تمهيدا تاما •

---

(١) ما اشبه الليلة بالبارحة • نسمع اليوم بعض التصاريح وبعض التعليقات الاذاعية ، فيروعنا مدى الانحطاط الذى لم تزل تقاسي الامة العربية منه فى بعض اقطارها خاصة ••• !!

واذا ما تركنا بيئة المعلمين وانتقلنا الى بيئات الشعب الصحيحة يروعنا شيوع الكذب بين العمال والصناع حتى كأن الكذب والغش والخلف وخيانة الامانة ، أصبحت الطابع الاصيل للافراد •

يعدك الخياط او النجار أو الحداد ويخلف في وعده ، ثم يعدك ويخلف ثانية وثالثة ، ولا يستحي من خلفه • وتساوم التاجر او البائع فيطلب اضعاف ثمن الشيء ، واستحالت المعاملات والعقود - في الاعم - الى مصائد يقع فيها كل غير بصير بأحوال المجتمع وطبائع الافراد •

واذا ما تركنا الاهلين جانبا وانتقلنا الى بيئة الموظفين تجلت لنا - في الغالب الاعم - روح الاستهتار بالواجب ، وعدم الاكتراث بالجمهور ، والغطرسة مما لا نكاد نجد له شبيها في أي بلد متمدن يكون فيه من أول واجبات الموظفين خدمة الجمهور ، وقضاء مصالحهم بالسرعة المستطاعة من غير منة او استعلاء • وعلاقة الافراد بعضهم ببعض اليست قائمة ، الى حد بعيد ، على أسس من الرياء والتصنع ، وحتى لا نجد الا اضعف الاثر للود الخالص ، والاحترام الصادر عن التقدير الحقيقي لقيم الاشخاص والاشياء ؟ •

وقد يحظى كثير من الاشخاص بالتعظيم والاحترام ، ولولا ازمة الاخلاق هذه لما نالوا غير الاحتقار والازدراء •

ولنعرض بعض الصور التي تنم بجلاء عن شدة الازمة الاخلاقية التي نعاني منها في مجتمعنا الحديث •

فهذا « المتطاول » « المدل » يكاد يسوقه ذحله الكامن لان يخاصم اخوان الامس وينتقم منهم قبل ان ينتقم من اعداء المبدأ الذي كان يزعم الحرص الشديد عليه ، والتمسك التام به ، لا لذنب جنوه الا لانه انتكس الى الحضيض ، وصار ينفسهم على ان بقوا في عليائهم • وهذا الناقد الذرب والذى كان الى الامس القريب قويا صريحا قد استحال ، وقد بلغ الغاية او كاد ، الى شيء آخر ، فأصبح اذل من الذليل ، واخذى من المستخذي ، وهذا الجاهل المتعالي الذي يحسب بتسويده للصحائف العديدة بالهراء ، ومعاد القول ومكروره انه قد بلغ منزلة العلماء ، وصار من كبار المؤلفين ، وهو

يفقد اولى صفات العالم الحق : الصدق والتواضع . وهذا الدجال المتزمت الذي ينطق باسم الدين ، - ودين الله الحق منه براء - ويدعي انه حامي الفضيلة - والفضيلة منه بروح الشكوى - يصول ويجول ، ويقدح ويمدح ، ويحسب بعض أفراد هذا المجتمع المريض انه يقوم بخدمة ، وهو لا يبالي في سبيل منافعه الخاصة ان يشق الامة ، او يشوه الدين الصحيح . وهذا الوجيه المتصنع الذي يريد ان يفرض احترامه على الناس فرضا - وقد وفق لحد بعيد - لا لشيء الا لانه ورث عن آبائه الكرام أرضا وعقارات اصبحت بفعل الزمن وتطور الاوضاع ذات قيمة اقتصادية كبيرة ، والله وحده عليم كيف استولى آباؤه الصيد على تلك الثروات ، وهو في شخصه خلو من أي صفة خاصة تميزه عن عامة الناس ، وتؤهله لهذه الوجاهة غيرهذا المال التليد . وهذا الجبار ذي الضمير الميت الذي لا يتأثم ، والذمة التي تباع وتشترى ، تراه يثرثر في كل ناد ، ويتقمص شخصية الغيور على الدين وآداب المجتمع حينا ، والحريص على العدل والنظام العام حينا آخر ، ويخيف الناس في كل الأحيان بسلطان القانون الذي يودع في احرج الاوقات سلاحا فاتكا بيديه . وهذا الثعلب المتمسكن - الذي فقد سلطانه الرسمي الى غير ما رجعة - تراه يرتدي مسوح التقوى حينا ، ويلبس اهاب الوطنية حينا آخر ، ويتحدث في كل الاحيان عن العفة والفضيلة ، وهو لو ابصر من بعيد دجاجة لتحركت فيه وحشيته الكامنة ، ولكاد ان يفترسها بعينه قبل ان تفترسها جوارحه ...

صور عديدة ، واغوال مريعة ، نجد في مجتمعنا المريض كثيرا من أمثالها ؛ وليس المؤلم ان توجد أمثالها ؛ وليس المؤلم ان توجد أمثال تلك الصور والاغوال في مجتمع من المجتمعات ، ولكن المؤلم تعددها ، ووفرتها ، حتى لكأن الصورة الواحدة تنطبق على عشرات وعشرات . والادعى للالم والحسرة ان أمثال هؤلاء جميعا ينالون من مجتمعنا العليل احتراما وتقديرا ، ويجدون اصغاءاً وانتباها ، ولو صحت طباع الناس ، وشفي المجتمع من عاهته ، لما حظى أمثال هؤلاء بغير الاعراض والنفرة والازدراء ...

انها ازمة الفضيلة التي أدت الى ضياع المقاييس ، وقلب الحقائق ،

وتغيير المفاهيم ؟ فكم في هذا البلد ، وفي هذا الزمن الذي نعيش فيه على وجه التخصيص ، اتهم الشجاع بالسفه ، والمخلص بالخيانة ، والعاقل بالمجنون ، والمثالي بالرعونة ••• ؟

وكم هم الذين نالوا المناصب الرفيعة ، والمقامات العلى ، والثروات الطائلة ، والجاه العريض ، ورأسمالهم الوحيد نفوسهم الضعيفة ، واخلاقهم الوضعية ، وصفات الملق والرياء والسفالة • اننا نقاسي اليوم من ازمة اخلاقية عنيفة لا شك فيها ، وليس من غرضنا الآن ان نستقصي اسبابها وعللها ، ولكننا نستطيع ان نؤكد ان هذه الازمة ، ككل الازمات ، ولابد ان تنقشع ، ولو بعد حين ، ولا بد ان يرجع الناس الى مقاييسهم الاصلية الصادقة ، ويعودوا الى رشدهم • ولكن ذلك لا يمكن ان يتحقق من تلقاء نفسه ، فلابد ان تعالج هذه الازمة ، كما تعالج كل الازمات الاخرى ، ولا بد لها من حكمة الحكيم ، وجرأة المنقذ الذي يصدع بالحق ، غير هياب ولاجل ، ويحطم تلك الأصنام الجوفاء ، والاشباح الشوهاء ، ويدعو للفضيلة ولا يبالي في سبيل دعوته ما يلقي اول الامر من اعراض وتنكر وتلكؤ •

انها دعوة الحق التي لن يعدم صاحبها نصيرا ، ولابد لذلك من اخلاق الرجولة الصادقة الصارمة التي لا تمارى ، ولا تتذبذب ، ولا تخضع للتيار الجارف ، ولا تستكين استكانة الامعة الذي يردد : انا مع الناس ان احسن الناس احسنت وان اساءوا اسأت ، بل لابد من توطيد النفس على الاحسان رغم الاساءة والصدق ابدا على الرغم من شيوع الكذب •

أميــة المتعلمين[1]

يعاني مجتمعنا اليوم من علل وآفات لا حصــر لها ؛ وليس الفقر ، والمرض ، والتســـيب الخلقي ، وضعف الوازع الذاتي ، والجهل ، والاميـــة ، الا بعض تلك العلل والآفات . وقد تنبه كثير من المصلحين والمفكرين الى معظم تلك الآفات والعلل ، وأشاروا الى اخطارها ، ودعوا الى لزوم معالجتها ، والقضاء على اسبابها ، ولكن آفة اخرى ليست اقل خطرا من تلك الآفات ، اخذ يستشري شرها ، وبالاخص في بضع السنوات الاخيرة التي اعقبت الحرب العالمية الثانية ، وصار لزاما ان ينتبه قادة الرأي والمسؤولون عن توجيه الامة الى عظيم خطرها ؛ وهي التي سميتها « بأمية المتعلمين » واعني بها انصراف المتعلمين والمثقفين بصورة عامة عن المطالعة العميقة ، والدراسة الجدية ، والاستقصاء الدقيق . وعلى العموم فقـــد استعاضوا عن السفر القيم بالمجلة المصورة ، وعن ديوان الشعر الخالـــد بالصحيفة العابرة ، وعن كتب الأدب بروايات الجيب ، وعن المكتبة بالسينما وعن قاعات المحاضرات بمشاهد الالعاب والسباقات . ولست ، بطبيعـــة الحال ، انكر على الناس الاستمتاع بالمجلات المصورة ، او تصفح الصحف اليومية ، والتسلي بقراءة الروايات . ولست أحظر عليهم ارتياد السينمات ، او مشاهدة السباقات ؛ ولكنني انكر عليهم ان يكون ذلك على حســـاب

---

(١) نشر هذا المقال في العددين الرابع عشر والخامس عشر من مجلة البعث العربى الصادر ببغداد في ١٥ـ٧ـ١٩٥٢ .

الدراسة الجدية ، والكتاب الخالد ، وانكر عليهم بشـــدة هذا الانصراف المزري عن كل عمل جدي يتطلب الجهد الصادق ، والجد الخالص الذي به وحده يصبحون احرياء بلقب « المثقفين » .

على ان الذي نشكوا منه في مجتمعنا ، على ما يظهر ، ليس مقصورا على قطرنا دون الاقطار العربية الاخرى ، بل ليس ، مقصورا على الاقطـار العربية دون سواها من اقطار العالم ، ولكن هذه الحالة ظاهرة بصـــورة قوية جدا في هذه البلاد ، وانها لظاهرة لا مجال لنكرانها ، ولا ســبيل للتقليل من خطرها على ضعف مستوى البلاد الثقـافي العام ، وصيرورة المثقفين ، والطبقة النيرة مع الزمن أميين وعوام لا يختلفون عن ســـائر الطبقات الا انهم يقرأون ويكتبون ويعرفون مباديء الحســـاب وبعض المصطلحات والمعلومات العامة التي لا يعسر على كثير من اذكياء الامين مجاراتهم بها ...

ان الفرد الذي يستحق بجدارة ان يســمى مثقفا هو الذي يتابع دراسته طوال حياته متابعة تامة ، وهو الذي لا سلطان للغرور على نفسه ، فلا يحسب ان ما تعلمه من نتف علمية ، ومباديء أولية ، في مدرسته او كليته او معهده او جامعته الا شيئا تافها لا يغنيه بحـال من الاحوال عن الاستمرار في تنميته وتركيزه وتشذيبه بالمران الطويل ، والدراســـــة المستقصية ، والتأمل العميق . ولن يتأتى له ذلك ما لم يواكب ركب التقدم العالمي ، ويتابع قراءة المجلات والرسائل العلمية الخاصة بفنه او علمه مع المشاركة بقدر معقول من الثقافة العامة ، والاستزادة الدائمة من آداب لغته وعلومها .

واذا ما أردنا ان نستقصي الاسباب التي تسوق المتعلمين الى الاميـــة سوقا ، وتقسرهم عليها احيانا قسرا ، أمكننا ان نرجعها الى اسـباب عامـة خضعت لها المجتمعات جميعا (بما فيها مجتمعنا) واسباب خاصة وليدة حياتنا وظروفنا واوضاعنا السياسية وبيئاتنا المحلية . فمن الاسباب العامة ما يصيب الناس عادة بعد الحروب الطاحنة من يأس وألم وتمرد هي نتائج نفسية

حتمية الى الضيق والنكبات والقيود التي تفرضها الحروب وتؤدي اليها فتصرف النفوس ـ في الغالب الاعم ـ بنتيجة تلك الاوضاع والعوامل النفسية والاقتصادية عن كل عمل جدي ، وتميل الى الدعة واليسر بل والى الانحلال احيانا ، وهذا هو سبب ما يلاحظ في بعض الاقطار الاوربية التي منيت بنكبات الحرب الطاحنة من انحلال خلقي ، وضعف في الحياة العائلية . وهكذا ينصرف معظم الناس بنتيجة تلك العوامل عن الدراسة المجدية ، ويركنون للقراءة الخفيفة المسلية التي تغذيهم بها المجلات المصورة التافهة ، والروايات الخلاعية ، وقصص الغرام . وقد يكون للاضطراب والضيق الاقتصادي الذي تسببه الحروب عادة اثره في انصراف بعض الافراد عن المطالعة الجدية والدراسة العميقة ايضا ؛ اذ يجد فريق من الناس ان ليس لديهم متسع من الوقت يصرفونه في تثقيف عقولهم ، وتنمية ملكاتهم ، وان متطلبات بطونهم ، وسد حاجات عائلاتهم ، تفرض عليهم صرف كل اوقاتهم وجهودهم لكسب ارزاقهم . وقد يكون تأثير العوامل الاقتصادية على صورة عكسية بالنسبة لفريق آخر ، اذ يحصلون على ثروات طائلة بصورة مفاجئة ـ وهي في الغالب ثروات غير مشروعة بالقياس العادل الدقيق ـ فتغريهم تلك الثروات مضافا الى رعب الحرب وما تثيره في نفوس الناس من انانية مفرطة في الاسترسال بالاستمتاع في الملذات الجسدية ، مما لا تبقى مجالا الى اي عمل ثقافي ، أو دراسة عميقة مجدية .

وقد يكون لانتشار السينما في العالم اثره في الانصراف عن الكتاب والثقافة العلمية الرصينة ؛ ولكن المجتمعات الغربية الراقية تداركت هذا الامر بتحويل السينمات ذاتها الى دور ثقافية تعرض فيها الافلام بلغة مهذبة واسلوب طريف ، وهي بهذا الاعتبار تعوض الفرد المثقف ـ ولو بعض التعويض ـ عن القراءة الجدية . ولكن المشكلة لم تزل قائمة بالنسبة لبلادنا اذ لا تعرض فيها ـ في الغالب الاعم ـ الا الافلام الرخيصة الخالية من كل فكرة موجهة ، والتي لا تغذي الروح العالية ، او تنمي ملكات الفن الرفيع ، والتي يقصد منها ، في الغالب ، اثارة الشهوات البهيمية ، او يراد بها على اقل تقدير ضياع الوقت سدى بما لا طائل تحته من سخف

وعبث . ولو خشية الخروج عن طبيعة هذا الموضوع لتحتم عليّ الاسهاب في تبيان مساوىء هذا النوع من الافلام ، وخاصة العربية منها ، اذ ان خطرها عظيم وعظيم جدا ، وهي فيما ارى تتطلب معالجة جدية وحاسمة لحماية الجمهور من امثال هذا السخف المبهرج المجسم ، بل تلك البذاءات والمغريات التي تعرض على انظار الشبان والشابات الذين سيكونون الاجيال المستقبلة ..

اما العلل والاسباب الخاصة التي صرفت الناشئة عن الثقافة الصحيحة في بلادنا فعديدة نجتزىء بذكر اهمها ...

ولعل في طليعة ذلك ضعف المستوى الدراسي العام ، وتخرج عدد كبير من الطلاب والطالبات في مدارس ومعاهد وكليات وهم لا يستحقون النجاح لو كانت المقاييس دقيقة والامتحانات جدية . ولكن التسيب الذي عج المدركون منه بأمر الشكوى ، هو الذي زاد في « كمية » من يسمون بالمثقفين ممن لا يتميزون « بالكيفية » من العوام الا بتلك الوريقة التي تسمى شهادة الدراسة العالية . ومن غير الطبيعي ان ينتظر من امثال اولئك ان يسلكوا سلوك المثقفين الحقيقيين وينصرفوا الى الجد والمثابرة في استقصاء العلوم والاستزادة من المعارف .

وثمة عامل وثيق الصلة بهذا العامل هو التسيب في الحياة العامة ، وبلوغ كثير من الافراد غير النابهين المراكز الرفيعة والمناصب العالية التي لا يمكن ان ينالها في غير العراق ـ ومن على شاكلته من الاقطار المتأخرة ـ غير المثقفين الحقيقيين . وقد اشاع هذا الوضع الغريب في انفس كثير من الناشئة والمثقفين شعور اليأس ، وجعلهم ينصرفون عن الثقافة لانهم يرون بأم اعينهم بأن فلافا وفلانا وعشرات غيرهم ، قد بلغوا مراكز لا تؤهلهم اياها ثقافتهم ، وقد وصلوا اليها بطرق ملتوية واعتبارات تافهة ، ووسائل رخيصة ، الأمر الذي صار يدفعهم الى الزهد بالثقافة والدراسة[1] ،

---

(١) من المؤسف ان ينطبق هذا الوصف على كثير ممن يشغلون مراكز مرموقة . وكأننا خلال الخمس عشرة سنة الماضية لم نتقدم فى هذا المضمار خطوة الى الامام بل لعلنا ـ في بعض المجالات ـ قد رجعنا الى الوراء .

وهذا الشعور ـ على الرغم من كونه خاطئا ـ طبيعي في مثل هذه الحالة • وصاروا يعتقدون خطأ بان العلم الصادق ، والثقافة الحقة ، ليسا من المستلزمات الضرورية للنجاح في مستقبلهم • ولعل في تقصير بعض الهيئات الرسمية باعطاء بعض المناصب الى غير المثقفين ، وتعيين بعض المتخصصين في فروع وفنون في دوائر لا صلة البتة لها بدراستهم وثقافتهم سبب آخر في انصراف اولئك الافراد عن الثقافة ، وصرفت آخرين غيرهم بطريق الاقتداء والتأثير • فكيف يتصور من طبيب عيون مثلا ان يتتبع طب العيون وما استجد فيه من عمليات ومباحث بعد ان اصبح موظفا اداريا كبيرا لا صلة البتة بين عمله والطب ؟ وكيف يرجى من مرب ان يستقصي الآراء التربوية الحديثة ونظريات علم النفس المبدعة وقد اصبح مديرا عاما لدائرة مهمتها فتح الطرق وتعبيدها وانشاء البنايات والمؤسسات الحكومية ؟ وكيف ننتظر من مهندس مدني ان يتعقب تطور الفن المعماري ويتوغل في دراسة المخططات وقد انيط به تدريس لغة اجنبية في مدرسة ثانوية ؟ وكيف يؤمل من متخصص بدراسة النفط اهتماما بهذا العلم الحيوي الاساسي بالنسبة للعراق وتقصيا لما يستجد فيه من بحوث واكتشافات وقد غمر في عمل ديواني وثبت وحيل بينه وبين ان يرى بئرا للنفط وآبار النفط تتفجر كل يوم في مختلف انحاء العراق ! ؟؟

وهناك عشرات وعشرات من الامثلة التي لا تخفى على احد وكلنا يعلم كيف ان المثقفين في هذه البلاد ، على قلتهم ، وقد قسموا تقسيما عجيبا على دواوين الحكومة والدوائر شبه الرسمية مما يكاد يوحي بان هناك أيد خفية تتعمد الاساءة في هذا التوزيع حتى لا تتكون في هذه البلاد ثقافة عميقة وحتى لا يظهر متخصصون مبدعون بالمعنى الدقيق •

ونستطيع ان نعد سوء التربية التي ينشأ عليها اكثر ابناء هذه البلاد وبناتهم من عدم تعويدهم حب المطالعة وايجاد اللذة في صحبة الكتاب من اهم الاسباب التي ادت الى شيوع الامية بين المتعلمين • ويتميز هذا النقص ظاهرا بالمقارنة بين حالة الفرد عندنا وحالته في اي بلد اوربي متمدن ،

اذ يعود الفرد هناك منذ نعومة اظفاره على القراءة فيتمرن عليها طفلا يقرأ قصص الاطفال ، ويافعا يتتبع مجلات الاحداث ، وشـــابا يوجهه ابواه واساتذته الى القراءة المجدية حتى اصبح الكتاب جزءا لا يتجزأ من حياته ، وصرت تراه يقرأ في عربة الترام ، وصالة القطـــار ، وفي المقهى وفي الحديقة العامة ، وعلى ساحل البحر ، وفي كل مكان يأنس به ويستشعر الخلوة ، وحتى صار الفرد هناك يقرأ كثيرا ولا يتكلم الا قليلا على نقيض الحال في بلادنا اذ يترعرع الطفل ويعود منذ الصغر ان يستأنس بالاصغاء الى القصص الخرافية التي تهذر به العجائز مما يعلمه الجبن والخور ويملأ مخيلته اللدنة بالاشباح والاوهام التي تبقى عالقة في ذهنه بعد ان يشب عن الطوق ، ويكمن مفعولها في عقله الباطن في شـبابه ورجولته ، ولذا لا ترى في شبابنا وشاباتنا ـ على العموم ـ تلك الجرأة والتوثب الذي تجده عند اقرانهم في الغرب ، وهذا من بعض آثار هذه التربية السيئة .

ولعل من الاسباب المهمة في هذا الانصراف الملموس عن الثقافـــة المجدية في هذه البلاد هو الاهتمام المتزايد في تعلم اللغات الاجنبية ، اذ صار كثير من الافراد يصرفون جهدا ووقتا عظيمين في تعلم بعض اللغات الحية ، ولكنهم لا يستطيعون ان يبلغوا المرحلة التي تؤهلهم للدراسة العميقة في تلك اللغات بحيث يقرأون امهات كتب الادب والعلم والفلسـفة ، فلا تنمو ثقافتهم وهم في الوقت ذاته يضيعون الوقت الطويل الذي كان باستطاعتهم ان يستغلوه في قراءة مجدية في لغتهم سدى . ولست ازعم اننا بلغنا المرحلة التي نستغني فيها عن تعلم اللغات الاجنبية ، بل اسـتطيع ان اؤكد جازما بان تعلم بعض اللغات الاجنبية لبعض الافراد في مجتمعنا سـيبقى ضرورة محتمة مهما بلغنا من التقـدم والرقي ، ولكن الذي يحز في النفس ان ترى مجهودات ضائعة تبذل في تعلم الالفاظ والمصطلحات والتنطع باستعمالها من غير حاجة ماسة لا لشيء الا ليقال ان فلانا يحسن كذا وكذا من اللغات ، وهو في واقع الحال لم يصل مرحلة جدية تتناسب مع الجهد المبذول . وانكى من هذا كله ان يعتقد بعض اولئك المغالين في تعلم اللغات الاجنبية الاعيب عليهم في عدم اتقانهم لغتهم ولا ضير عليهم بالجهـل بادابها ، فترى

اللحن شائعا ، والاساليب ركيكة ، ومفرداتهم قاصرة على لغة الجرائد ، ولا يرون ان من الواجب عليهم قبل تعلم اللغات الاجنبية تدارك هذا النقص الثقافي المشين •

وخلاصة القول ، فاننا مما لا شك فيه ، نقاسي من هذه الظاهرة المروعة ؛ ظاهرة الانصراف عن الدراسة العميقة ، والبحث المستقصي ، والثقافة الصحيحة •

وان تجمع العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية وتظاهرها لن يعذر المسؤولين ، من ساسة ومفكرين ومربين ، في التماهل او الابطاء في معالجة هذا الامر الخطير بكل الوسائل الممكنة المجدية • ويجدر بنا ان نعلم بأن الجهد الذي يبذل في سبيل القضاء على الامية ـ على ضرورته ولزوم مضاعفته ـ لن يؤدي بنا الى تغير اساسي في احوالنا الراهنة ، وان المجتمع الرفيع والامة الراقية ليست الامة التي يحسن فيها جميع الافراد القراءة والكتابة ومبادىء الحساب واوليات العلوم حسب ، بل الامة التي تتكون فيها طبقة نيرة متميزة متزايدةالعدد ، تتوغل في كل فرع من فروع العلم والادب والفن والثقافة والمعارف الانسانية ، الى اقصى حدود التوغل حتى تنتهك حجب الجهالة ، وتدرك سنن هذا الكون واسراره وتبتدع في وسائل الحضارة والعمران • وسنبقى في مؤخرة الركب البشري ؛ نتخبط في آفاق الجهل ، ونقاسي من آلامنا ، وتهددنا الآفات العديدة ، ما لم نعمل حثيثا على نشر الثقافة العميقة ، والعلم الصحيح ، وما لم نذلل الصعاب ، ونعبد الطريق لظهور « الصفوة » التي يجب ان يكون كل واحد منها حجة في موضوعه واختصاصه ، يرجع اليه ، ويكون له القول الفصل ، والرأي الذي لا رأي بعده •

الاستعمار الفكري[1]

لعل من المفيد ان اوضح في مستهل هذا المقال ما أقصد بهذا التعبير : « الاستعمار الفكري » ، ذلك لان الاستعمار اذا ما أطلق القول ، ينصرف عادة الى الاستعمار السياسي ؛ وهـو في الغالب نتيجة من نتائج التغلب الحربي ، او التسلط السياسي التدريجي ، وتوغل النفوذ الأجنبي في قطر من الاقطار .

وقد ينصرف أحيانا الى الاستعمار الاقتصادي وقد صار ، في العصر الحديث خاصة ، غاية من أهم غاياته . وقد تستعمر بعض الدول الكبيرة ـ المتقدمة بالصناعات الثقيلة ـ بعض الدول الصغيرة ، وخاصة الزراعية منها ، بطريقة سلمية نتيجة لضغطها المالي ، ونفوذها التجاري ، واستحواذها على اسواقها ومنتجاتها . ولكن يوجد في الحقيقة الى جانب الاستعمار السياسي ، والاستعمار الاقتصادي ، نوع ثالث من أنواع الاستعمار ، ليس أقل شرا من الاستعمارين الآخرين ، وان يكون سليما في مظاهرة ، هادئا في توغله ، تتقبله الشعوب وهي توهم نفسها انها حرة في تقبله واختياره . وهذا النوع من أنواع الاستعمار قد يسبق الاستعمارين الآخرين ويمهد لهما ، او ينتج عنهما ، وهو على كل حال حري ان تكافحه الشعوب الطامحة في الحرية ، الراغبة في الاستقلال الحقيقي ، بكل ما أوتيت من قوة وطول . ذلك لان هذا الاستعمار الهادىء الرزين افتك داء ، واخطر وباء ، في تقويض أية

---

(١) نشر هذا المقال فى العددين السادس عشر والسابع عشر من مجلة البعث العربي الصادر ببغداد بتاريخ ١٥ـ٨ـ١٩٥٢ .

أمة من الامم • وهو ، دون شك ، اعسرها في المعالجة ، واخطرها في الكيان الحقيقي • وقد تنال أمة استقلالها السياسي على أثر حرب طاحنة ، أو نزاع دولي عنيف ، وقد ينال شعب حقوقه السياسية كاملة نتيجة القوى الاجنبية أو توازنها ، وقد يحقق استقلاله الاقتصادي على أثر ازمة اقتصادية عالمية ، او بنتيجة مغامرات مالية أو مضاربات تجارية ولكن الاستقلال الفكري ، والتحرر العقلي ، لا يمكن تحقيقه ؛ لأية أمة من الامم الا بعد جهاد طويل ، وكفاح مرير ، ومراحل متعددة وعمل متواصل ، وجهود متضافرة • بل قد تستقل أمة من الامم سياسيا واقتصاديا ولكنها تبقى مع ذلك مستعمرة فكريا ، وهي لهذا لا يصح ان تسمى « مستقلة » بكل ما في الاستقلال من معاني • وقد تستعمر دولة أخرى سياسيا واقتصاديا ولكنها تبقى مستعمر فكريا لدولة ثالثة • ومن الغريب أن يصبح في احيان قليلة الغالب المنتصر سياسيا وعسكريا مستعمرا فكريا وروحيا للشعب الذي غلبه وتسلط عليه ، فتنعكس الحال حتى يصير الغالب في الحقيقة مغلوبا ، وهذا ما حدث لقبائل التتار التي غزت البلاد الاسلامية واكتسحت خلافة العباسيين في القرون الوسطى •••

ومظاهر الاستعمار الفكري عديدة ومتنوعة ، ولكن ابرزها ضعف شخصية الامة المستعمرة ، وذوبان ذاتيتها وتقمصها شخصية الأمة الغالبة ، وعدم ثقتها بنفسها ، وايمانها بغالبها ، وتنكرها مثلها ، ومعتقداتها ، وتأريخها ، ولغتها ، وآدابها وتقاليدها ، وايثارها مثل عدوها ، ومعتقداته ، وتأريخه ، ولغته ، وآدابه ، وتقاليده • ولذلك تجد بين ابناء المستعمرة فكريا من يكفر بمثل قومه ومعتقداتهم ، ويستهين بلغته حتى لا يرى بأسا عليه في ان يجهلها الجهل كله ، وترى من يتصور تاريخ أمته سلسلة من المآسي والفضائح المنكرة ، ولذا فهو لا يتذكر مفاخر أمته ولا يعتز بامجادها ، ولا تهزه ذكرى ابطالها ، ويحسب تقاليد قومه خرافات ليس عليه ان يتمسك بها ؛ وعلى العموم يصبح هذا الفريق من الناس في افكارهم ، واذواقهم ، وثقافتهم ، وآداب سلوكهم ، صورة ممسوخة لبعض دول الغرب التي استعمرتهم فكريا • فالادب الرفيع هو ادب الغرب ، والعلم الصحيح هو علم الغرب ،

والفن العالي هو فن الغرب ، والتاريخ الانساني الحري بالحفاوة والاعتزاز، هو تاريخ الغرب ، واللغات التي يجب عليه ان يبذل الجهد في تعلمها هي لغات الغرب ، والمصلحون والابطال والعلماء والفلاسفة وكل اصحاب الابداع والتفوق هم من الغرب الذي استعمر فكره وسلبه لبه ، واحاله آلة ميكانيكية لا تملك حرية الحركة الا كما تتحرك الآلة في سير رتيب ، ومجال ضيق محدود • ومن المؤلم حقا ان نرى بعض ابناء الامة العربية ، بل وبعض ذوي النفوذ والسلطان فيها ، من هـذا القبيل ، فتراهم مثلا لا يهتمون بتعلم لغتهم العربية ولا بتعليمها لابنائهم وبناتهم ، بينما تراهم يبذلون جهودا كبيرة في سبيل تعلم اللغات الاجنبية ، وترى هذا الفريق من الناس يتنطع باستعمال التعابير الاجنبية في احاديثه ليقيم الدليل على رقيه وثقافته وكماله ، ويحسب ان اتقانه العادات والتقاليد الغربية ، ـ دون تمييز الصالح من الطالح ـ فضيلة ما بعدها فضيلة • ولست بطبيعة الحال اوجه اللوم الى من يتعلم لغة اجنبية ، بل لست ، دون شك ، اهدف الى صرف الناس عن الاستنارة بالعلوم والاداب الغربية ، ولكن دراسة اللغات الاجنبية شيء ، والتنكر للغة العربية واهمالها شيء آخر ، فقد يتقن شخص لغات اجنبية عديدة ، ويتثقف بثقافات متنوعة ، وهو مع ذلك ، بل لعله لذلك حر الرأي ، مستقل الفكر ، لا يمنعه اعجابه بآداب الغرب من الاعجاب بآداب قومه ، ولا يصرفه اتقان الثقافة الاجنبية عن الاستزادة من ثقافته العربية ، ولا يحول تمسكه بتقاليد امته ، من الاخذ بالصالح المفيد من تقاليد الامم الاخرى • ولكنه لاصالته واستقلاله ، لا يأخذ ، حينما يأخذ ، ولا يعرض عنه حينما يعرض ، الا بعد فحص دقيق ، وموازنة عادلة ، ونقد صارم ، ولذا فهو لا يتجنى على قومه وآدابهم ولغتهم وتاريخهم وتقاليدهم ومعتقداتهم ، كما لا يتجنى على سواهم من الامم والشعوب • ولكنه يدرك بعين بصيرته ان الحكم على امة من الامم ومقوماتها لا يدرك ادراكا صحيحا بالنظر المجرد الى حاضرها فحسب بل يكون بالاضافة الى ذلك ، بالالمام التام بماضيها ، ومقدار نصيبها من الحضارة ، والتراث الانساني • واحسب ان كل أمة تريد الاستقلال الحق عليها ان تسعى ، اولا وبالذات ، لاستقلالها الفكري ، وتخليص بنيها من نير الاستعباد العقلي ، والاستعمار الروحي

الذي تفرضه عليها الامم الغالبة فرضا ، وهذا لا يمكن ان يتحقق في وقت قصير • اذ لابد لذلك من انشاء الروح الاستقلالية في نفوس الاطفال انشاء ثم غرسها وتنميتها في عقولهم ، ومزجها بارواحهم ، في مختلف مراحل دراستهم وتطورهم • ويقع هذا العبء الثقيل على من تقع عليهم تبعة تربية الاجيال القادمة من آباء وامهات ، ومدرسين ومدرسات ، وعليهم ان يتنبهوا الى حقيقة أساسية يؤكدونها في اذهان الناشئة : وهي ان الحضارة الانسانية ، والمدنية العالمية ، سلسلة موصولة متعددة الحلقات ، وان لنا في هذه السلسلة اجزاءا عديدة •

وانه لمن المؤلم حقا ان يتخرج التلاميذ في المدارس الثانوية ، ويتخرج الطلاب في الكليات والمعاهد العالية ، وهم لا يعرفون شيئا ذا بال عن مجهود العرب العلمي في الرياضيات والطبيعيات والكيمياء والفلك والجغرافية ، ولا يتذكرون اسما لعالم عربي ، او مخترع عربي ، ناهيك من جهلهم بأدباء العرب المبرزين ، وشعرائهم المبدعين وفلاسفتهم ، وفقهائهم ، وابطالهم في الحرب والسياسة ، بينما تحشي ادمغتهم ، وتمليء اسماعهم باسماء غريبة هي ، على عظم قدرها ، ليست احق بالخلود ، ولا اجدر بالذكرى ، من نوابغ الامة العربية ؟ ولكن الاستعمار الفكرى ، والجمود العقلي ، والتقليد الاعمى ، وفقدان التوجيه في بيوتنا ومدارسنا ومؤسساتنا ومناهجنا ، ومؤلفاتنا •••

علينا ان ندرس تاريخنا ، وتأريخ حضارتنا ، لنقدر تراثنا العقلي ، والثقافي ، والروحي ، في مختلف نواحي الحياة ، فان حققنا هذا ـ وحري بنا ان نحققه ـ نكون قد مهدنا السبيل لانشاء جيل جيد حر في تفكيره ؛ مستقل في آرائه ، عارف قدر امته ، يعتز بأمجادها ، وتهزه ذكرى ابطالها ، رحيب الصدر ، يحب البطولة في أية أمة وفي اى شعب من أمم هذه الارض شعوبها[1] •

---

(١) لقد اسهبت فى بحث هذا الموضوع فى ص ٢٥٦ من الطبعة الثانية من كتابى « من وحي العروبة » (طبع فى القاهرة دار القلم) فى فصل عنوانه : « الاستعمار الفكرى اخطر انواع الاستعمار » فأليه اشير من يريد الاستزادة من هذا البحث •

اسرائيل خطر اقتصادي وعسكري وسياسي[1]

ان خطر اسرائيل على البلاد العربية ، وكيان الامة العربية بكامله ، خطر حقيقي واقعي لا مجال للمبالغة أو التزود فيه • وان هـذا الخطر ليزداد شدة يوما بعد يوم ، وسنة بعد أخرى ، وانه متشعب النواحي والجوانب ؛ فهو خطر اقتصادي يهدد اقتصاديات البلاد العربية - وعلى الاخص البلاد المتاخمة - بالارتباك ، ويجعل ميزانها التجاري مضطربا • وهو خطر عسكري من الغفلة والخيانة تجاهله • وهو الى ذلك خطر سياسي ، من بعض نتائجه اقتطاع جزء ثمين من جسم الوطن العربي ، واقامة اسفين يحول بين مشرق البلاد العربية ومغربها ، ويعرقل اقامة « الاتحاد العربي » الهدف الذي لا يرى المخلصون سبيلا للحياة الكريمة بسواه • وانه بالاضافة الى ما تقدم ، خطر اجتماعي عظيم ، يهدد مقومات الامة العربية ، واخلاقها ، ومثلها ، وعقيدتها ، بالابادة والمسخ ، ولعل هذه الناحية لم تعط بعد نصيبا اللائق من العناية •

ولا شك أن الاخطار الداخلية والخارجية التي تحيق بالامة العربية من جميع جوانبها عديدة متنوعة ، ولكن الخطر الصهيوني يجب ان يبقى في طليعة الاخطار • واحسب ان لا سبيل للقضاء على كثير من الاخطار الاخرى قضاءا تاما ، والنجاة منها ، ما دام هذا الخطر جاثما على الصدور •

---

(١) نقد لكتاب صدر بهذا العنوان وقد نشر هذا المقال فى العدد (١٨ ، ١٩) من مجلة البعث العربى الصادر فى ١٥-٩-١٩٥٢ .

وعلى ذلك فحرى بنا ان نتنبه الى هذا « البلاء » كل التنبه ، وأن ننبه بصورة دائمة ومستمرة عليه ، وان نشرب قلوب أبناء الامة العربية في مختلف اقطارها ؛ نسائها ورجالها ، شيبها وشبابها ، مثقفيها وعامتها ، جسامته وشدته . ومن اللازم ان تكون جميع اتجاهاتنا وأعمالنا وسياساتنا قائمة على أساس هذه الحقيقة . وليس خطر اسرائيل متأت من المليون ونصف المليون الذين يقيمون اليوم في البقعة الضيقة من فلسطين فحسب ، بل ومن النفوذ العالمي الواسع الذي يسند هذه الدولة الفتية الطامحة . اذ من المعلوم ان لليهودية العالمية نفوذا واسعا ، وانها تستغل وسائل الدعاية والنشر والعلانية والسينما والاذاعات والمجلات والصحف لتوجيه الانظار اليها وتهيئة الافكار لمطاليبها . وتستعين بالبيوت المالية والمصارف والشركات الكبرى والاتحادات التجارية العالمية لاسنادها . وليست المؤسسات والاحزاب والجمعيات السرية والعلنية الوطنية والعالمية من مختلف الاتجاهات والمذاهب والاراء الا بعض مجالاتها الفسيحة التي تتنافس في استرضائها وخدمة اغراضها . وليست الاندية والمؤسسات الادبية والفنية والعلمية والدينية التي يتوغل فيها النفوذ الصهيوني أشد التوغل ، وتوجه نشاطها بطرق ماكرة ماهرة ، الا بعض ميادين نفوذها . لهذا كله تسيطر اليهودية العالمية سيطرة واسعة على حكومات العالم كله ، توجهها للدفاع عن مصالح اسرائيل ، والعمل على تحقيق أغراضها . فليس عجيبا ان تتبنى بريطانيا الصهيونية منذ طفولتها حتى تشب وتترعرع في كنفها ، ثم تتولاها الولايات المتحدة الاميركية بالحبوة والرعاية ، بل والملق المشين ، الى حد لم ير معه رئيس جمهورية أكبر وأغنى دولة فى العالم بأسا فى مسارعته فى الاعتراف باسرائيل بعد ساعات من اعلان تشكيلها . وليس بدعا بعد ذلك ان تسند روسيا الشيوعية سياسة اسرائيل ، وتمدها بالعون في الوقت المناسب ، وتتملقها بالقول المعسول ، وهي الدولة التي ترتجف منها الدول .

وليس غريبا أيضا ان تلين المانيا الغربية ، وهي لما تزل في أول تكوينها وخاضعة للدول الغربية وخاصة أمريكا ، لمطاليب اسرائيل ، وتتفق

معها على تعويضها مبالغ طائلة على اعتبارها الناطق الرسمي باسم يهود العالم ويحق لها المطالبة بالتعويض عن الاضرار التي أصابت اليهود في العهد النازي • أما تنافس الشركات الامريكية والانكليزية والفرنسية في التملق الى اسرائيل ، وتوجيه رؤوس الاموال الجسيمة ومدها بالعون ، وفتح الفروع للمعامل ، لاستغلالها في اسرائيل ، وتنمية صناعاتها الحديثة ودعمها ، فذلك من الجلاء بحيث لا يحتاج الى تنبيه خاص •

ومن العجب بعد هذا كله ان نرى فريقا من ساسة العرب وقادتهم لا يحسون بهذا الخطر الداهم احساسا كاملا ولم يعدوا ـ الى هذا اليوم ـ لهذا السيل الدافق ما يحول ـ على الاقل ـ دون امتداده وتوغله ، ولا يزالون في غفوة عميقة ، يعنون بالخلافات الداخلية ، ويفرحون بالانتصارات المحلية الجزئية ، فمقعد نيابي في برلمان عاجز ، أو كرسي وزارة في حكومة مشلولة ، أو تاج في مملكة شوهاء أقيمت على جماجم الضحايا ، أو رئاسة دولة اصطنعها العدو وأقامها لعبة في يده ، أعز عليهم من الارض المقدسة وما فقد العرب فيها من أموال ، وسفكوا من دماء ، وهدروا من كرامة •••

واعجب من ذلك كله أن لم يزل فريق من العرب يعتقدون بأننا بالمقاطعة الاقتصادية « الوهمية » وحدها قادرون على القضاء على اسرائيل ، وهم يبنون آراءهم على أوهام ، وأخبار ملفقة كثيرا ما يشيعها اليهود أنفسهم عن عجز دولتهم وضعفها الاقتصادي ، وهم بذلك يريدون ان يشيع في نفوس العرب شعور الرضا والاطمئنان ، ليستنيموا على هذه الاوهام والمخدرات ، ويبقى اليهود وحدهم يسابقون الزمن لتحقيق أهدافهم البعيدة التي يجدون لتحقيقها بكل قواهم •

لقد برهن مؤلف كتاب « اسرائيل خطر اقتصادي وعسكري وسياسي » على خطل هذا الرأي ، وأقام البرهان القاطع ، والحجة البالغة على أن ما تعانيه اسرائيل من ضيق اقتصادي ، وارتباك في ميزانها التجاري يرجع بالدرجة الاولى الى سياستها العسكرية العدوانية ، وانفاق الاموال الطائلة

والثروات العظيمة على التسليح وصنع معامل السلاح والعتاد واقامة الصناعات العديدة الواسعة التي سيظهر نتاجها بعد حين ، وهي تسعى بهذا لتحقيق أهدافها القومية التي لا يعتبر قيام اسرائيل بحـدودها الحالية الا الخطوة الاولى التي ستعقبها خطوات ولولا تلك السياسة القائمة على « التعبئة الكلية » لجميع قوى الامة ومواردها ، في الداخل والخارج ، لتحسنت حالة اسرائيل الاقتصادية تحسنا ظاهرا .

ان هذا الكتاب الصغير ، الذي لا تتجاوز صفحاته المائة والثمانين صفحة من القطع المتوسط ، والذي أصدره المكتب الدائم لاتحـاد غرف التجارة والزراعة والصناعة في البلاد العربية ، وطبعته دار العلم للملايين ببيروت ـ عظيم الفائدة ، ويستحق من أجله المكتب المذكور التهنئة الحارة ويستحق على الاخص مدير المكتب الاستاذ برهان الدجانى الثناء على هذا المجهـود القيم . والكتاب حري بأن يقرأه كل عربي ، وجدير ، على الاخص بأن يقرأه ، ويعيد قراءته ، من بيدهم مقاليـد الامور من رجال « الحكومات السبع » ، والساسة ، والزعماء ، وقادة الفكر . وسـيتجلى لهم الفرق الشاسع ، والبون العظيم بين « الدولة الواحدة » التي كانت صحفنا الى الامس القريب تنعتها ـ بحسن نية ـ بالدولة المزعومة ، تلك الدولة ذات الاهداف الواضحة ، والفكرة الجلية ، والوسائل المؤدية الى تحقيق تلك الاهداف ، والتي قد عبأت بالفعل كل قواها ، وكافة امكانياتهـا في داخل اسـرائيل وخارجها ، وبين الدول المصطنعة التي ليس لها أهداف واضحة ولا سبل معلومة ، والتي لم تحاول قط أن تعبىء كل مواردها وجميع قواها بغيـة مكافحة هذا الخطر الجسيم والوباء الماحق .

والخير كل الخير في أن نبالغ في تقدير خطر اسرائيل ونعد له أكثر مما يحتاج من قوة من أن نبالغ ـ كما فعلنا في الماضي[1] ـ في انتقاص هذه القوة الرهيبة ، فخسرنا « الجولة الاولى » . ولا ننسى « أن من أول مبادىء

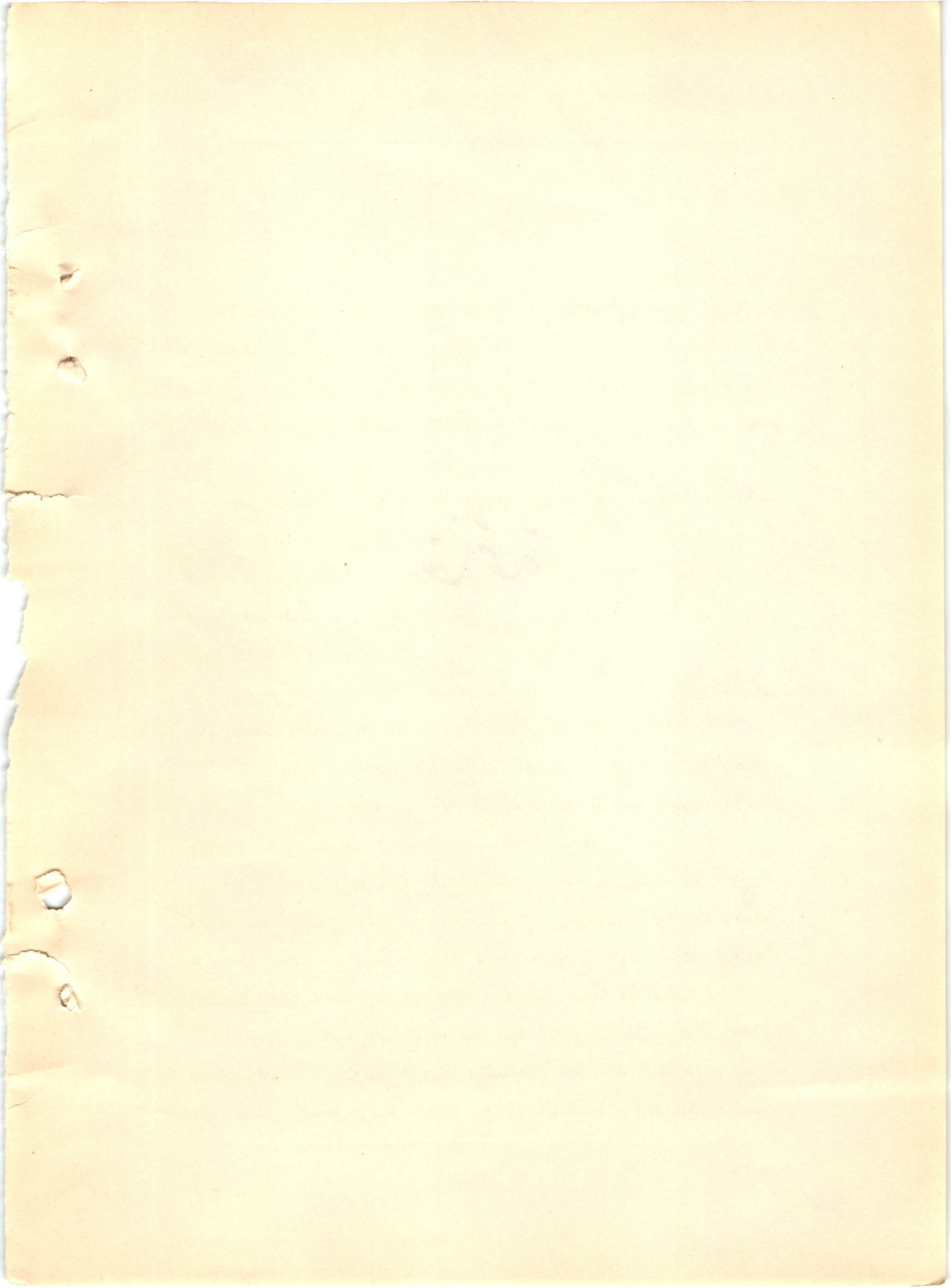
---

(١) من المؤسف اننا وقعنا فى هذا الخطأ ثانية وكان ذلك من اسباب النكبة الجديدة .

النضال ، أن من الأفضل تقدير الخصم بأكثر من قوته الحقيقية لان جهد المقاومة يكون مبنية على تقدير الخصم • وخير أن نصنع من الجهد في مقاومة اسرائيل أكثر مما نحتاج فنسد عليها الطرق ، من أن نصنع أقل مما تحتاج فتفتح ثغرة تنفذ منها » •

وثمة ظاهرة أخرى تدعو للاسف المرير ؛ وهي أن بعض ســاسة العرب ، وبعض دولهم ، صاروا في الآونة الاخيرة خاصة ، يحرصون على عدم اثارة مأساة فلســطين من « حيث الاســاس » ، بل أن بعضهم صار يحرص على التعفية على هذا الاسم الحبيب « فلسطين » الذي يجب ان لا ينسى ، واقتصر جهدهم ــ ان كان لهم جهد ــ على مسائل فرعية كتوطين اللاجئين ، وتعويضهم ، ومشاكل الحدود ، وتدويل القدس ، وما الى ذلك من أمور • وأن هذه المسائل على أهميتها يجب ان لا تصرفنا عن القضية الاساسية والايمان التام الذي يجب ان لا يتسرب اليه الشك مطلقا من أن حق العرب الخالدة لا يمكن ، في النهاية ، ان يقضي عليه مكر الصهيونية الباطل وان أخطر الدعوات وأضرها دعوات « التعقل » والرضوخ « للامر الواقع » المشين، والاستسلام النهائي « للحالة الراهنة » •

خاتمة



لقد اصبح واضحا ان المقالات المختلفة ، والاحاديث العديدة التي القيت في مناسبات شتى ، وازمان متباينة ، كانت تلتقي ، آخر الامر ، عند هدف أساسي واحد ، هو الذي حاولت ان اوضحه في المقدمة المسهبة لهذا الكتاب ، واعني به التحذير من النكبة ، واعلان النذر تلو النذر بقصد تفاديها .

لقد كان شبح النكبة المخيف ماثلا دائما وابدا امام ناظري ، وانا أتحدث من دار الاذاعة في بغداد او القاهرة ، او احاضر الطلاب ، او الجماهير هنا او هناك ، او احرر المقالات لمجلةالبعثالعربي او غيرها . ولذلك لم يخل فصل من فصول هذا الكتاب تقريبا من ذكر اسرائيل والصهيونية صراحة او تلويحا ، بطريقة او باخرى ...

وارجو الا يكون للغرور سلطان على نفسي حين ادعي بانني كنت (في تلك المقالات والمحاضرات والاحاديث) ثائرا بمعنى من المعاني ...

كنت ثائرا على الجهل والتخلف ، والاضطراب الاجتماعي ، والانحطاط الثقافي ، والتدني الخلقي ، والآفات الاجتماعية العديدة الاخرى التي كنا ولم نزل ـ الى حد بعيد ـ نقاسي اشد المقاساة منها ...

وكنت فوق ذلك نذيرا يقرع الطبول ويحذر من مغبة تلك الآفات ، وما قد تجرهعلينا من ويلات ، وكنت بشيرا يرى أنالثورة ، والثورة وحدها ، هي التي تمكننا من انشاء وجودنا نشأة اخرى ، لنكون اندادا لعدونا ، ولنستطيع ان نلاقيه في صعيد واحد ، ونفوت عليه كل امتياز .

لقد كنت ثائرا يفهم الثورة على انها ـ قبل كل شيء آخر ـ اجتثاث اسباب الفساد من ذوات نفوسنا ، لنستطيع بعد ذلك اقامة صرح وجودنا على اسس راسخة قويمة ، وبناء اجيالنا الصاعدة مزودة بالمثل العليا ،

ومدركة لروح المواطنة الصادقة ، ومشبعة بمعاني العدل والخير والجمال ...

كنت ثائرا ارى ان أول ما يجب ان نثور عليه هو سيئات اعمالنا ، وغل قلوبنا ، ونزوات نفوسنا ، وسوء تربيتنا ...

كنت ثائرا لا يرى غاية الغايات في تغيير الحاكمين ، واستبدال انظمة الحكم ، ما بقيت فلسفة الحكم هي هي ، وروح الحاكمين ـ ولتكن القابهم ما تكون ـ لم تتبدل ...

كنت ثائرا لا يبرر العنف الا عند الضرورة القصوى ، والا حين يقترن باسمى الغايات ، ولا يصار اليه وسيلة الا حين تتقطع كل الاسباب ، ولسان حاله يقول :

اذا لم يكن دون الاسنة مركبا   فما حيلة المضطر الا ركوبها

تلك هي بعض معاني الثورة كما اراها . ولو انا وفقنا لادراكها على وجهها السليم ، وعملنا على تحقيق غاياتهاكماكان يجب ان تتحقق، لكنا اليوم في نجوة من الهوان الذي نقاسي منه في هذا الوقت العصيب بسبب هذه النكسة المفجعة الموجعة .

واليوم وقد وقعت الواقعة ، وحل البلاء ، واصبنا بالكارثة ، ولم تفدنا نذر المنذرين ؛ يجول السؤال الآتي في كل خاطر ، ويتدافع على كل لسان : ما الذي يجب علينا ان نفعله ؟

سؤال جد خطير ، ولا بد لنا ـ كما اشرت الى ذلك في مقدمة هذا الكتاب ـ من هيئة مدركة مخلصة تتفرغ لاعطائنا الجواب الحاسم النهائي الدقيق المجدي . ولكن مع ذلك ، فيما ارى ، صار من الجلي ان لا بد لنا من ان نسير ، في آن واحد ، في خطتين ؛ خطة سريعة ملحة لابد لنا ان ننجزها في الامد القصير ، واخرى بعيدة المدى ، عميقة الاغوار ، تحتاج الى زمان طويل وجهد مضن .

اما الخطة الآنية الواجبة التنفيذ في الامد القصير ، فقد حاولت اجمالها في العبر الثماني التي اشرت اليها في مقدمة هذا الكتاب ، وبصورة خاصة النقاط الثلاث الاولى التي اعتبرتها ملحة وحتمية ، والتي نتلافى بها بعض اهم اوجه النقص العديدة التي تكشفت عنها نكبتنا الاخيرة هذه .

على ان الشيء الاهم ، والاجدى ، والاكثر دواما ، هو الخطة البعيدة المدى ، التي يجب ان نعد لها العدة الكاملة • وهي في جوهرها اعداد تام للمواطن العربي في دنيا العرب كلها ، بحيث يرقى الى المستوى اللائق بالانسان الذي يريد ان يعيش في صميم حياة النصف الثاني من القرن العشرين ؛ انسانا كفواً للعدو القوي الماكر الذي يتحدانا بوجوده ، وبنوعية مواطنيه •

ان هذا الاعداد عمل جبار سيقتضينا ان نعيد النظر بصورة جذرية في اسس تربيتنا ، ومعايير خلقنا ، وطرائق تفكيرنا ، واساليب عيشنا ، وسياسات حكوماتنا ، ووسائل عملنا وتنظيمنا • انه بكلمة موجزة واحدة يقتضينا « ثورة » بكل ما في الثورة من معان اصيلة فعالة •••

لا بد لنا من ثورة اصيلة غير مشوهة ؛ ثورة على الباطل ، ثورة على الظلم والطغيان ، ثورة على الانحراف والتضليل ، ثورة على الجهل الموغل والانانية المتحكمة ، ثورة على الطبقية والطبقة الجديدة خاصة ، ثورة على الذين يستغلون اسم الثورة ويدجلون بها ليقيموا نظما موغلة في رجعيتها وشناعتها • لا بد لنا من ثورة لننشيء المواطن الصالح ، لابد لنا من ثورة لخلق الفرد الصالح المتمتع بكمال حقوقه وحرياته ، القادر على الاسهام ، رغبة منه ، في خدمة وطنه وامته ، الفرد الكريم على نفسه ليكون كريما عند الناس اجمعين •

اذا انت لم تعرف لنفسك حقها   هوانا بها كانت على الناس اهونا

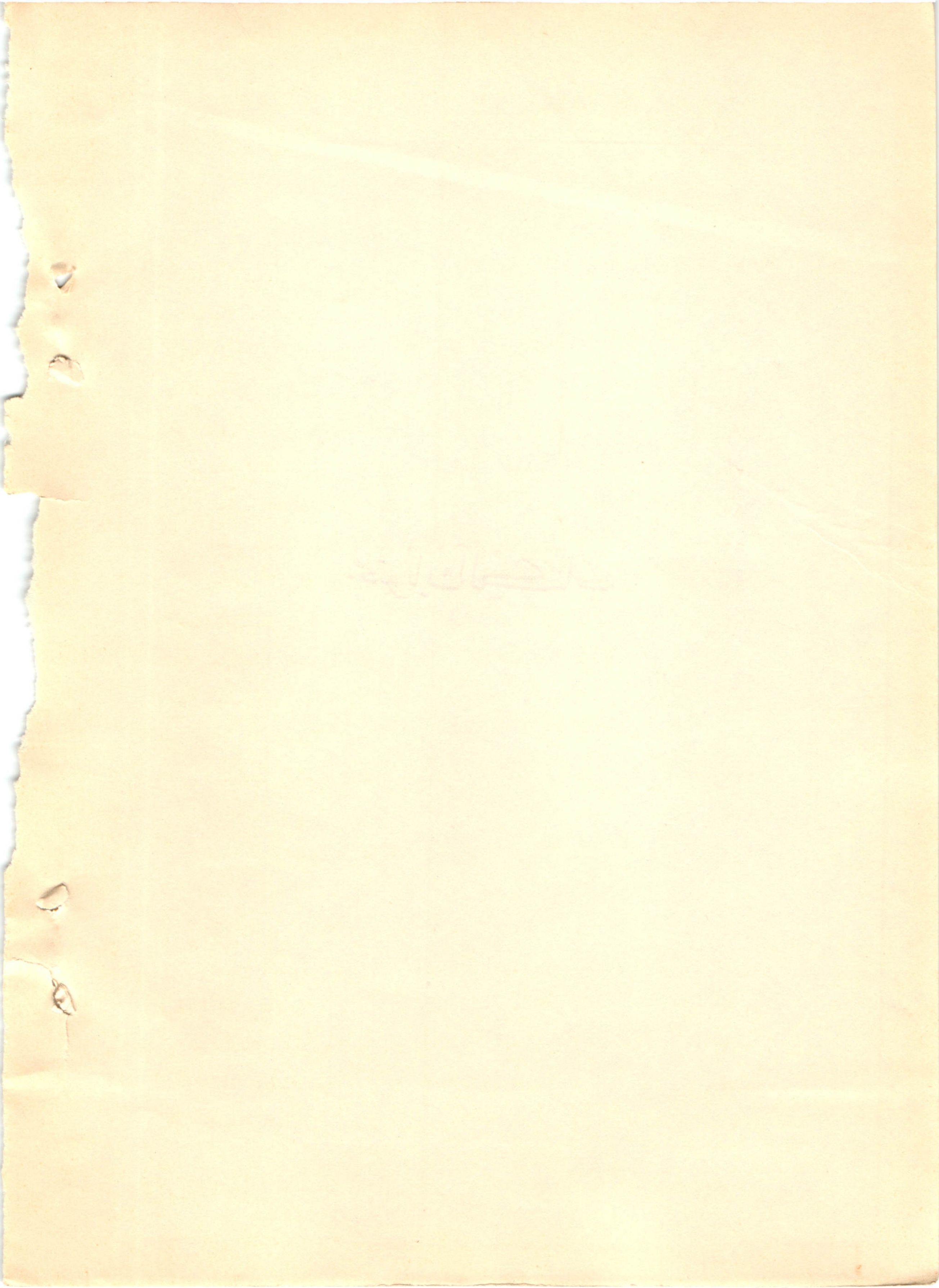
ان هذه الثورة ستقتضينا ان نحدد بدقة ووضوح مفاهيم الحرية ، والديمقراطية ، والتقدمية ، والاشتراكية ، والثورية ، والوحدة ، لنجعلهامبرأة من الزيف ، محببة الى النفوس ، ولنجعلها ارادة شعب كله يريد البناء ، ورغبة امة تنشيء بتصميمها الحياة وتبني ، لا مشيئة فئة صغيرة تدل بها على ابناء جلدتها ، وقد يتاجر بعض افرادها بهذه المفاهيم ، ويجعل من الثورة مغنما يؤمن له الجاه والسلطة والثراء ، ولا يضيره بعد ذلك ان يهدر في الانسان الذي كرمه الله انسانيته ، وينزل به الى ادنى دركات البربرية الاولى والجهالة الجهلاء •••

هذه بعض الخواطر اختتم بها ، على عجل ، هذا الكتاب ٠ واني لعلى ما يشبه اليقين من أن المواطنين الاسوياء كافة في شوق ملح ، وحاجة ماسة ، ورغبة صادقة ، الى من يجلي لهم هذه المعاني ، ويزيدها تبيانا ، عسى ان ينير ذلك لهم طريقهم المظلم ، ويخفف من الضر الذي مسهم ، وعساه ، في الوقت ذاته ، ينفس عنهم بعض ما في صدورهم من كرب بسبب توالي النكسات ، وتعدد النكبات ٠٠٠

واني لارجو مخلصا ان اوفق في الاجابة عن كل ، او جل ، ما يتوارد اليوم في الخواطر ، ويزدحم في الاذهان ، في كتابي « مع الشعب » الذي آمل الا يتأخر وصوله الى ايديهم الى ما بعد الخريف القادم ٠

وغاية ما ارجوه ــ ختاما ــ ان أكون في مجهودي الفكري المتواضع هذا (وقد خصصت ريعه لمساعدة قواتنا المسلحة) قد اسهمت بما يجب علي الاسهام به ، وفي حدود طاقتي في هذه الفترة العصيبة ، واديت بعض ما للشعب والامة علي من حق ٠ فان وفقت فذلك مبتغاي ، وان اخطأت فالى الخير قصدت ، والله من وراء القصد ٠

مُحتَويَاتُ الكِتَاب



الصفحة

الصفحة

آثـار المؤلف

الـكتب القانونية :

١ ـ مذكرات في احكام الاراضي في العراق ، الطبعة الثانية ، بغداد ١٩٤١ ، نافد ٠

٢ ـ الموجز في تاريخ القانون ، الطبعة الثانية ، بغـداد ١٩٤٩ ، نافـد ٠

٣ ـ مبادىء اصول القانون ، الطبعة الثانية ، بغداد ١٩٥٨ ، نافد ٠

٤ ـ ابحاث واحاديث في الفقه والقانون ، مطبعة العانى ، بغـداد ١٩٥٨ ٠

٥ ـ الدولة الموحدة والدولة الاتحادية ، الطبعة الثالثة ، دار القلم ، القاهرة ١٩٦٦ ٠

٦ ـ مبادىء القانون المقارن ، مطبعة العانى ، بغداد ١٩٦٧ ٠

الـكتب التاريخية :

٧ ـ العراق من الاحتـلال حتى الاستقلال (محاضرات القيت في معهد الدراسات العربية العالية) ، الطبعةالثالثة ، مطبعة العانى، بغداد ١٩٦٧ ٠

٨ ـ صفحات من الامس القريب : ثورة العراق هل كانت حتمية ؟ ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٠ ٠

الـكتب القومية :

٩ ـ ابحاث في القومية العربية (محاضرات القيت في كلية الحقوق بجامعة القاهرة وكليتي الشريعة واللغة العربية بجامعة الازهر) ، مطبعة القاهرة ١٩٦١ ، نافد ٠

١٠ـ من وحي العـروبة ، الطبعة الثانية ، دار القـلم ، القاهـرة ١٩٦٣ ٠

١١ـ هذه قوميتنا (الطبعة الاولى لهـذا الـكتاب كانت بعنـوان بحوث في القوميـــة العـربية ـ محاضرات القيت في معهـد

الدراسات العربية العالية) ، الطبعة الثانية ، دار القلم ، القاهرة ١٩٦٣ ·
وقد ترجمت بعض فصول هذا الكتاب الى الانكليزية ونشرت بعنـــوان :

Al-Bazzaz : on Arab Nationalism

والى الفرنسية بعنوان :

Tel est notre nationalisme

الـكتب الاسلامية :

١٢ـ من روح الاسلام ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٥٩ ·

الـكتب الاجتماعية :

١٣ـ نظرات في التربية والاجتماع والقومية (هذا الكتاب) ·

تحت الطبــع :

مــع الشــــعب

يصدر قريباً ...

(مطبعة العاني)/١/٥٠٠٠/١٩٦٧

